نولة درويش

وأجمل الذكريات ستأتي حتمًا

نولة درويش

وأجمل الذكريات ستأتي حتمًا

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤
© نولة درويش ٢٠٢٤
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

درويش، نولة.
وأجمل الذكريات ستأتي حتمًا/ نولة درويش - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٧٢ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: 9789778721966
١- نولة درويش - المذكرات
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٠١٥ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إهداء

إلى ابنتي بسمة، وحفيدتي ناديا، وابنتي الروحية راجية عمران.

وإلى أسرتي الممتدة من بناتي وصديقاتي وزميلاتي السابقات والحاليات والمقبلات في مؤسسة المرأة الجديدة.

وإلى الأجيال الشابة الحالية من نسويات ونسويين اللاتي والذين يتشرفون باستلام مهمة الدفاع عن حقوق النساء جيلًا وراء جيل.

أشكر والدتي ووالدي اللذين ربياني على القيم والمبادئ التي شكَّلت هويتي، وأشكر جميع من شجعني في العثور على ما بداخلي من ذكريات كنت ظننت أنها اختفت، وأشكر كل شخص أمدني بما ينقصني من معلومات، وعلى رأسهم أخي مجاهد درويش، وأحمد سيد والد بسمة، وابنة عمتي نادية صالح-هارتمان، وصديقتي مها عفت. وأخيرًا، أخص بالشكر والامتنان الصديق العزيز سيف سلماوي، ليس بصفته الناشر ولكن لكل الدعم المعنوي والسند القوي الذي لم يبخل به عليَّ في الماضي أو الحاضر.

المحتويات

سنوات الطفولة: ١٩٤٩-١٩٥٨

نهاية الطفولة: ١٩٥٩-١٩٦٤

سنوات المراهقة وبدايات النضج: ١٩٦٥-١٩٧٥

الحياة في مصر - الزواج والإنجاب والطلاق وقصص أخرى: ١٩٧٥-١٩٨٢

سنوات تغيير المسار المهني والنضالي وبعض شهور الغربة:

١٩٨٤-١٩٩٤

سنوات العمل المهني والعام المُكثف: ١٩٩٥-٢٠٠٥

سنوات الهموم الشخصية واختمار الغضب العام: ٢٠٠٥ -٢٠١٠

سنوات تصاعد الغضب وتفشي الأمراض العامة والخاصة:

٢٠١٠-٢٠١٢

ملاحق

هل يكفي رغيف الخبز وحده؟

الفصل التعسفي بين العام والخاص

المدينة التي هجرتني

هل من قيمة مضافة؟

ميثاق أخلاقيات العمل ومدونة السلوك لمؤسسة المرأة الجديدة

سنوات الطفولة

١٩٤٩-١٩٥٨

وُلدت بالمستشفى الفرنساوي في يونيو عام ١٩٤٩، وكان قد تم اعتقال والدي في نوفمبر ١٩٤٨ وأُفرج عنه في نوفمبر ١٩٤٩، وبالتالي وُلدت وهو في السجن، فأرسلت والدتي إليه برقية تلغرافية في معتقل الهايكستب تبلغُه بقدومي؛ ثم قُبض على والدي عام ١٩٥٠ ليقضي عقوبة لمدة ثلاث سنوات في السجن، بسبب إدانته بالانتماء إلى مجموعة شيوعية. وكان مقتنعًا تمامًا في أثناء فترة حمل أمي أن الطفل القادم سيكون ابنة، فهو له ابن من زواج سابق والآن جاء دور البنت.

اقترح أبي لهذه الابنة اسم ربوة، فاستفسرت منه أمي:

- ولو طلع ولد حنسميه إيه؟

فرفض الفكرة بطريقة قاطعة، على الرغم من أنه لم يكن هناك في هذه الفترة السونار الذي يساعد في تحديد جنس الجنين للتأكيد على ما يتوقعه. ولكن ما كان يريده الآن هو ابنة، ولا أعلم من أين جاءت له فكرة هذا الاسم، ولمَ ليس «جبل» أو «بحيرة»؟ لم تستحسن أمي الاسم المُقترَح من أبي واعتبرته ثقيلًا على الفهم، فراحت تبحث في قاموس عربي عن أفكار أخرى، فلما وصلت إلى فعل نال، وجدت أن هناك إمكانية لاستخلاص اسم مشتق منه، مثل: منال، ونوال، ونائلة، فجاء اختيارها لاسم نولة الذي قبله أبي. والواقع أن أبوَي لم يفكرا في تبعات أي من الاسمين - سواء ربوة أو نولة - على حياتي المستقبلية، فهناك عديد من الناس لا ينطقون أو يكتبون اسمي بطريقة سليمة، إلى درجة أنه لما وُلدت ابنتي، يبدو أن الموظف المسؤول عن قيد المواليد احتار لما قرأ الاسم الغريب المكتوب على بطاقتي الشخصية وسجل عند خانة اسم الأم «فولة» بدلًا من «نولة»، مما استدعى فيما بعد اتخاذ إجراء قانوني لتعديل اسم الأم على شهادة ميلاد ابنتي بسمة. الغريب أيضًا أن شهادة ميلادي أنا الأخرى سبق أن احتاجت إلى إجراء قانوني لتعديل اسم الأم، فكان موظف عند أحد أعمامي قد ذهب إلى السجل المدني لتسجيل المولودة، فأملى في خانة اسم الأم إقبال هانم درويش، وهي لم تكن هانم ولا درويش، إنما كان اسمها إقبال دافيد حاسين.

أنا وماما في المستشفى الفرنساوي، يونيو ١٩٤٩

أنا وبابا، ديسمبر ١٩٤٩

لما وصلت إلى مرحلة سِنِّية يبدأ فيها الأطفال بطرح الأسئلة من كل نوع، يبدو أن فضولي انصب على سبب غياب والدي، فسألت أمي التي لم تخفِ عني لحظة وجود والدي بالسجن:

- ليه هو في السجن؟

حاولت هي أن تقدم لي إجابة تتناسب مع المفاهيم التي يمكن أن تستوعبها سني، وقالت:

- بابا كان ماشي في الشارع، شاف طفل صغير غلبان بيضربه شاويش ضخم. بابا ما استحملش المنظر ده وراح يضرب الشاويش علشان يسيب الولد الصغير، وعلشان كده أخدوه السجن.

أعتقد أن هذه الصورة لرفض الظلم والبطش بمن هم أضعف منا أثَّرت على مجرى حياتي كاملة، بل إنني ما زلت أستدعيها حينما أشاهد صورًا مماثلة لهذا المعنى، كما أقاومها بكل إمكانياتي، ليس فقط مع الضعفاء، ولكن أيضًا مع أي شخص يتعرض للظلم.

أنا في مرحلة بداية طرح الأسئلة، عام ١٩٥٢

وُلدت لأم وأب اختارا الانحياز إلى بقية الشعب المصري؛ فكان أبي منذ عودته من دراسته الجامعية في فرنسا من المدافعين عن حقوق الطبقة العاملة، وعمل على التواصل مع قياداتها حتى يستطيع تقديم دعمه كاملًا وبطريقة فعالة، وكانت والدتي متضامنة معه في هذا المسعى. فقررا اعتناق الإسلام قبل زواجهما بفترة وجيزة، أي في عام ١٩٤٧، على الرغم من أنهما لم يكونا بصفة خاصة من شديدي التدين، ولكنهما اقتنعا بأن هذا الأمر سيُقرِّب إمكانيات التعامل بطريقة سلسة في ظل التوجس العام المتنامي تجاه اليهود بفعل الدعايات السائدة، وبالتالي، وُلدت مسلمة، أما أخي مجاهد - الذي يكبرني بست سنوات وهو ليس شقيقي وإنما ثمرة زيجة سابقة لأبي - فبعد أن وُلد يهوديًّا، أصبح مسلمًا بالتبعية لديانة والده الجديدة كما هو العُرف في مصر. ربما أزعجه هذا الاختيار - الذي تم رغمًا عن إرادته - حينما كبر ونضج وأصبحت لديه القدرة على التفكير النقدي. أما أنا، فلم أهتم كثيرًا بالأمر، خاصة أن أهلي قد أودعوني - كما سبق أن فضَّل أبي الاختيار نفسه بالنسبة إلى أخي - في مدرسة البعثة العلمانية الفرنسية حيث لم تكن الانتماءات الدينية مطروحة على هذا النوع من التعليم ويُترك لكل أسرة اختيار الأسلوب الذي تراه مناسبًا

لتعريف أطفالها بالتعاليم الأخلاقية والمفاهيم التي يتضمنها دينهم سواء كانت تتم هذه التربية الدينية في إطار الأسرة، أو في دور العبادة المرادفة لكل دين.

بابا وماما بعد إشهار الإسلام، عام ١٩٤٧

قبل إشهار الإسلام، كان اسم والدتي إستر واختارت بعد ذلك لنفسها اسم إقبال وهي التي كانت تنتمي إلى أسرة يهودية من ملَّة الربَّانيين الذين يؤمنون بالتوراة والتلمود، وكان لقب أسرتها حاسين. أما بالنسبة إلى والدي فقد احتفظ باسمه يوسف، فهو كان ينتمي إلى أسرة يهودية من ملَّة القرَّائين الذين يؤمنون بالتوراة فقط وكانت طقوسهم الحياتية، وبالأخص معتقداتهم الدينية، تقترب من طقوس ومعتقدات المسلمين من ذوي الميول الأصولية. والغريب في الأمر أن أطفال أسرة درويش تنوعت أسماؤهم ما بين أسماء عربية وأسماء غربية. فقد جرت تسميتهم بترتيب الولادة: زكي (ذكر)، ومارسيل (أنثى)، ويوسف (ذكر)، وليون (ذكر)، وإيفون (أنثى)، ثم التوأم نيللي وإبراهيم الذي كنت أعرفه باسم لاللُّو فقط، ثم أسلم فيما بعد وفقًا لما سمعت - لا أعلم لماذا - وأصبح اسمه إبراهيم.

ماما في الإسكندرية قبل إشهار إسلامها، عام ١٩٤٦

من اليمين: ماما، خالتي توني، خالتي سيلين، خالي فيليكس، الإسكندرية عام ١٩٢٧

لم أتعرف شخصيًّا على جدي موسى درويش لأنه تُوفي قبل أن أولد بفترة طويلة في عام ١٩٤٠، وسمعت أنه كان إنسانًا شديد الطيبة، يرتدي الجلباب وفوقه الجبة والقفطان والطربوش على طريقة أولاد البلد، ويمتلك عددًا من المحلات في الصاغة لأنه - إلى جانب قيامه بتجارة الذهب - كان جواهرجيًّا يصنع بيديه ما يعرضه للبيع، أي يمكن أن نقول صنايعيًّا للذهب، وظل أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يتحدث غير اللغة العربية.

أما جدتي راشيل كوهين فكانت تتطلع إلى أن تبدو كامرأة إفرنجية، وهي تنتمي إلى أسرة من المثقفين نوعًا ما، بها المحامي الذي ربما أثَّر على الاختيار المهني لأبي، وعرفتُ فيما بعد أنه حينما قابل هذا الخال أبي لأول مرة في المحكمة بعد حصوله على رخصة مزاولة المحاماة، صاح قائلًا:

- نورت المحكمة يا ميتر سوسو.

فاغتاظ أبي كثيرًا ونهاه بطريقة حاسمة أن ينادي عليه ثانية باسم سوسو خاصة في المجال المهني. حكت لي جدتي يومًا أنها عندما رأت جدي لأول مرة من خلف الباب حين جاء ليطلب يدها، استاءت جدًّا من أسلوب ملبسه البلدي الذي لم يكن يتوافق مع تطلعاتها الإفرنجية، مع أنها لم تمتلك يومًا ما معرفة حقيقية باللغة الفرنسية (سوى بضع كلمات وجمل) أو بأي لغات أجنبية أخرى غير العربية. ولكنها استطردت في الذكريات لتقول إنهما في أثناء فترة الخطوبة كانا يستقلان حنطورًا، فإذا بأحد أزرار حذائها يتفكك (وكانت الموضة في ذلك الحين للأحذية الحريمي هي أن تغلقها أزرار تصل تقريبًا إلى الكاحل)، فانكفأ جدي على قدمها وأصلح الأمر، ويبدو أن هذه اللفتة من جانبه قد أثرت كثيرًا لصالح رؤيتها وتقديرها له.

من اليمين: يوسف درويش، جدتي راشيل، جدي موسى، عمتي نيللي، رأس البر عام ١٩٢٨

كما حكى لي أبي أنه لما كان يَدرس القانون والتجارة في فرنسا، وقع في غرام فتاة فرنسية من أسرة أرستقراطية وهي التي عرَّفته على الفكر الماركسي. فلما عاد في إحدى الإجازات إلى مصر، تحدث عنها لجدي وقال إنه يريد الارتباط بها. رحَّب جدي بالفكرة بكل انفتاح، بينما رفضت جدتي بشدة أن يرتبط بهذه المرأة لأنها أجنبية وغريبة عن ديننا وملتنا كما قالت. وعمومًا لم يفلح أمر الارتباط لأسباب لم يفسرها لي والدي الذي ظل دائم الحرص على تجنب الحديث عن حياته الخاصة (الشخصية). فأذكر أنه في سنة من السنين، قررت أنا وأصدقاء من المقربين لي ولأسرتي أن نُشكِّل مجموعة تقوم بتسجيل تاريخ يوسف درويش (أبي)، ووزَّعنا على كل شخص في المجموعة مهمة التسجيل معه في جزئية معينة من حياته، على سبيل المثال: سنوات الدراسة، وطفولته في منزل الأسرة، وبدايات العمل السياسي، والحياة الحزبية، وتجارب السجن، والحياة الخاصة التي كانت من نصيب حفيدته بسمة التي تحمست بشدة لمعرفة هذا الركن الخفي من حياة جدها، ولكنها لم تفلح في الحصول على معلومات ثمينة تُشبع فضولها. ويبدو أنها كانت تحمل بداخلها انطباعًا سابقًا حوله، إذ قالت أمام الصحفي وائل عبد الفتاح الذي كان يُعد تحقيقًا حول أبي إن جدها كان يحب الستات، مع أني أعتقد شخصيًّا أن كثيرًا من النساء هن اللاتي كن معجبات به؛ فكان شخصًا وسيمًا في شبابه وحتى قرب وفاته في سن متقدمة، والدليل على تأكيد هذا الظن من ناحيتي أن هناك فتاة شاهدته في أحد البرامج التلفزيونية التي تم تسجيلها قبل فترة قصيرة من وفاته، واتصلت به بعد البحث عن طريقة الوصول إليه وعبَّرت عن مشاعرها، ثم جاءت وزارته

في المنزل على حسب روايته التي لم أحضر تفاصيلها، وعودة إلى ما قالته ابنتي أمام وائل، نبهها إلى أن هذا الكلام مُسجَّل بهدف إعداد سلسلة من المقالات حول أبي. ربما السبب في كتمان والدي هو حرصه على مشاعر والدتي التي كانت تغار عليه كثيرًا، أو لأسباب أخرى قد تتعلق بالحفاظ على صورته العامة، كما لا أعلم إن كان أكثر إفصاحًا مع أصدقائه المقربين في هذا الشأن، فلم أسمع قَطُّ أحدًا منهم يذكر المغامرات العاطفية لأبي إن وجدت أصلًا، ولكنه كان يتفاخر أمامي عند تقدمه في السن بمُعاكسات النساء له.

الواقع أن أسرتي الممتدة نموذج لما شبَّهته المخرجة نادية كامل في عنوان فيلمها التسجيلي عن أسرة والدتها بالسلطة البلدي. فالأصول اليهودية من جانب أبوَي، ثم انتقال كليهما إلى الإسلام وهما ينتميان إلى مِلل يهودية مختلفة، ثم زواج أخي من مسيحية، ثم زواج ابنة أخي من مسلم، كل ذلك جعل أسرتنا شبيهة بمجمع الأديان. ومن الأمور اللافتة للنظر أنه حينما توفي أبي، وكان عليَّ الخوض في عملية إعلام الوراثة، ذهبنا إلى القاضي، أنا وشاهدان أحدهما مسيحي أشهر إسلامه، مع أوراق تفيد بالأصول اليهودية لأبي. فلما اكتشف سكرتير الجلسة كل هذه البيانات المُربِكة، توتر لأنه لا يعرف كيفية التعامل معها، وأحال الملف إلى القاضي الذي لم يفهم هو الآخر بالضبط كيف يتعامل مع هذه الحالة المعقدة التي غالبًا لم يتعرض إليها من قبل. فبدلًا من التوجه للشهود كما هو المعمول به، سألني مباشرة إذا كنتُ متأكدة من أنه ليس لديَّ جدة أو جد يمكن أن يكونوا من الورثة، أجبت عليه أن والدي قد ترك هذه الدنيا في سن الخامسة والتسعين والنصف وبالتالي، من الصعب أن يكون لي جدة أو جد على قيد الحياة من هذه الناحية. وبعد أن أخبرني القاضي بأن إعلام الوراثة سيكون جاهزًا بعد أسبوعين، ناداني وأنا أتجه نحو باب غرفة المحكمة لينبهني أنني سأدخل السجن لو أدليت بمعلومات مغلوطة، فطمأنته بأن هذا غير وارد.

لكن الأهم من ذلك هو أن هذه السلطة البلدي أنتجت نوعية من الناس المتفتحين على قبول الاختلاف، والرافضين بشدة لأي شكل من أشكال التمييز بين البشر. فلم أسمع يومًا أن أخي قد تذمر من زواج ابنته بمسلم، ولا أتذكر أنني فكرت في يوم من الأيام أن أبحث عن الديانة التي ينتمي إليها الآخرون سواء ممن أعرفهم عن قرب أو من العابرين في حياتي. في حين أن كثيرين يظنون أنني مسيحية نسبة إلى اقتراب اسمي من مفهوم المُناولة، ونظرًا إلى أنني لا أرتدي حجابًا، وهو ما حدث في مرحلة

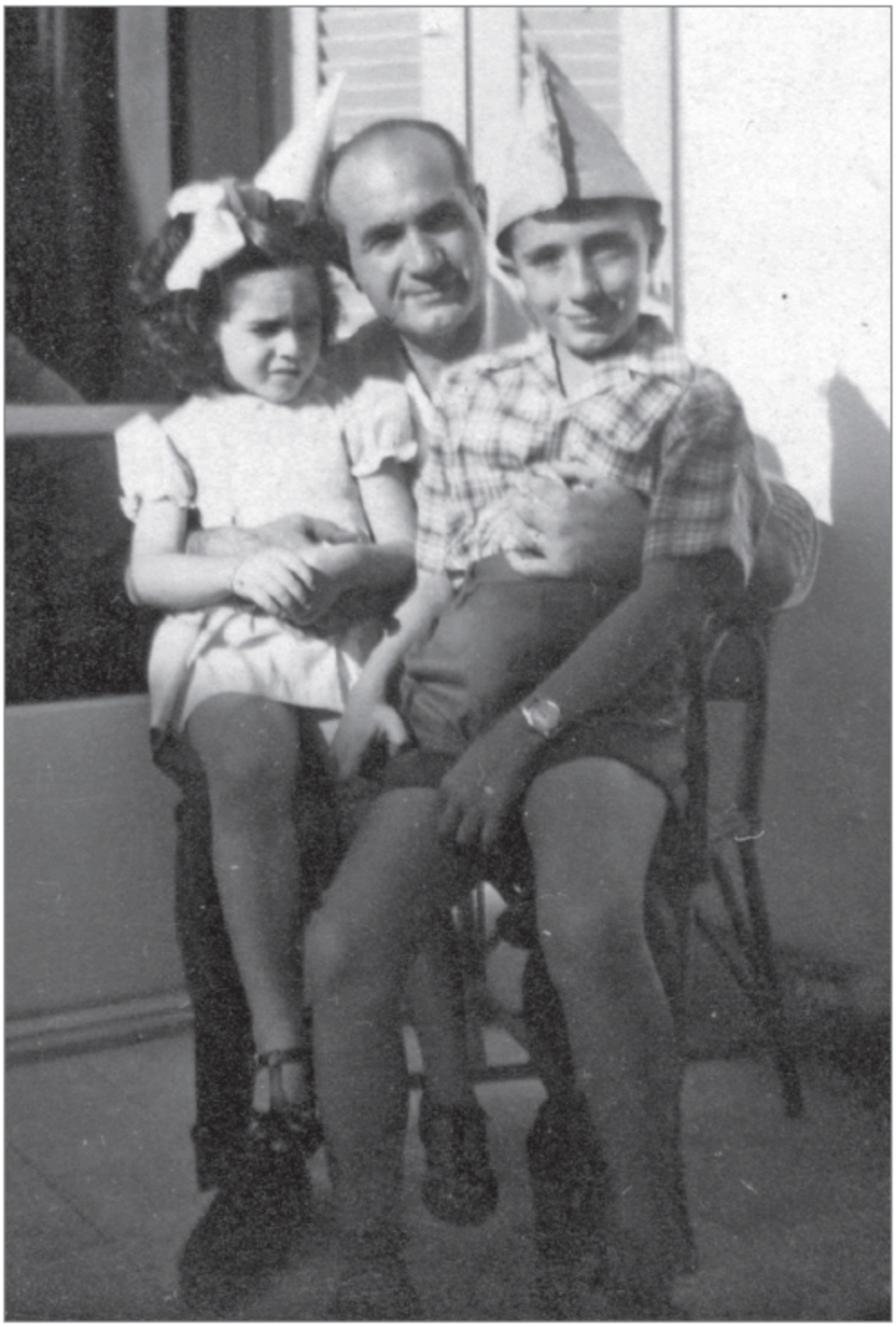

من اليمين: أخي مجاهد، بابا، أنا، في الاحتفال بعيد ميلادي
أنا ومجاهد، القاهرة عام ١٩٥٣

لاحقة حينما كان عليَّ الحصول على تأشيرة للمملكة العربية السعودية في زيارة للعمل، فذهب أحد العاملين بالمكتب الذي كنت أعمل به إلى القنصلية لإتمام إجراءات التأشيرة، ولما عاد إلى مكتبنا وجدت أن التأشيرة مكتوب عليها أنني مسيحية، فطلبت منه العودة إلى القنصلية لتصحيح الأمر وكان اندهاشه كبيرًا لأنه ظل طوال سنوات يعتقد أنني مسيحية. كما لم أسعَ طيلة حياتي إلى تبرير أصولي المتشعبة في جميع الاتجاهات، فاسمي الكامل هو نولة يوسف موسى يوسف فرج درويش، وهو الاسم المطول الذي لا يشير بأي حال إلى اقتصار الانتماء لأي من الديانات المعروفة في مصر.

كما حكى لي والدي بعد إحدى سفرياته للخارج، أنه كان جالسًا في طائرة العودة بجانب شاب من إحدى الدول الأفريقية من جنوب القارة، فسأله والدي عن سبب مجيئه إلى مصر، ورد الشاب أنه قادم للدراسة في الأزهر، فنبهه والدي إلى أن هناك مؤسسات تعليمية أخرى أيضًا يختلط فيها المسلمون مع المسيحيين، ولما جاء رد الطالب بعبارة «أعوذ بالله» أشار له أبي إلى مقعد خالٍ في نهاية الطائرة، وطلب منه التوجه إليه وإكمال رحلته في هذا المقعد من دون الاقتراب منه مرة أخرى.

وأتذكر أنه في سنة من السنوات، هاجمت إحدى الصحفيات ابنتي بسمة التي أصبحت فنانة معروفة قائلة:

- وإن بُليتم بجد يهودي فاستتروا.

الجد والحفيدة: يوسف درويش وبسمة، أكتوبر ٢٠٠٥

علمت الأمر من صديق مسيحي، وهو المخرج المحترم والصديق العزيز يسري نصر الله الذي

أزعجه كثيرًا هذا التعليق لما ينطوي عليه من نبرة عنصرية، فبعد أن سُنحت لي فرصة مناقشة الأمر مع نقيب الصحفيين آنذاك وعبرت له عن استيائي العميق مع التأكيد له أنني لا أنوي اتخاذ إجراء قانوني ضد هذا التطاول، لأنني أقف ببساطة ضد مبدأ إلقاء الصحفيين في السجن وأدافع عن حرية التعبير، اقترح عليَّ تقديم شكوى إلى لجنة الأخلاقيات المهنية بنقابة الصحفيين التي نشرت اعتذارًا على موقعها الإلكتروني. حتى إن لم يكفِ ذلك لإخماد غضبي فقد كنت أعتبر أن أقل ما يمكن قبوله هو أن تقوم هذه الصحفية نفسها بتسجيل اعتذارها، ولكنني اكتفيت بهذا القدر حتى لا أتسبب في منغصات أخرى لابنتي، وربما أكون أخطأت.

بعد القبض على أبي، قررت أمي العودة إلى حضن أسرتها بالإسكندرية، ولكن لم ألتقِ بجدي لأمي دافيد حاسين هو الآخر لأنه مات في سن مبكرة بعد إصابته بالحمى الإسبانية، وكانت وفاته على ما أعتقد خلال العقد الثاني من القرن الماضي، وعلمت فيما بعد أنه كان من أصول مغربية وجاءت أسرته لتقيم في مصر. كما حكت لي أمي نقلًا عن والدتها لما كبرت قليلًا أن جدها لوالدها الذي لم تعرفه هي شخصيًّا كان رجلًا جبارًا بذقن بيضاء طويلة تصل إلى حجره، وله عديد من الأطفال الذكور الذين توفوا تباعًا، وأنه بعد وفاة كل طفل من أطفاله كان يحمد الله الذي سيُكسبه هكذا مكانًا إضافيًّا في الجنة!

في بيت الإسكندرية كانت جدتي فلورا داسَّا التي ترملت مبكرًا ومعها ثلاث بنات بينما كانت حاملًا في الطفل الرابع، وإلى جانب جدتي ووالدتي، ضمَّ البيت خالتي توني التي لم تتزوج قَطُّ وغمرتنا بكل أنواع التدليل نحن أولاد أشقائها إلى درجة أننا كنا نسميها طنط جاتوه، وخالي فيليكس (المولود بعد وفاة والده)، وزوجته آلين، وابنتهما نادية التي تصغرني بستة أشهر. علمت أيضًا أن لي خالة أخرى اسمها سيلين، ولكنها تعيش في إنجلترا مع زوجها آلن الذي تعرفت عليه خلال الحرب العالمية الثانية في أثناء فترة تدريسه اللغة الإنجليزية في مصر والذي تقاسم معها التوجهات السياسية والفكرية نفسها، ومنها المناداة بالسلام، ومعاداة الصهيونية وجميع النزعات العنصرية، فكان على سبيل المثال يقاطع بكل حسم منتجات جنوب أفريقيا خلال فترة الفصل العنصري هناك.

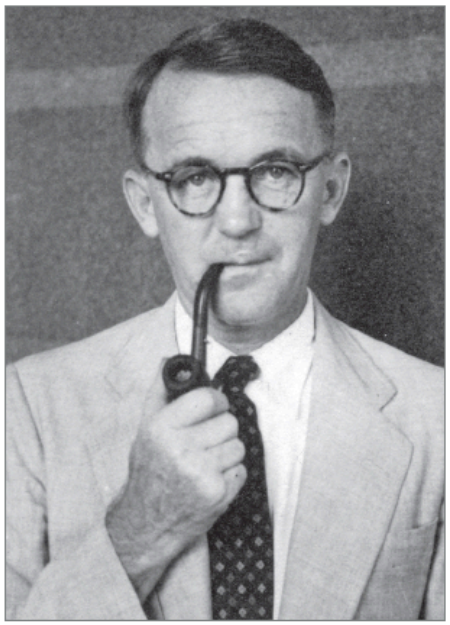

زوج خالتي سيلين، آلن ويتلتون، الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية

خالتي سيلين مع خالي فيليكس، إنجلترا عام ١٩٧٠

في ظل هذه الظروف وغياب الأب، اضطر كل أطفال أسرة حاسين إلى الدخول مبكرًا في سوق العمل، فبدأ التسلسل بوالدتي التي تكبرهم وكانت تبلغ أربعة عشر عامًا، ثم تلاها بترتيب السن كل من سيلين، ثم توني، ففيليكس. ويبدو أن خالي فيليكس كان يشبه أباه بطريقة لافتة حتى إن إحدى قريبات جدي جاءت تزورهم يومًا وأصيبت بالإغماء لما رأت خالي يفرُك

أنا مع خالتي توني (طنط جاتوه) في حديقة أنطونيادس بالإسكندرية

بين أصابعه فتافيت الخبز على طاولة السفرة تمامًا كما كان يفعل والده الذي لم يره قَطُّ. فمع الشبه الكبير، ثم مشاهدة تكرار الحركات نفسها، اختلط الأمر على هذه السيدة ولم تعُد تستوعب المشهد الذي أمامها.

من الشخصيات التي أثرت عليَّ كطفلة هي دادة توتة التي اعتنت بنا بكل حنان أنا وابنة خالي نادية خلال طفولتنا المبكرة. عرفت فيما بعد من أمي أنني أصبت بشلل الأطفال وأنا أبلغ السنة والنصف، أي بعد أن كنت قد بدأت خطواتي الأولى في الحياة وفي السير على قدمَي. بذلت أمي كل جهودها كي أشفى سريعًا بطريقة جيدة بحيث لا تترك هذه الإصابة آثارًا جسيمة لديَّ، وبالفعل حدث التعافي في بضعة أشهر لأن إصابتي لم تكن عميقة، ولكنها أثرت هي الأخرى على مجرى حياتي وطموحاتي المستقبلية. ما زلت أتذكر بطريقة مبهمة محاولات إعادة السير على الأقدام بمساعدة دادة توتة بمصاحبة كلبة تسكن في حديقة الشلالات القريبة من منزلنا في شارع شامبليون بحي المزاريطة (أو الأزاريطة كما يسمونه حاليًّا). وكنت أضع يدَي على ظهر الكلبة التي أطلق

عليها رواد الحديقة اسم جارية التي تعاملت بكل صبر مع هذا الكائن الصغير الذي يتشبث بشعر ظهرها وربما يؤلمها وكأنما لم تفعل سوى ذلك طوال حياتها. سأظل ممتنة لها ولدادة توتة على المساهمة في إعادتي للمشي مرة أخرى بعد إصابتي بالشلل.

كانت دادة توتة تنتهز فرصة هذه النزهات في الحديقة لتلتقي بحبيبها هناك، وفي يوم من الأيام ونحن معها وصل شقيقها فجأة ولما رأى المجموعة، أقسم أنه سيقتلها. بدأنا في الركض نحو المنزل والشقيق يجري وراءنا إلى أن وصلنا إلى بيت جدتي، وشرحنا لها الأمر. فطلبت من الطاهي علي أن يخرج إلى الأخ بسكين المطبخ، ويأمره بالرحيل فورًا من أمام المنزل. ما زلت لا أعلم ما حدث فيما يلي أو إن كانت دادة توتة تزوجت في نهاية الأمر من حبيبها كامل أم أن قصة الحب قد انتهت عند هذا الحد، أو بنهاية مأساوية أخرى.

ظللنا في بيت جدتي ما يقرب من سنتين، وهي السنوات التي شكلت جزءًا مهمًّا من كياني ومن حبي العميق للإسكندرية التي أفتخر حتى اليوم بنصف انتمائي إليها إلى جانب القاهرة الحبيبة التي قضيت فيها بقية عمري بعد أن عُدنا إليها، حتى إن تغيرت المدينتان كثيرًا عن أيام طفولتي. أتذكر النادي الذي كنا نذهب إليه، وحديقة أنطونيادس المجاورة لحديقة الحيوانات، وحديقة فندق بوريفاج بحوض الأسماك الحمراء، ومحطة الرمل بمركبات الترام ذات الدورين ومحلات بيع الفشار والكلوكلو الذي كان نوعًا من الأيس كريم المُغلف في شكل مخروطي مصنوع من البسكويت وعلى حافته العليا كرة من الشوكولاتة، كما أن هناك أماكن أخرى كثيرة زرتها خلال بقائي هناك، مثل الميني جولف الذي كانت تأخذنا إليه خالتي توني

دادة توتة تساعدني على السير

لنلعب أنا وابنة خالي. وكلما ذهبت إلى الإسكندرية، تُسكرني رائحة اليود المتدفقة من البحر عند الوصول إلى حي الشاطبي وأنا أشاهد على الجانب الأيسر من الطريق مكتبة الإسكندرية الجديدة، وأدرك أننا وصلنا إلى منطقة قريبة من شارع شامبليون الذي سكنَّا فيه، وكانت به ملاهٍ في نهايته ناحية البحر. كان أهل البيت يكافئوننا لأننا بنات حلوين بنسمع الكلام بإرسالنا إلى الملاهي مع الدادة، وإذا كنا على شاطئ البحر يشترون لنا الفريسكا، وهي أيضًا نوع من البسكويت وكانت معروفة في شواطئ الإسكندرية، ورأيتها مؤخرًا في زيارتي الأخيرة لما يُسمَّى بالساحل الشمالي، ولكنني لم أرغب في شرائها حتى لا يُطمس لديَّ طعم ذكريات الطفولة.

كنت طفلة شديدة التعلق بأمي، فأدخل في نوبات من الغضب والبكاء والارتماء أرضًا كلما علمت أنها ستخرج من المنزل من دوني سواء للعمل أو للتوجه إلى القاهرة من أجل زيارة أبي في السجن، وتصل حدة هذه الهستيريا إلى درجة أن أهل والدتي اضطروا أحيانًا إلى تسريبي من منزلهم عند الجيران قبل خروج أمي من المنزل حتى لا أراها وهي ذاهبة. وأتذكر لون البلاط على شكل مربعات صغيرة متناوبة بين اللون الأبيض والأسود الذي كان على عتبة السلم ووجهي ملاصق له في أثناء نوبات التشنج والصراخ.

أنجبتني أمي وهي تقارب الأربعين، وأصبحت تعاني من نوبات من الصداع الرهيب لا تستطيع

التعامل معه إلا من خلال الانغلاق على نفسها لساعات في حجرة مظلمة. وأتذكر أننا ذهبنا مرة مع عائلة أمي إلى فندق خارج الإسكندرية اسمه كينج ماريوت للاستجمام والاستمتاع، ولكن ما إن دخلت أمي غرفتها المظلمة، حتى بدأتُ أنا في البكاء ورفض الاستماع إلى أي صوت للعقل، فأنبني خالي فيلي (هكذا كان يناديه الجميع بدلًا من فيليكس) بسبب عدم تقديري لظروف ماما الصحية، ولازمني هذا الإحساس بالذنب طوال سنوات، بل أحيانًا حتى الآن، خاصة أن ابنتي تعاني من حالة الصداع الرهيب نفسه، وإن كان هناك احتمال لوجود فرق بين أسباب إصابة الاثنتين. لا أعلم بدقة أسباب هذا الصداع عند والدتي، لأنه انقطع في فترة ما وربما يكون هذا التعافي مرتبطًا بتغييرات هرمونية في الجسم.

وفي يوم وأنا في الثانية والنصف من عمري، قررت أمي أن أذهب معها إلى القاهرة لزيارة أبي للمرة الأولى في سجن أرميدان (المعروف أيضًا باسم سجن مصر والذي هُدم فيما بعد)، وظلت تقول لي طوال الطريق كم إن أبي رجل جميل، وأنيق، وظريف، ولا تتوقف عن الإشادة به. ولكن ما إن دخلنا حجرة الزيارة، حتى ألقيت بنفسي بين ذراعي الضابط الذي بدا لي

أنا وماما، في بدايات عام ١٩٥٠

أنا وماما، عام ١٩٥٨

الأكثر أناقة وجمالًا من هذا الرجل الآخر الذي لا أعرفه ولم أشعر وقتها بأنه يستحق أحضاني. حقيقة، لا أتذكر هذه الواقعة التي حكتها لي أمي لما كبرت، وكل ما أتذكره أنني تعرفت على أبي للمرة الأولى في حجرة، يظل انطباعي عنها أنها كانت شبه مظلمة وأتذكر أيضًا أن أبي كان يرتدي شورتًا وسيقانه يكسوها شعر أسود كثيف. ربما كان هذا الشعر لافتًا للنظر لأن بشرة والدي كانت شديدة البياض، وهي البشرة التي ورثتها منه بكل أسف لأنني - بالإضافة إلى المشاكل التي سببتها لي طوال حياتي ومنها الإصابة بنوع من سرطان الجلد الذي اتضح لحسن الحظ أنه سطحي - كنت أفضِّل كثيرًا أن يكون لوني أكثر سمارًا، أو على أقل تقدير قمحيًّا مثل لون بشرة والدتي حتى لا يعتقد كثيرون ممن يتعاملون معي أنني خواجاية، فيصممون على التحدث إليَّ باللغة الإنجليزية، وأضطر حينذاك أن أقول إنني مصرية زيي زيكم، ولكنني أيضًا لا أحب الألوان الباهتة مثل لون بشرتي.

مرَّت الأيام، وقام انقلاب ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وكنت أنا وأمي في شرفة منزل شارع شامبليون بالإسكندرية وهناك موسيقى عسكرية فسألتها:

- إيه ده؟

ردت:

- دي الثورة.

ولم أفهم معنى الكلمة، لكن والدتي كانت مشغولة بالنظر لما يحدث في الشارع ولم تنتبه إلى نظرة الاستفهام في عينَي. ونحن نشاهد الاحتفالات التي تدور أسفل الشرفة، رأينا فيلقًا من الجنود يمُرُّ وهم يرتدون زيًّا يختلف إلى حدٍّ ما عن زي بقية الجنود، فسألت:

- ماما، من هم؟

قالت لي:

- السودانيون.

لم أفهم وقتها كذلك من هم أو ما صلتهم بنا، فكل معلوماتي حينئذ اقتصرت على تعبير السوداني واللب. ولكن مع القراءات اللاحقة لتاريخ مصر فهمت أن مصر والسودان كانتا دولة واحدة منذ عام ١٨٢٠ وحتى عام ١٩٥٦، وهو ما يفسر لي الآن مشاركة الجنود السودانيين في الاحتفالات بالثورة عام ١٩٥٢.

كانت أمي قد ذهبت في زيارة إلى أبي بمفردها هذه المرَّة بعد الإحراج الذي تسببتُ فيه لضابط السجن، والإحباط الذي غالبًا أصاب أبي بسببي. تغاضى والدي عن الحديث عمَّا سبق، ولكنه أصر في أثناء هذه الزيارة على أن تسعى أمي إلى التعرف بأي طريقة على مصير المسجونين من الشيوعيين والاستفسار عن وضعهم بعد هذا التغيير الكبير الذي حدث في البلاد، خاصة أنه كان قد بدأ بالفعل الإفراج عن المسجونين من الإخوان المسلمين، فماذا سيكون مصير الشيوعيين؟ يحكي يوسف درويش في مذكراته أنه «بعد يوليو ١٩٥٢ قامت الحكومة بإصدار قانون بالعفو عن الجرائم السياسية، طُبق على الفور دون إجراءات تُذكر على جميع عناصر الإخوان المسلمين، بينما لم تطبقه محكمة الجنايات على الشيوعيين، بحجة واهية مؤداها أن الشيوعية جريمة اجتماعية (مثل جرائم التموين) وليست جريمة سياسية». لا أملك دليلًا موثقًا على الرواية التالية، ولكنني سمعتها من أمي وسمعها آخرون لاحقًا على لسانها. كان أحمد رشدي صالح، الباحث المعروف في

الفولكلور والفن الشعبي، مسجونًا في القضية نفسها التي سُجن بسببها أبي. فذهبت أمي إلى زوجته اعتدال ممتاز، وأول رقيبة على الأفلام السينمائية، تسألها لو كانت تعرف مَن يمكن أن ييسر لهما لقاءً مع أعضاء من مجلس قيادة الثورة، فأخبرتها أن لها قريبين من الضباط الأحرار. بالفعل، توجهت السيدتان إلى مجلس قيادة الثورة في أرض الجزيرة، وطلبتا اللقاء بشخص اسمه جمال عبد الناصر الذي لم يكن معروفًا دوره عند الجميع في هذه الفترة. بالفعل، جرت المقابلة معه ومع أعضاء آخرين من المجموعة. في بداية اللقاء، أعرب عبد الناصر عن استيائه من موقف الشيوعيين تجاه الثورة، واضعًا جميع الفصائل التي كانت موجودة آنذاك في السلة نفسها على الرغم من التفاوت في مواقفهم تجاه حركة الضباط الأحرار. وطلب من أحد العساكر المساعدين أن يُحضِر المنشورات الشيوعية كي تَطَّلع عليها هؤلاء الهوانم. فلما اطمأنت أمي بأن الفصيل الذي كان ينتمي إليه أبي غير متورط في توجيه النقد إليهم، ولأنها كانت متشبعة بالثقافة الفرنسية، قدَّمت مثالًا عن الرئيس ديجول الذي يرسمه رسامو الكاريكاتير في فرنسا على هيئة وجه كالبهلوان له أذنان طويلتان كالحمار، ولا يطالهم الأذى أو السجن (كنت أضحك كلما قصت عليَّ أو أمامي هذا المقطع من الحدوتة، وأقول لها أن تحمد الله لأنهم لم يفتحوا النار عليها مباشرة بالبنادق الرشَّاشة). ثم تجرأت مطالبة بتفعيل مبدأ الديمقراطية الذي نادوا به ضمن مبادئ الثورة والتعامل من خلال مقاومة الرأي بالرأي الآخر وليس بالسجن. فهبَّ عليها انفعال عارم من جميع الموجودين في القاعة - بخلاف والدتي واعتدال ممتاز بطبيعة الحال - مفاده أن هذا الشعب لا يمكن التعامل معه بالديمقراطية لأنه شعب عبيد على حد قولهم. عند هذا الحد قررت أمي إنهاء الحوار الذي اتضح أنه لا طائل من استمراره.

في هذه الأثناء، كان خالي قد اصطحبني معه إلى محل عمله، ظنًّا منه بأن ذلك سوف يُلهيني عن غياب والدتي، وبأن هذا التغيير الذي اعتبره أفضل لي من البقاء في المنزل سوف يُسلِّيني. وأنا هناك، قلت لخالي إنني ذاهبة إلى دورة المياه التي أغلقتُ ورائي بابها بطريقة مُحكَمة. ولكن عند الخروج لم أتمكن من فتح الباب، وانتابتني حالة من الرعب بأنني لن أخرج من هذا المكان ثانية. بعد فترة كنت أشعر بأنها لن تنتهي، تنبَّه خالي إلى تأخري الشديد عن اللحاق به في مكتبه، ثم سمع صوت بكائي من وراء الباب الذي اختار أن يكسره ليحررني بسرعة ويُنهي انهياري. أظن أن هذه الحادثة هي سبب إصابتي بفوبيا الأماكن المغلقة التي ما زلت أعاني منها حتى الآن، وأتجنب المصاعد بصفة عامة، وخاصة المصاعد المُغلقة بطريقة مصمتة، كما لا أحبذ ركوب الطائرات إلا تنازلًا على مضض بشرط الجلوس في المقاعد الواقعة على الممر، وتنتابني نوبة القلق حينما يتأخر فتح باب الطائرة فورًا عند الهبوط على الأرض، وكثيرًا ما يتملكني إحساس بالاختناق في الغرف التي لا يدخل إليها الهواء الطلق أو المكتظة بالأثاث، وأعراض أخرى كثيرة تكاثرت مع التقدم في السن ومطالبة الأطباء لي بإجراء أشعة الرنين المغناطيسي أو ما شابه من الإجراءات

الطبية التي تتطلب الدخول في أجهزة على هيئة أنبوب تمثل لي كابوسًا حقيقيًّا.

لا أدري إلى اليوم مصدر معظم الفوبيات الأخرى التي أعاني منها، مثل: فوبيا الارتفاعات، وفوبيا الظلام والمياه المظلمة، وفوبيا القرود. قد يعود هذا الوسواس الأخير إلى ذكرى بعيدة من أيام طفولتي في أحد المصايف حينما جلست في دائرة على الأرض مع مجموعة من الأطفال لنشاهد معًا القرداتي الذي يُقدِّم العروض بقرد يمتلكه ويأمره بتقديم استعراض مسلٍّ للجمهور حتى يكسب من ورائه بعض القروش. هناك البعض الذين يشيرون إلى هذه النوعية من القرود الصغيرة بالميمون. داعب أحد الأطفال القرد الذي انفعل وعضه بأسنانه فانتابني شعور بالخوف الشديد من منظر هذه الأسنان التي تشبه الأسنان الآدمية لكنها على وجه قرد. ثم علمنا أنهم نقلوا الطفل المُصاب إلى المستشفى لإعطائه حُقنًا في بطنه تقيه من داء الصرع الذي يُحتمل إصابته به بسبب هذه العضة.

بعد فترة، أنهى والدي مدة محبسه الثاني - فكان قد سبق القبض عليه لعدة شهور عام ١٩٤٨ ووضعه في معتقل الهايكستب ثم تم ترحيله إلى عيون موسى في سيناء، وهو ما تطلب من والدتي الحصول على إذن الدخول إلى سيناء (أي الفيزا) - وخرج إلى الدنيا الأوسع في إطار ما يُسمى اليوم بالإجراءات الاحترازية، أي أنه ظل مقيمًا في بيت والدته بمصر الجديدة مع التأكد الأمني من وجوده بالمنزل من السادسة مساءً حتى السادسة صباح اليوم التالي.

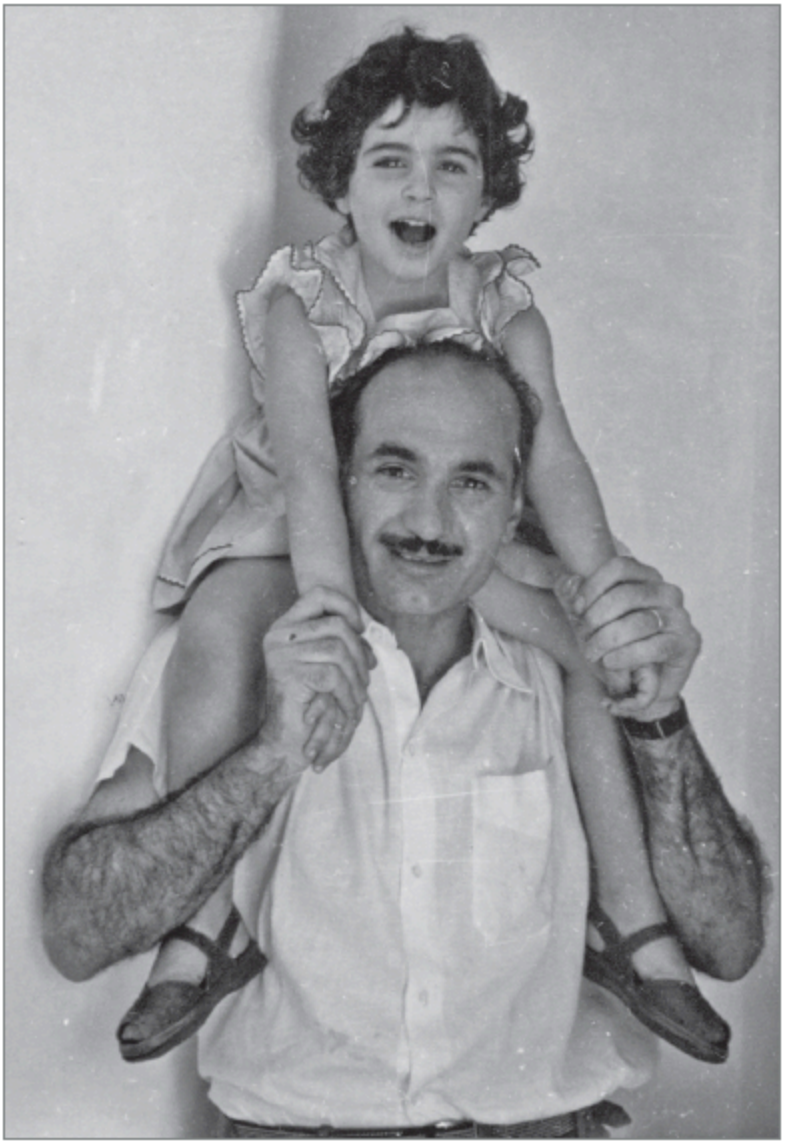

أنا على كتفَي بابا، في شارع شامبليون بالقاهرة عام ١٩٥٣

لا أتذكر كثيرًا من التفاصيل المتعلقة بخروج أبي من السجن قُرب نهايات عام ١٩٥٢ بعد انقضاء ثلاثة أرباع مدة العقوبة، إذ كنت فيما يزيد قليلًا على الثالثة من العمر فقط. ولكن والدتي حكت لي المشهد التالي: في البداية، رفضتُ أن أتجاوب مع أبي ربما بسبب الخجل الشديد الذي ظللت أحمله طوال حياتي، ووجود الأسرة مجتمعة تتوجه أنظارها نحوي لتتبين رد فعلي تجاهه. فأصرت أمي على أن يكون مكاني بينهما على طاولة الأكل التي يتدلى عليها مفرش طويل من القطيفة الغامقة. بعد قليل، أومأ أبي إلى أمي كي تنظر إلى ما يحدث تحت ظلال المفرش، فوجدت أنني التقطت يد أبي بكل هدوء من دون أن يلتفت أحد من الجالسين حول هذه الطاولة. وهكذا بدأت علاقة قوية بيني وبين أبي استمرت حتى وفاته في عام ٢٠٠٦، وربما أشعر بأنها مستمرة حتى

الآن من خلال كل المبادئ والقيم التي تعلمتها منه، فقد كان إنسانًا صارمًا في مبادئه ومعتقداته مما تُرجم في أنماط متعددة من سلوكه، ومنها من دون شك، أشكال من التسلُّط التي قد تتجلى في أحوال كثيرة عند غياب القدر الكافي من الحرص على مشاعر واحتياجات الآخرين. فعلى سبيل المثال، حينما يكون هناك موعد بينه وبين أحد في بيتنا ويتأخر هذا الشخص أكثر من نصف ساعة في الوصول، يتصل به أبي ويطلب منه إلغاء الزيارة.

ومن الأمور التي أزعجتني خلال السنوات الأولى من حياتي، أن أبي كان قد قرر اللجوء إلى الاختفاء لفترة في مواجهة أي احتمالات للاعتقال أو الملاحقة الأمنية. وقبل أن يختفي، يطلب من والدتي أن تأمر أخي - غير الشقيق - بالبقاء معنا في منزلنا طوال فترة غيابه. فلما شعرت والدتي بالحرج من القيام بهذه المهمة، توسلت إلى جدتي لأبي للقيام بهذا الدور بدلًا منها. كانت جدتي، على الرغم من امتلاكها قدرًا وفيرًا من الحنان، امرأة قوية نجحت في تربية أربعة ذكور وثلاث إناث من الأطفال، واستعملت معهم جميعًا كل الحسم في تربيتهم. أتذكر حتى اليوم ألمي وأنا في الرابعة من عمري مختفية تحت طاولة السفرة، أسمع جدتي تنهر أخي وهو يبكي لأنه يريد العودة إلى والدته. الحق أنني في هذه اللحظة كرهت جدتي التي لم يكن لها ذنب مباشر فيما يحدث.

أنا ومجاهد، في شارع شامبليون بالقاهرة عام ١٩٥٤

كانت لوالدتي صديقة حميمة ربما حتى قبل معرفتها بأبي. لا أعلم كيف تعارفتا، ولكنها دخلت

إدراكي في مرحلة مبكرة، كما شعرت بأنهما تتقاسمان جميع الأسرار الخاصة. كان اسمها تشارنا، وهي من الروس البيض الذين هربوا من روسيا بعد الثورة البلشفية، وانتشروا في عديد من بلدان الأرض، ومنها مصر. كانت تشارنا امرأة حادة كما وصلني هذا الشعور من تعاملها معي، وظل بداخلي الإحساس بأنها لم تكن تحب الأطفال الصغار، وإنما تشعر بضجر تجاههم. ومع ذلك، كنت شديدة الإعجاب بجمالها مع شعور مختلط ربما يكتنفه شيء من الغيرة بسبب قرب والدتي منها. أما اسم تشارنا، فلم أستعمله في طفولتي، إذ كانت بالنسبة إليَّ المصورة الفنانة التي اتخذت لنفسها اسم هاسيا. كانت هاسيا تسكن في شقة بممر بهلر وسط القاهرة. وأتذكر أنها كانت شقة مضيئة، ذات أسقف مرتفعة، وأرضية من البلاط مكون من مربعات متباينة بين اللونين الأبيض والأسود كالتي رأيتها من قبل عند جدتي بالإسكندرية. وكان لها ابن - لا أعلم من أين جاء ومن والده - تنادي عليه باسم بووبي، وأراه أحيانًا يقود دراجته البخارية ووراءه تحتضنه صديقته أرماند رائعة الجمال. حضرت زواج هذا الثنائي في حدود عام ١٩٥٨ بالكنيسة المقابلة لنقابة الصحفيين الحالية بشارع عبد الخالق ثروت. وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها كنيسة، فانبهرت بثرائها وجمال صور الأيقونات التي تحتوي عليها، ولما زرت بعدها كنائس تاريخية أخرى شعرت بأن شدة انبهاري جاءت بطريقة مبالغ فيها. يبدو أن هاسيا لم يعجبها هذا الزواج، أو كانت لها تحفظات على سلوك ابنها. لا أستطيع أن أجزم بهذا أو ذاك، فهي مجرد انطباعات وصلتني من بعض التلميحات غير الصريحة الواردة بينها وبين والدتي.

صورة لي التقطتها هاسيا، عام ١٩٥٠

صورة لماما التقطتها هاسيا، في نهاية الثلاثينيات

في فترات مختلفة، حكت لي أمي أمرين عن صديقتها؛ أن هاسيا كانت أول مصورة في مصر صورت المتحف المصري بأكمله، ثم تم نشر الكتاب بمقدمة من أندريه مالرو، الأديب ووزير الثقافة الفرنسي في ذلك الوقت. بحثت كثيرًا عن دليل لذلك القول على الشبكة الإلكترونية فلم أجد ما يؤكد هذا الزعم. وبالمقابل اكتشفت أن هاسيا كانت عضوة في جماعة الفن والحرية التي تأسست في مصر عام ١٩٣٨ وضمت فنانين كبارًا مثل جورج حنين، وكامل التلمساني، وإنجي أفلاطون، ورمسيس يونان، وأنجلو دي ريتز (الذي أصبح مُدرسنا للرسم في المرحلة الإعدادية، وكان نابغة في أسلوبه التعليمي، فأحضر يومًا في الفصل حمامتين، وبعد أن أغلق باب الفصل أطلقهما في الهواء، وطلب منا رسم حركتهما في أثناء الطيران). تبنت هذه الجماعة المدرسة السيريالية في الفن، كما اعتبرت أن الفن يمكن أن يكون أداة لإحداث التغيير الاجتماعي والنهوض بالعدالة الاجتماعية وبحياة المصريين. ربما تعرفت والدتي على هاسيا في إطار هذه المجموعة الفنية، فقد ذكرت أمامي أكثر من مرة أنها كانت على معرفة بالأخوين الفنانين التشكيليين أدهم وسيف وانلي.

الأمر الثاني، أنه لما أُطلق سراح والدي في عام ١٩٥٢، ظلت هاسيا تردد لأمي كم هو محظوظ لأنه - بعد فترة طويلة من البقاء بين جدران السجن - خرج إلى الدنيا الواسعة وأصبح يرى العالم بألوان جديدة؛ الألوان التي لا يدركها معظم البشر. هي بالطبع كانت تتحدث كمصورة فنانة وربما

أرادت أن ترى العالم المحيط بالعيون نفسها. بعد أن غادر ابنها بووبي مصر إلى فرنسا بفترة وجيزة، وكان ذلك بعد القبض على أبي عام ١٩٥٩، قررت هاسيا اللحاق بابنها، وعرضت على والدتي أخذ شقتها بممر بهلر، ولكن مع الأسف الظروف المالية لأسرتنا لم تسمح بذلك في هذه الفترة.

مع بدايات حياتي في القاهرة تعرفت أيضًا على اثنين من أصدقاء والدي هما أحمد صادق سعد، المُفكر والكاتب اليساري الذي أصدر مبكرًا كتاب «فلسطين بين مخالب الاستعمار» (١٩٤٦)، وكان هذا هو التناول الأول لهذه القضية في مصر، كما أعد كتابًا بحثيًّا مستفيضًا حول نمط الإنتاج الآسيوي، وأصبح من المراجع المهمة التي يعود إليها الباحثون. أما الثاني، فهو ريمون دويك، وانطباعي عنه أنه كان شخصية فكاهية تُعلِّق على الأمور بسخرية مضحكة بما في ذلك السخرية من نفسه، وكان أحد المسؤولين عن مشروع ثقافي تابع للمجموعة التنظيمية التي ينتمي إليها الاثنان مع أبي، ويشيرون إلى هذا المشروع باسم المؤسسة، والذي علمته فيما بعد - من خلال الاطلاع على بعض الشهادات الأمنية المُتضمَّنة في أحد كتب عادل أمين المحامي ضمن سلسلة محاكمة الشيوعيين المصريين - أن الاسم الكامل للمشروع كان مؤسسة الحقوق للنشر والتوزيع. والواقع الذي أدركته لاحقًا أن ثلاثتهم كانوا من أصول يهودية وأسلموا من أجل مواصلة نضالهم السياسي في مصر، كما أن الثلاثة هم الذين أنشأوا مجموعة العمال والفلاحين التي تحولت فيما بعد إلى طليعة العمال والفلاحين، ثم إلى حزب العمال والفلاحين الشيوعي، وكان ملهمهم في هذه الفكرة شيوعيًّا اسمه بول جاكو (وليس جاكوب كما حاول أحد المؤرخين أن يوحي بأنه يهودي هو الآخر) سويسري الجنسية، كان مقيمًا فترة بمصر ثم اضطر إلى مغادرتها للعودة إلى بلده، لكنه ظل على اتصال بهذا الثلاثي.

أما بالنسبة إليَّ كطفلة، فما كان يهمني في الأساس، بعد أن أصبحت أهتم إلى حدٍّ ما بما يدور حولي خارج إطار تركيزي على الذات، هو أن صادق سعد أنجب طفلة صغيرة اسمها راوية، وكانت - وما زالت - آسرة الجمال بالنسبة إليَّ. أما من ناحية ريمون دويك، فقد أنجبت زوجته مارجو في مرحلة عمرية متأخرة ابنة أسموها نادية، وأظن أن فارق السن بيني وبينها تجاوز العشر سنوات فاعتبرتها بمثابة شقيقتي الصغيرة التي أعتني بها كلما احتاجت ظروف عمل والدتها إلى ذلك.

بدأ والدي بعد منتصف العقد الأول من عمري بقليل في استطلاع إمكانية الاستفادة من مساعدتي له في نضاله على اعتبار أنني طفلة صغيرة لن يشك فيها أحد. أعلم أن ذلك خطأ جسيم بجميع المعايير الحديثة - أو حتى القديمة - لتربية الأطفال. والواقع أنني لم أختبر قَطُّ طفولة نمطية تتميز بمجرد الاستمتاع باللهو، وببعض اللامبالاة، أو بغياب القلق من الإحساس بالمسؤولية. ومع ذلك، كنت قد احتفظت بقدر من سذاجة الطفولة الممزوجة بحب المغامرة. ولم أكن أتبين بوضوح حجم

التبعات التي قد تؤدي إليها تلك المغامرات. كان أبي قد أوكل إليَّ في أثناء غيابه عن المنزل - سواء للعمل أو أي مشاغل أخرى لا أدَّعي أنني أعلمها - استلام الأوراق أو الخطابات التي يُحضرها أحد زملائه في النضال ووضعها في مخبأ لا يعرف مكانه سوانا أنا وأبي. الحقيقة، كنت فخورة بهذه المهمة التي تُضفي على شخصي أهمية خاصة في عيون أبي. لا أعلم حتى الآن إن كانت والدتي على دراية بهذا الاتفاق، ولكنني أميل إلى أنها كانت على علم به وأنها باركته كما باركت طوال حياتها كل ما كان يفعله والدي. فحبها له كان لانهائيًّا، حتى إنها في نهاية حياتها التي أصيبت فيها بخرف الشيخوخة وأصبحت لا تتذكر حدثًا أو شخصًا - بمن فيهم أنا ابنتها - ظلت تتذكره هو حتى النهاية وصولًا إلى اليوم السابق لوفاتها.

أنا وماما وبابا، في المعرض الزراعي الصناعي عام ١٩٥٤

من الأمور المهمة أيضًا خلال السنوات الأولى من عمري، أن والدَيَّ حرصا بطريقة جادة على تطوير تربيتي الفنية والثقافية، فكانا على سبيل المثال يأخذاني كلما تيسر إلى دار الأوبرا المصرية القديمة التي كانت واقعة في ميدان الأوبرا واحترقت فيما بعد. ولكننا كنا نجلس في الصفوف العلوية الأخيرة بالقاعة والتي كانت تُعرف باسم عِشَّة الفِراخ، ذلك أن تلك المقاعد هي الأرخص وبالتالي هي التي كانت تتناسب مع دخل أسرتي. كنت أنبهر من منظر المايسترو الذي يحيي الجمهور في بداية الحفل، مع إيماءة خاصة للصفوف الخلفية التي نجلس فيها، مما أمدني بإحساس عميق بالزهو وأزاح عني أي شعور بالمهانة لاعتبارنا من أفقر فئات الجمهور، وإنما نحن الذين حظينا بتحية متميزة من قائد الأوركسترا. كان لي هناك حظ مشاهدة أرق عروض الباليه وأكثرها إبهارًا لي والتي تضمنت، فيما أتذكر، عرضين لباليه بحيرة البجع وعرضًا لباليه كسَّارة البندق. كان العرضان من أداء اثنتين من أشهر الراقصات حينذاك هما جالينا أولانوفا ومايا بليستسكايا المنتميتان إلى فرقة البولشوي الروسية التي كانت قد أوفدت جزءًا مهمًّا من أفراد فرقتها لتقديم هذه العروض في إطار العلاقات المتنامية بين مصر والاتحاد السوفيتي. فكم تمنيت أن ألحق بهاتين الراقصتين يومًا من الأيام في أداء هذا الفن الرفيع الذي عشقته، ومع ذلك لم أمِل قَطُّ إلى فن الغناء الأوبرالي الذي كان يحبه والدي. كذلك حرص والداي على تنمية الميل إلى القراءة بداخلي والتي امتلكتها أمي منذ فترة تتجاوز معرفتها بأبي؛ فلم أتمكن قَطُّ من النوم ليلًا إلا بعد قراءة كتاب، حتى لو كان عددًا محدودًا من صفحاته. ما زالت حتى اليوم تستهويني بعض القراءات، فيمكنني الاستمرار فيها حتى ساعات متأخرة من الليل، ولكن هناك قراءات أخرى تصيبني بالنعاس المبكر.

في حدود عام ١٩٥٨، قرر الرئيس جمال عبد الناصر أن يكون لمصر أيضًا فرقتها الخاصة لفن الباليه، ربما للتأكيد على رغبة القيادة الحديثة في تبني ثقافة وقيم تتناسب مع صديقتها الجديدة بعد العدوان الثلاثي: الاتحاد السوفيتي. تم الإعلان حينئذ عن فتح مسابقة لاختيار راقصات وراقصي المستقبل في هذه الفرقة الجديدة. فطلبت من أبوَي المشاركة في هذه المسابقة. وهو ما حدث بالفعل من خلال اختبارات تجاوزتها جميعًا إلى أن جاء يوم الاختبار الأخير للقائمة القصيرة المختارة، وكان ذلك يوم الثاني من أكتوبر ١٩٥٨ الذي تصادف مع يوم عيد ميلاد والدي وتضمن دعوة لعديد من الأصدقاء والمعارف في بيتنا للاحتفال به. ذهبت إلى الاختبار مع والدتي وكلي أمل في تحقيق حلمي. كان هناك خبيران من فرقة البولشوي جاءا للتأكد من سلامة الاختيارات السابقة وحسم التصفية النهائية للمتسابقات والمتسابقين. طلب مني الخبيران أداء بعض الحركات، ثم استأذنا المترجمة أن تشرح سؤالهما إلى والدتي، حيث إنهما لاحظا خللًا ما في جسدي لم يفهما سببه، وقالا إن تصميم جسدي يصلح تمامًا لرقص الباليه ولكنهما لاحظا أن هناك شيئًا ما لا يفهمانه. فأخبرتهما والدتي بأنني قد أصبت بشلل الأطفال في طفولتي المبكرة، وكان ردهما أن هذا الخلل لن يتناسب مع رقص الباليه لأن التمرينات المصاحِبة لهذا الفن سوف تتسبب في تعميق

الفرق بين طول الساقين ولا يمكن أن تكون هناك باليرينا عرجاء. عند هذا الحد، انتهى اللقاء وعدنا إلى المنزل وأنا أذرف كل دموع جسدي. وصلنا إلى البيت وأنا أبكي على حلمي الذي طالما حلمت به وقد انهار الآن، فما كان من والدي إلا أن نهرني لأنني أبكي بهذا القدر في يوم عيد ميلاده، ولكن هذا الحلم ظل يراودني سنوات طويلة، وهذا ما سوف أحكيه في موضع آخر.

لحسن حظي كان هناك ضيف من الكاميرون اسمه فيليكس موميه، من المناضلين الأفارقة ضد احتلال بلده. لما رآني أبكي، أخذني على حجره وقال لي إن له ابنة تشبهني تمامًا، ولكنها سمراء وأنا بيضاء. فتعلمت من يومها أنه لا فرق بين البشر بسبب لون بشرتهم. بعد بضع سنوات، علمت أن هذا الرجل اغتيل بالسم في ٣ نوفمبر ١٩٦٠ بيد أحد عملاء الأجهزة الأمنية الفرنسية.

تعرفت خلال الدعوات التي يستضيف فيها أبواي أصدقاءهم (والتي كان مُصرحًا لي بحضورها مع الكبار بعد الانتهاء من واجباتي المدرسية وحتى موعد نومي) على عديد من الأشخاص معظمهم من الشيوعيين. وفي إحدى هذه المرات، كنت كالعادة جالسة صامتة طوال الوقت بسبب الخوف من النطق بكلام يبدو تافهًا للحاضرين، وجَّه لي الشاعر والمناضل الشيوعي الفلسطيني مُعين بسيسو عرضًا بأنني لو نطقت بكلمة واحدة فسيعطيني شلنًا أي خمسة قروش، وهي كعملة القرش والتعريفة والنكلة التي لم تعد متداولة الآن، عمومًا أبيت الاستجابة لهذا العرض المغري بمقاييس هذه الفترة وبالنسبة إلى سني، وفضَّلت الدخول إلى حجرتي لتفادي التعرُّض مكررًا إلى هذه النوعية من الضغوط المُحرِجة.

فيليكس موميه
(١٩٢٥-١٩٦٠)

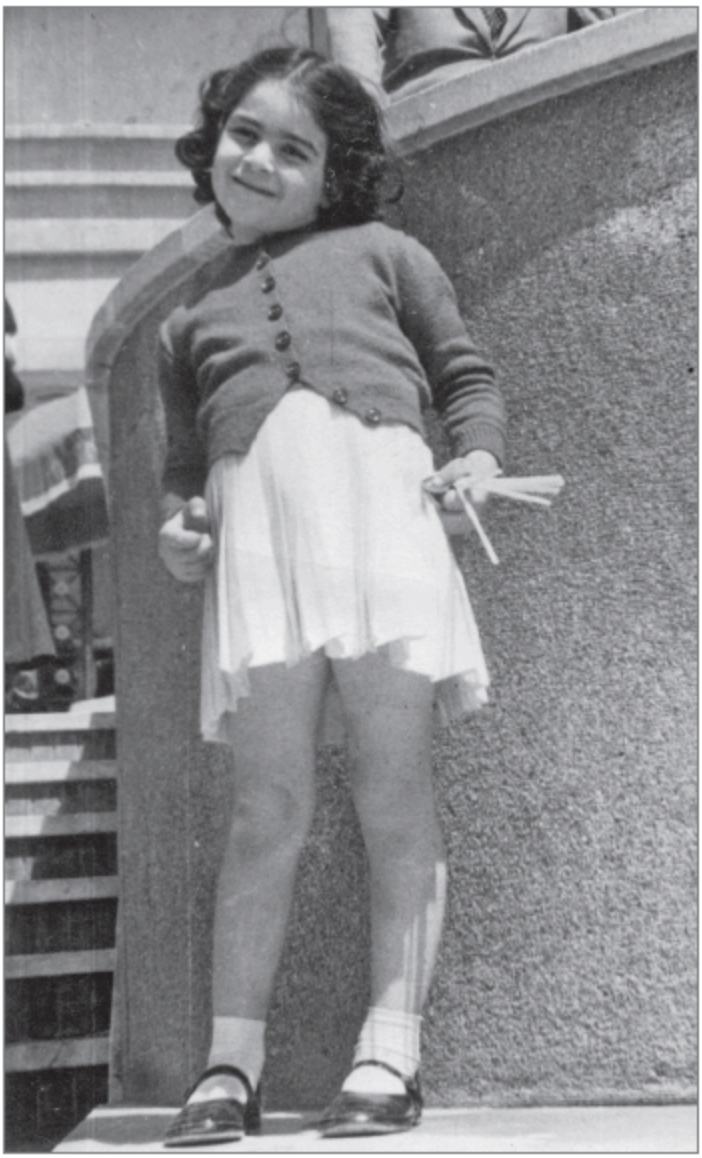

أنا «الخجولة»، عام ١٩٥٤

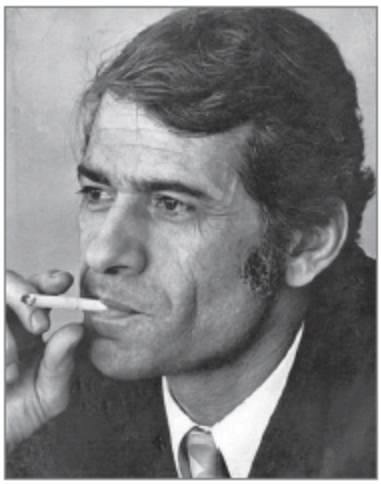

معين بسيسو
(١٩٢٨-١٩٨٤)

من الأمور التي أثرت أيضًا على طفولتي، الصداع المؤلم للغاية الذي أصاب والدتي لعدة سنوات (إلى جانب قصة فندق كينج ماريوت)، وكان عليها كل شتاء قضاء بعض الوقت في ضاحية حلوان حيث كان يسود الهدوء والجو الجاف والقرب من المياه المعدنية بعين حلوان. ما زلت أحتفظ ببعض الذكريات من زياراتي لأمي بصحبة خالتي توني التي كانت قد جاءت خصيصًا من بورسعيد - حيث انتقلت أسرة حاسين بأكملها لظروف عمل خالي الذي كان موظفًا في شركة هندسية للجرَّارات الزراعية وتم انتدابه للإشراف على فرع بورسعيد - وذلك للعناية بي وبأبي في أثناء غياب أمي عن المنزل. أتذكر بطريقة مبهمة الفندق الذي كانت تقيم فيه أمي وكان انطباعي

أنه فندق جميل ربما لأنني ما زلت صغيرة ولم تسبق لي زيارة فنادق أخرى للمقارنة، كما أتذكر أنه في سنة من السنوات كان قد هبَّ هجوم حاد للجراد، وكنا في أثناء تجولنا في شوارع حلوان نرى أعدادًا هائلة من الجراد المُلقى على الأرض، سواء المنهكة من رحلتها الطويلة أو الميتة. كما أتذكر أيضًا بطريقة غير واضحة قيامنا بجولة إلى مرصد حلوان وكأننا نتسلق تلًّا صغيرًا والطريق مُحاط بالصحراء. هناك أيضًا ذكرى العذاب الذي كنت أشعر به حينما تفرض عليَّ والدتي تناول كوب من المياه الكبريتية في عين حلوان، معتقدة أنها سوف تساهم في تقوية مناعتي، إذ إن طعم تلك المياه لم يكن يروق لي، بل اعتبرته مقززًا، وأبشع من أي دواء كريه.

تغيرت حلوان اليوم. لم أجد فيها ذكرياتي. أصبحت مدينة من المدن القبيحة، إذ فقدت الأشجار والخضرة، وامتلأت بالمباني غير المنسقة والتي لا تحمل أي ذوق معماري، إضافة إلى الضجيج المُزعج. ولكن، هكذا تغير اليوم العديد من معالم القاهرة، وربما مدن أخرى في مصر.

عندما التحقت بحضانة البعثة العلمانية الفرنسية، التقيت للمرة الأولى بوالدة أخي التي كانت تزور شقيقتها، حيث كانت تعمل هذه الأخيرة بهذا القسم من المدرسة. كان شعري طويلًا نسبيًّا في هذه الفترة، وأمي تصففه لي كل صباح على هيئة ضفيرتين، ولكنهما تفككتا في أثناء اليوم الدراسي، فبدأت أونيه (الزوجة السابقة لأبي ووالدة أخي مجاهد) تعيد ضبط الجدائل. ولا أذكر من هذا المشهد سوى أننا جالستان على دكَّة خشبية مشابهة لمقاعد الحدائق قبل أن تتحول هذه المقاعد إلى كتل أسمنتية، ومعنا أبي الذي جاء إلى المدرسة، ربما لحل مشكلة دراسية ما خاصة بي أو بأخي، أو لمجرد لقاء طليقته التي كانت تتولى في الفترة نفسها مسؤولية إدارة مدرسة نقطة اللبن التابعة للجالية اليهودية في مصر. شعرت على الفور بأن والدة أخي امرأة طيبة، وظلت علاقتي معها ظريفة حتى آخر مرة قابلتها في سويسرا حيث لحقت بمجاهد بعد فترة وجيزة من سفره.

في حضانتي كانت النوافذ عالية حتى يصعب على المارة في الشارع رؤية ما وراءها، وهي مغطاة بحواجز خشبية على هيئة المشربية، وأبواب الفصول مصنوعة من الخشب الثقيل العريض، والمحفور عليه أشكال جمالية. أما مكان الفسحة، فقد كان مُبلَّطًا خلافًا لحوش الكبار الذي لم يُسمح لنا نحن الصغار بالنزول إليه مع أنه لم يفصل بيننا سوى بضع عتبات قليلة. الذكرى الثانية لهذه السنة كانت وجود طفل عدواني بيننا في الفصل، لا أدري لماذا قرر يومًا أن يحاصرني ويدفع رأسي بغلظة على الجدار الخشبي لباب فصلنا. أما الذكرى الثالثة، فهي تتعلق بمعلمتنا الفرنسية التي كنت أراها أجمل امرأة في العالم. قد يعود ذلك إلى حُسن وحنان معاملتها معنا.

عمومًا، بعد اجتياز السنة الأولى في الحضانة، قررت إدارة المدرسة نقلي مباشرة إلى الصف الأول الابتدائي، المجاور نوعًا ما إلى مبنى الحضانة. كانت فصول هذا الصف الدراسي تقع في ممر به إضاءة خافتة أو كما أراه في شريط ذكرياتي (فالذكريات البعيدة تبدو لي عامة كأنها مُغلفة بستار من

أنا وسط الصف الثاني لفصل الحضانة، القاهرة عام ١٩٥٤

الضباب الخفيف)، وفي نهايته نافورة (حنفية) أثرية من الرخام الأبيض الذي تنتشر به عروق باللون الرمادي الفاتح وكانت تُستعمل إما لشرب المياه، أو غسل اليدين، أو معاقبة التلميذات اللاتي يأتين إلى المدرسة ببعض آثار التبرُّج على وجوههن بوضع رؤوسهن تحت الصنبور على الفور.

لم أدخل إلى نطاق مدرستي منذ سنوات طويلة على الرغم من رغبتي الدائمة في ذلك كلما كنت بجوار شارع يوسف الجندي بعد تخرجي من المدرسة وانتهاء سنوات دراسة ابنتي في المدرسة نفسها، كما أنها الرغبة نفسها التي أصبحت تراودني اليوم في إتاحة هذه الزيارة لحفيدتي حتى ترى المدرسة التي قضينا فيها والدتها وأنا سنوات من حياتنا، ولكنني لم أجرؤ قَطُّ على المطالبة بهذه الزيارة. فكثيرًا ما يغلبني الخوف من الرفض، أو التعامل معي بطريقة فجة قد تصيبني بالإحراج وخيبة الأمل.

بعد انتقالنا إلى القاهرة أنا ووالدتي، وانتهاء فترة الإجراءات الاحترازية بالنسبة إلى أبي، استأجر والداي شقة في شارع شامبليون أيضًا، ولكنه هذه المرة في حي معروف بوسط مدينة القاهرة. استُخدم هذا البيت لغرض مزدوج: الهدف الأول منه كان استعماله كمسكن للأسرة في الغرف الداخلية للشقة المُطلَّة على شارع شامبليون، أما الهدف الثاني الذي قامت به هذه الشقة فهو أنها أصبحت بالتوازي مكتبًا للمحاماة يسمح لوالدي بممارسة مهنته، وذلك في الغرف الخارجية عند

مدخل الشقة مما كان يساهم في تخفيض نفقات استئجار شقتين لأبوَي، خاصة في بداية عودة والدي إلى مزاولة مهنته بعد انقطاع طويل. ولكنه كان يمثل عائقًا لي ولأخي - عندما يجيء لزيارتنا - أمام حركتنا الحرة داخل هذا البيت فيما عدا أيام الإجازات التي لا يوجد فيها موظفون أو زبائن. ومع ذلك لي ذكريات هناك، بعضها جميل والبعض الآخر أقل جمالًا. كنت قد التحقت بالمدرسة التي ذكرتها سابقًا والتي كان يرتادها أخي مجاهد أيضًا. ولكنني كنت مريضة معظم الوقت بسبب التهاب في لحمية الأنف، وهذا يُذكِّرني هنا بعرض والدتي لي على طبيب متخصص بالإسكندرية لإجراء الجراحة اللازمة، وقد أجراها لي من دون بنج وبتغطية وجهي حتى لا أرى ما يفعله، وكانت حقًّا من الخبرات المؤلمة وإن لم تستغرق سوى دقائق معدودة، وبالتالي كنت أقضي أوقاتًا طويلة مُضطرة إلى البقاء بالمنزل، مسجونة في المساحة الخلفية. وكانت الدادة الجديدة أم زكية تنتهز الفرصة لتوكل إليَّ بعض المهام التي يُفترض أن تقوم هي بها، مثل تنقية الأرز التي ظلت مهمة أكرهها إلى أن طُرحت بعد سنوات في الأسواق عبوات من الأرز النقي. من أجل القيام بهذه المهمة، كنت أجلس في الشرفة الخلفية الداخلية التي لم تتسع مساحتها لأكثر من شخص واحد، وعلى حجري صينية الأرز بينما على الرصيف المقابل للمنزل مدرسة للأولاد وهم يلعبون في أثناء الاستراحة في حوش القصر المعروف باسم قصر شامبليون والذي كان يضم فصول المدرسة. كنت أنظر بالساعات لألعاب الأولاد خلال الفسحة، وأتمنى لو أكون معهم، أو على الأقل خارج البيت بدلًا من التعامل مع الحصوات المدفوسة بين حبات الأرز.

أما الذكريات الظريفة، فقد تمثلت في قدرتنا أنا ومجاهد أيام العطلات في استعمال بقية مساحة الشقة، وبالأخص التحدث معًا من حجرة إلى حجرة من خلال التلفون الداخلي (السويتش) والتظاهر بأنه المحامي الذي يقدم لي كزبونة النصائح القانونية، ثم أذهب لزيارته في المكتب المجاور. وفي مرة أهدى لنا أبي بعض اللعب، وكان من نصيبي عروسة دُمية، فلعبت أنا ومجاهد لعبة الزبونة مع الجزار، وقمنا بتقطيع الدُّمية إلى أجزاء ثم رحنا بكل فخر نقدم إنجازنا إلى والدنا الذي جن جنونه من عبثنا، ولكننا لم نكترث كثيرًا لأننا استمتعنا تمامًا بما فعلناه. وأظن الآن أن أبي كان مُخطئًا عندما أظهر لنا غضبه أمام شعورنا بالزهو لما قمنا به، وكان يمكنه أن يشرح لنا بهدوء أن هذا إهدار خاصة أن هناك أطفالًا لا يمتلكون أي لعب، وربما يحتاجون إلى العمل منذ سن مبكرة.

مع توسع أعمال والدي، حيث أصبح لمكتبه ثلاثة محامين وسكرتير للأعمال الإدارية وعامل مساعد، شعر أبواي بأن هناك احتياجًا إلى الانتقال كأسرة إلى مسكن آخر، وتخصيص شقة شارع شامبليون لأعمال المحاماة. فاختارا شقة في شارع يوسف الجندي بحي باب اللوق، ذلك الشارع الذي شهد معارك دامية في أثناء ثورة ٢٠١١ وما بعدها، وهو ما كان يكسر قلبي عند سماع ومشاهدة الأخبار عن الشارع الذي عشت فيه سنوات طويلة بكل الذكريات المدفونة بداخلي، ثم الاطلاع لاحقًا على الدمار الذي كان قد أصاب الواجهة الخارجية لمدرستي.

كان منزلنا الجديد يقع في الجزء الهادئ من الشارع، أمام الباب الرئيسي لمدرسة ليسيه باب اللوق (سابقًا البعثة العلمانية الفرنسية)، وقد حكى لي والدي أن تسمية هذا الشارع جاءت لتكريم اسم صاحب جمهورية زفتى، لم أفهم المعنى حينذاك، ولكنني قرأت لاحقًا عن هذا الموضوع كما تعرفت فيما بعد على الأستاذ محمد الجندي نجل يوسف الجندي، والذي كان يمتلك دار الثقافة الجديدة للنشر. إلى جانب المبنى الذي نسكنه كانت هناك مدرستان: إحداهما للبنات (مدرسة الحوياتي) وأخرى للبنين (مدرسة القربيَّة). وعليه، عند انتهاء ساعات الدوام في المدارس الثلاث، وفي أيام الإجازات وأشهر الصيف، يتحول الشارع إلى واحة هادئة مع الأشجار المطلة على الجانبين، وكانت تصفه أمي بأنه شارع الحبِّيبة الذين ينعمون بغياب المضايقات التي تلاحقهم أحيانًا في أماكن أخرى أكثر ازدحامًا، ويتنزهون هنا يدًا في يد تحت ظلال هذه الأشجار أو تحت أنوار القمر والنجوم التي كانت تظهر في سماء القاهرة آنذاك بعد غروب الشمس. أما اليوم، فقد أزيلت معظم الأشجار واحتلت مكانها السيارات التي يكتظ بها الشارع سواء على الأرصفة أو على الأسفلت، أما نجوم السماء، فقد اختفت رؤيتها هي الأخرى في هذا المكان وفي مناطق أخرى عديدة بسبب التلوث الناتج من عادم السيارات وأبخرة المصانع والأتربة المتصاعدة، وعوامل مؤثرة أخرى منها الاختفاء التدريجي للمساحات الخضراء. فشارعنا لم يعد كما كان قديمًا، وقد تحول إلى سويقة يتحكم فيها سُياس العربات التي غدت تستولي على معظم عرض وامتداد الرصيف والأسفلت حتى يضطر سائقو السيارات إلى القيام بألعاب بهلوانية للمرور من شارع الشيخ ريحان إلى شارع محمد محمود. ومع ذلك، نظرًا لأنني أمضيت بطريقة متواصلة جزءًا مهمًّا من حياتي هناك، أي من سن الخامسة إلى ما بعد الأربعين ثم بعد ذلك لمدة شهور على فترات متقطعة، يظل هذا البيت هو الذي يحمل أجمل وأعذب ذكرياتي. فهو البيت الذي وُلدت وتربت فيه ابنتي والتحقت بالمدرسة نفسها التي انتظرنا على مر السنوات المتعاقبة أن يدق جرسها حتى نغادر المنزل للحاق بطابور الصباح. وهو البيت الذي توفيت فيه والدتي عام ٢٠٠٠ عن عمر يناهز التسعين وأبي بعدها في عام ٢٠٠٦ عن عمر يقترب من الستة وتسعين عامًا. ولكن، على الرغم من إصرار ابنتي على الاحتفاظ بهذا المنزل لما يحمله من ذكريات غالية علينا، حُرمنا منه، واضطررنا إلى مغادرته قُرابة نهاية عام ٢٠٠٦ حينما قال صاحب العمارة للمحامي الذي وكَّلته للتفاوض معه بشأن تمديد العقد الذي بيننا - مقابل تغيير قيمة الإيجار وربما دفع نوع من خلو الرجل - إنه انتظر عشرين عامًا حتى يُتوفى الشخص الموجود به (أي والدي) للحصول على الشقة. عندئذ، أوقفت أي تعاملات معه، وقررت إجلاء محتويات الشقة بأقصى سرعة حتى لا نتعرض مرة أخرى للاستماع إلى تلك الكلمات القاسية الموجعة وغير اللائقة إنسانيًّا.

أحببت هذا البيت الجديد وارتبطت به بعمق وما زلت أفتقده، فالمرة الأولى التي زرت فيها هذا المنزل كنت في الخامسة من عمري والشقة ما زالت تحت الإنشاء، ولكن سرعان ما أصبحت

جاهزة للسُّكنى. كانت هناك غرفتا نوم، واحدة لوالديَّ والثانية لي ولأخي عندما يقضي بعض الوقت معنا. أما الغرفة الثالثة فتقع بين غرفتي النوم، وكانت مُخصَّصة كقاعة للطعام تحتوي على طاولة سفرة طويلة عليها لوح من الزجاج القوي وتحيطها كراسي من الخشب بقاعدة من الخوص المجدول، كما احتوت فيما بعد على بعض الأرفف التي وُضعت الكتب والأوراق الخاصة بأبي عليها. أما الصالة، فكانت واسعة وبها - في البداية - طقم من المقاعد يُشار إليه بالأسيوطي ثم جرى استبداله بعد سنوات طويلة بطقم قبيح من المقاعد الثقيلة المكسوة بقماش من القطيفة باللون الأخضر. ولكن ظلت أرضية هذه الصالة بالبلاط «المنغبش» نفسه الذي استلمنا به الشقة إلى أن تركناها. أما أرضيات الغرف الثلاث، فكانت من الخشب سواء الموسكي لغرف النوم، أو ما يُسمى بالباركيه بالنسبة إلى غرفة الطعام. غرفتي وغرفة الطعام كانتا بباب من الزجاج المُحبَّب للحفاظ نوعًا ما على الخصوصية وغرفة والدي ووالدتي من الخشب الصب لتوفير خصوصية أكبر لهما، وفي مقابلها حمَّام مُجهَّز تمامًا بجميع الأدوات الصحية. أما المطبخ، فكانت به رخامة طويلة مثبتة بأحد الحوائط تسمح بتجهيز الطعام عليها. هكذا كان تسليم معظم الشقق بعقود إيجار في هذه الفترة. كنا في السنوات الأولى من إقامتنا نعتمد على ثلاجة تعمل بألواح الثلج التي نشتريها من محل قريب حينما يبدأ اللوح الموجود في الذوبان، ثم استبدلت بها والدتي - غالبًا قبل عام ١٩٥٩ - ثلاجة كهربائية وفَّرت علينا كثيرًا من العناء ومنحتنا قدرًا أكبر بما لا يقاس من النظافة. كانت في المطبخ أيضًا طاولة صغيرة مغطاة بالصاج، غالبًا ما كنت أتناول وجبة العشاء عليها، والتي كانت تتكون في معظم الأحوال من طبق به مزيج من العسل الأسود والطحينة، وهي الوجبة التي لم أكن أستسيغها كثيرًا، ومع ذلك كنت أقبلها على الرغم من أنني أُفضِّل تناول قطع من الجبن الرومي التي أصرت والدتي أن أتناولها بكمية وفيرة من الخبز بغرض تقليص الهدر المالي. ولكنني كنت أحب المَزَّات التي يتناولها أبي وأمي في الصالة مع كأس ظريف قبل الغداء ويُسمح لي بالتقاط بعض القطع مما أُفضِّل من المقبلات. وكان لبيتنا - مثل معظم البيوت - وجباته الخاصة التي تميزه. فعلى سبيل المثال بالنسبة للمَزَّة، كنا نحب القلقاس المصنوع على طريقة جدتي لأبي التي كانت طاهية ماهرة، وهو قلقاس مسلوق كاملًا بعد تقشيره ثم تقطيعه إلى حلقات وهو ساخن حتى لا يتحول إلى قطعة جلدية يصعب التعامل معها، وتحميره في زيت به كمية وفيرة من الكركم، وبعد غرف القلقاس الذي أصبح بلون ذهبي جميل، نقوم بتغميس القطع في خلطة من الملح والكمون وقليل من الشطَّة. كما كان أبي يحب تناول شرائح الباذنجان المُحمَّر عند خروجها مباشرة من النار مع هذا القلقاس ويعتبر ذلك وجبة كاملة يرفض بعدها الجلوس على طاولة الطعام، فأنا وأبي كنا شبه نباتيين، وما زلت. حينما أقول شبه فهذا لا ينفي أن هناك بعض الأكلات غير النباتية التي أتناولها، فإلى جانب كل ما ينتمي إلى البحر من أسماك وقشريات وقواقع التي ألتهمها وبمقدوري تناولها يوميًّا، أحِنُّ أحيانًا إلى طبق فَتَّة بالكَوارِع، لكنني أستطيع الاستغناء عن هذه

النوعية الأخيرة من الوجبات لفترات طويلة قد تصل إلى شهور أو حتى سنوات. أما عن الميل النباتي لوالدي فأتذكر أن جدتي لوالدتي كانت تسعى حينما تزورنا إلى أن تصنع أصنافًا من الطعام تعتقد أنها ستُعجب زوج ابنتها؛ ففي إحدى المرات، قررت أن تُدلِّله بشكل خاص مع تجهيز وجبة من الحمام المحشي، فكان إحباطها عظيمًا عندما قرر أبي يومها أنه ينوي تناول طبق من البيض المقلي بدلًا من هذه الوجبة.

الأمر الظريف كان وجود سلالم خلفية للعمارة في منوري العمارة وراء أبواب جميع المطابخ، مما يسمح لمُقدِّمي الخدمات الخارجية (مثل إحضار طلبات البقالة، وكي الملابس، وألواح الثلج، أو جامعي القمامة، إلخ) بأن يصلوا بسلاسة إلى الشقق. كانت تعيش في هذه السلالم القطط التي ارتبطت بها كثيرًا. اعتادت الإناث منها إنجاب صغارها في طرقاتها، وكنا نوفر لها صندوقًا لتضعها فيه، وبما أننا - نحن والجيران المقابلين لشقتنا - نقوم بإطعام القطط حديثة الولادة وأمهاتها، اعتدت أن أذهب يوميًّا لمداعبة القطط الصغار بعد أن تكون الأمهات قد ارتاحت لوجودي قريبًا منها. فإناث القطط تخشى بشدة أي أذى قد يصيب صغارها، وقد تتحول إلى حالة من الشراسة مع أي شخص يحمل رائحة غريبة عليها فتقوم على الفور بنقلها إلى مكان آخر خفي عن الأنظار لحمايتها، وأعتقد أن عديدًا من الحيوانات تتعرف على بعضها من الرائحة، كما تتعرف على الكائنات الأخرى - ومنها الإنسان - بالطريقة نفسها، وحينما تشتم رائحة الخوف عند شخص تظل تطارده. فاللافت للانتباه في الشارع الذي أصبحت أعيش فيه الآن والمليء بكلاب وقطط الشوارع التي لا أحب أن أسميها بالحيوانات الضالة (لأنها ليست ضالة وإنما اختارت البقاء في المكان الذي يناسبها وتشعر فيه بأمان)، أنه بمجرد دخول أي شخص غير مألوف إلى الشارع يبدأ ارتفاع صوت نباح الكلاب. بينما تتعامل هذه الكائنات مع سكان الشارع ومن يترددون بانتظام عليه بكل اطمئنان حتى إن لم يكونوا ممن قد اقتربوا منها أو أطعموها في يوم من الأيام. ولكن كما تشعر الحيوانات برائحة الخوف، فهي تشعر أيضًا برائحة الحب تجاهها.

المهم، أدَّت علاقتي المتواصلة والمباشرة مع صغار القطط القاطنة في السلالم الخلفية إلى إصابتي في سن السابعة بمرض جلدي مُعدٍ يسمونه السعفة أو القباء الحلقية وكنا نسميه القُراع، الذي يؤدي إلى تساقط بقع من الشعر سواء في الرأس وحده أو - كما حدث في حالتي - في الرأس وجميع أجزاء الجسد. أخذتني والدتي لواحد من أشهر أطباء الأمراض الجلدية في هذه الفترة، فأشار علينا بالعلاج المعمول به آنذاك والذي اشتمل على ما يلي: بعض المراهم والتركيبات الصيدلانية لعلاج إصابات الجسد، أما الشعر فكان يجب حلقه تمامًا، ثم تعريض الرأس لأشعة إكس حتى تسقط جميع الشعيرات المتبقية، يلي ذلك إزالة أي شعر ظل عالقًا في فروة الرأس بعد هذه العملية باستعمال ما يُعرف بالحلاوة، أي الماء المعقود بالسكر والليمون الذي ما زالت نساء عديدات عندنا يستعملنه في إزالة شعر الجسد وإن كان قد استُبدل به في مراكز كثيرة للتجميل

الشمع أو أشعة الليزر. الموقف برمته كان قاسيًا، أولًا في أثناء عملية قص الشعر عند الحلاق وأنا أبكي لرؤية خصلات من شعري تتناثر حولي على الأرض ويصبح رأسي عاريًا. وثانيًا حينما لجأ أبواي إلى بلّانة تعمل عند شقة مجاورة لتقوم بتنفيذ الجزء الأخير والأصعب من العلاج. لن أنسى هذا المساء وهم يركضون ورائي في الشقة، ثم يلتقطني أبي ويضغط على رأسي بين فخذيه حتى لا أهرب مرة أخرى ويقول للمرأة:

- يلّا خلصينا بسرعة يا أم سيد.

كرهت أبي في هذه اللحظة.

حين كان عليَّ الرجوع إلى المدرسة، أصبحت أعاند والدتي حتى لا أخلع الطاقية التي أرتديها لكيلا تراني زميلاتي في الفصل على حالتي، إلى أن ذهبت يومًا مبكرًا إلى الفصل قبل دخول التلميذات الأخريات، وكنت أبكي فسألتني المدرسة التي كانت تجهز نفسها قبل دخول التلميذات عن سبب حزني، فشرحته لها، وإذ بها تطلب مني خلع غطاء الشعر، ففعلت، ربما لأنها معلمتي التي أحبها وعليَّ احترام طلبها خلافًا لمعاندتي لوالدتي. أما هي فقد نجحت في إقناعي بأن شكلي جميل بعد أن أصبح هناك نوع من الزغب يكسو فروة رأسي، وبعد أن قصت عليَّ إحدى روايات الأطفال وجعلتني أنسى مخاوفي. بطبيعة الحال كانت التجربة برمتها مؤلمة ومريرة سواء جسديًّا أو نفسيًّا.

أنا بعد أن بدأ شعري يظهر على رأسي، عام ١٩٥٧

على الرغم من ذلك، ظللت أربي قططًا متتالية حتى عام ٢٠٠٨ حينما تُوفي قطي الأسود بسبب الشيخوخة. كانت ابنتي وصديقها قد وجدا هذا القط - الذي لم يكن يبلغ بعد أسبوعين - في صفيحة زبالة أسفل إخوته، فأحضراه لي. أسميناه بيبي لأنه كان كالطفل الصغير واضطررت في البداية إلى إطعامه بالسرنجة إلى أن كبر قليلًا فأصبح يأكل من طبق. يبدو أنه اعتقد بعد سنوات من الحياة المشتركة امتدت إلى ستة عشر عامًا أنني أمه، فلما كنت أضطر إلى السفر بضعة أيام للعمل مع الاعتماد على ابنتي أو أحد الأصدقاء لزيارته يوميًّا بغرض إمداده بالأكل، كان يظل عند عودتي غاضبًا مني وكأنه يحاول أن يصرخ في وجهي: ليه سبتيني يا ماما يا وحشة! لما عُدت من إحدى سفرياتي رفض الطعام وظننت في البداية أنها إحدى قَمَصاته المعتادة، لكنه استمر على هذه الحال حتى طلبت من بسمة أخذه عند طبيب بيطري لعله يصف له علاجًا، ولكن بيبي مات في الطريق إلى العيادة. قررت منذ ذلك الوقت الامتناع عن تربية القطط أو أي حيوان أليف سوف أرتبط به عاطفيًّا ثم يتركني وحدي من دون بيبي أعتني به.

أنا وحبي للقطط، هذه المرَّة مع القط رابسو

وكما سبق القول، فإن وجود شقة والديَّ بالقرب من مدرستي سمح لي بألا أغادر البيت صباحًا قبل سماع جرس بداية اليوم الدراسي. وكان جرسًا نحاسيًّا له صوت مميز في أذنَي، يقوم حارس المدرسة كل صباح بالتقاط الذراع الحديدية المعلقة به والتي تسمح بانطلاق رنينه. هذا الصوت أحب الاستماع إليه، وأستمتع به كل صباح حينما أستيقظ على رنين أجراس الكنيسة الموجودة قريبًا من مسكني الحالي.

في الصف الأول الابتدائي أتذكر بشكل خاص مدام كريمة مدرسة اللغة العربية، وبعد سنوات من تخرجي، كنت أقابلها في شارعنا صباحًا وهي ذاهبة إلى عملها، فنتحدث قليلًا معًا بعد أن أُذكِّرها بنفسي، حتى جاء اليوم الذي درَّست فيه لابنتي التي أحبتها كثيرًا دونًا عن جميع مدرسات ومدرسي اللغة العربية. مدام كريمة ببشرتها السمراء وهيئتها المستديرة نوعًا ما وابتسامتها الهادئة كانت المُعلمة الصبورة مع الأطفال والوفية لعملها، كانت نموذجًا للمعلمة الطيبة.

وفي المُقابل، أتذكر مدام رشيد، مدرسة الدين واللغة العربية، والقادمة من مدينة رشيد كما يدل عليها اسمها، وهي كانت في غاية الصرامة، وأشارت لي ابنتي فيما بعد أنها كانت تضرب التلميذات على أصابعهن بالمسطرة عند ارتكاب أي خطأ، ولكن الأمر الفكاهي هو أن في نهاية السنة الدراسية الأولى لنا معها، كان الفصل بأكمله ينطق بعبارات مثل: حنذاكروا، حنتعلموا، حنمشوا، حنقولوا، إلخ.

أما الجزء الطريف بخصوص سنوات المدرسة، فهو أنني في كل مرة تأتي سيرة الملوخية،

أتذكر طفولتي، أي وأنا في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية. كنت طفلة خجولة جدًّا، وكانت معي في الفصل تلميذة اسمها روحية حجمها أكبر من البنات الأخريات، وطويلة اللسان إلى حدٍّ ما. فأرادت في يوم أن تسخر مني - أو هكذا بدا لي في هذه الفترة - وراحت تهتف في الحوش: «نولة فراولة!» وتسحب وراءها بعض تلميذات الفصل اللاتي رحن يرددن وراءها هذا الهتاف. شعرت بحرج شديد وبقلة حيلة، فلما رجعت إلى البيت، أخذت أشكو لأمي وأحكي لها ما حدث. ولأن أمي - ككل الأمهات - لا تحب أن يصيب أحد ضناها بأذى، راحت تفكر كيف يمكن أن أنتقم لنفسي، حتى جاءتها الفكرة التالية: روحي إنتِ بكرة المدرسة واهتفي روحية ملوخية. بالطبع لم أقم بذلك، فالخجل كان أقوى مني. ولكني أتذكر هذه القصة كلما جاءت سيرة الملوخية حتى أصبحت الأكلة مقترنة في ذهني بهتاف روحية ملوخية، وأفاجئ نفسي بابتسامة على الشفاه.

بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، جرى تمصير مدرستنا وتغيَّر اسمها، وأُدخلت مناهج التربية الدينية - ضمن مواد أخرى جديدة - لجميع التلاميذ من مسلمين ومسيحيين، بينما استُثني الطلاب اليهود من دروس الدين. ففي أثناء جلوسنا في الفصول، كانت زميلاتنا اليهوديات يمرحن في فناء المدرسة. ولأنني لم أفهم كثيرًا مما تقوله لنا مدرسة الدين التي كانت تحدثنا - ضمن قصص دينية أخرى - عن السيدة مريم التي أنجبت المسيح وهي عذراء ولم أدرك ساعتها معنى هذه الكلمة ومدى اقترانها بالإنجاب، فقد كان أقصى تخيلي أيامها أن الرجال والنساء ينجبون الأطفال من مجرد القُبلة ولم أستوعب معنى العذرية، وتتوقف معلوماتي الجنسية عند هذا الحد. كما كنت أشعر بالغيرة من الحرية التي تنعم بها الزميلات اليهوديات، فقررت أن أقول للمدرسة إنني يهودية، وهكذا استمتعت لمرة واحدة بالبقاء في الحوش في أثناء حصة الدين. في اليوم التالي، عاد والدي ظهرًا إلى المنزل، ومن الواضح أنهم استدعوه في المدرسة لمعرفة حقيقة الأمر. وقد دخل أبي في ثورة عارمة، وبدأ يرتفع صوته وينهاني عن الادعاء بأنني يهودية. والواقع أنني خفت جدًّا من رد فعله، ولكن للأمانة، لم يتهور أبي مرة واحدة طوال حياته في معاقبتنا أنا أو أخي بالضرب.

خلال عام ١٩٥٧، ألقت القوات الفرنسية القبض على المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد وجرت محاكمتها ثم إصدار حكم بالإعدام عليها. فهبَّت حملات دولية من أجل حماية حياتها. ومن مصر، تبنت سيزا النبراوي - النسوية الشريفة وزميلة هدى شعراوي - هذه الحملة، وقادتها على المستوى الوطني كما شاركت بها على المستوى الدولي. بدأت تنشر الجرائد المصرية في أثناء هذه الفترة نموذج خطاب للتوقيع والانضمام إلى هذه الحملات من أجل المشاركة في إنقاذ حياة المناضلة الجزائرية. كان أبواي قد أخبراني بتفاصيل ما جرى معها من تعذيب، وبحكم الإعدام المسلط على رقبتها، فأصررت على إرسال نسخة من الخطاب بتوقيعي. كما كانت أمي قد طلبت مني الذهاب معها يومًا إلى مطار ألماظة لاستقبال سيزا النبراوي عند عودتها من إحدى جولاتها الخارجية في إطار الحملة الدولية. ثم وضعت أمي بين يدَي باقة صغيرة من الزهور لتقديمها إليها عند خروجها

من الطائرة. بعدها بأيام، نظّم عدد من النسويات المصريات مسيرة للتوجه بمطالب الحملة إلى ممثل الأمم المتحدة في أحد مباني حي جاردن سيتي. أخذتني أمي معها وكان هناك عدد من النساء، رأيت فيها للمرة الأولى الفنانة إنجي أفلاطون، وطنط فاطمة زكي زوجة نبيل الهلالي المحامي، وأخريات. لكن سرعان ما حاصرتنا قوات الأمن وأجبرتنا على الدخول في بهو المبنى، ثم أغلقوا الأبواب وراءنا. تلك هي المظاهرة الأولى التي شاركت فيها، وكان هذا هو التدشين الأول لاندراجي في العمل العام.

كانت لي جارتان تسكنان في العمارة المقابلة لعمارتنا في شقة باب اللوق ومعي في المدرسة نفسها، والصف الدراسي نفسه. كانتا توأمين متطابقتين تمامًا، إحداهما اسمها نادية، والثانية رينيه. ويبدو أن أمهما قد استُنزفت قواها من محاولة تربيتهما، فقررت أن تتركهما لأنفسهما. في الفصل، كانتا لا تتوقفان عن ترتيب المقالب للمدرسين والمدرسات، فقررت إدارة المدرسة فصلهما عن بعضهما في فصلين مختلفين في الصف نفسه. ولكن الكبار لم يحسبوا ماذا يمكن أن يحدث وقت الفسحة: فكانت البنتان تتبادلان المقاعد، وحينما تعود إحداهما بعد الاستراحة إلى الفصل يضيع صوت المُدرسة من كثرة مطالبتها بالإجابة عن السؤال، فتجيب الموجودة بالفصل بعد إنهاك المُدرسة أنها ليست هي المقصودة وإنما شقيقتها. لقد شاهدت بعينَي بعض تلك المقالب، والفصل بأكمله يضج بالضحك أمام المُدرسة الغلبانة التي لا تدري إلى من تلجأ.

في السنة نفسها احتاجت والدتي إلى شخص يساعدها في أعمال المنزل بعد أن كانت أم زكية قد مرضت واضطرت إلى التقاعد ولو لفترة، فرشحت لها والدة زميلتي نجوى في المدرسة سيدة اسمها أم مصطفى. لم أسترح قَطُّ إلى هذه الدادة الجديدة التي كانت تشبه في نظري الفنانة نجمة إبراهيم في فيلم ريا وسكينة. والد صديقتي نجوى كان يعمل محاسبًا في جريدة الأخبار، وعندما سمع من ابنته أن أبي ينشط في المجال السياسي لجأ إلى رؤسائه الذين أشاروا إليه بزرع أحد بمنزلنا ليمدهم بمعلومات عما يدور فيه، وقد تم ذلك في شخص أم مصطفى. في يوم من الأيام، كان والدي يتحدث مع أحد أصدقائه هاتفيًّا عن سهرة ينوون قضاءها معًا، وقال له:

- إحنا حنهيص الليلة دي.

فذهبت أم مصطفى لتُبلِّغ من كانوا أوصوا بعملها معنا. في ذلك الحين، كان رئيس الدولة في زيارة خارجية والمفترض أن يعود في الليلة نفسها إلى مصر. بعد ساعتين أو ثلاث، رن جرس الباب ودخل ضابط وربما اثنان من العساكر فوجدوا جميع أبواب الغرف مغلقة، لكن من الواضح أن داخلها أناسًا، فبدأوا بفتح باب غرفة نومي فإذا بالمفاجأة أن بها بنتين صغيرتين تلعبان معًا بالدمى، إذن ليس هذا هو الاجتماع السياسي المطلوب القبض عليه. ثم راحوا نحو غرفة الطعام، فوجدوا ثلاثة شبان - أخي وأصدقاءه - يمزحون معًا بالكورة. وأخيرًا فتحوا باب غرفة نوم أبوَي

فإذا بوالدي يقوم بتنظيف أحذيته بالورنيش. المهم أنهم قبضوا على والدي واقتادوه إلى مبنى الداخلية مع أم مصطفى. هناك قابله ضابط مسؤول بطريقة متحضرة وأفاده بأن جاءتهم إخبارية بحدوث اغتيال الليلة، فضحك أبي ورد عليه إن الشيوعيين المصريين لا يقومون بالاغتيالات، فأجابه الرجل إنه يعلم هذا، ولكن لا بد أن يظل والدي معهم حتى وصول جمال عبد الناصر إلى بيته بسلام. هكذا كانت سهرة التهييص التي كان يأملها أبي. وقد عرفنا فيما بعد من إحدى صديقات والدتي هوية الطرف المُبلِّغ بعد أن قُبض على أبي في ١٩٥٩. أما عن أم مصطفى، فلما عادت إلى منزلنا صارت تولول ولملمت ملابسها وغادرت المنزل إلى غير رجعة، ففهمنا حينذاك أنها كانت طرفًا في الموضوع من دون أن نعرف تفاصيله.

ربما يعود عشقي لوسط المدينة إلى الذكريات التي أصبحت مع الأسف مجرد ذكريات لا تنطبق على الواقع الحالي نظرًا للتغير الكبير الذي طرأ على مدينة طفولتي فيما بين الازدحام الشديد المصحوب بالتزاحم اللاإنساني بين البشر لالتقاط مكان للسيارة، أو حتى سيرًا على الأقدام من خلال إزاحة المارة الآخرين بكل غلظة، والضجيج المفزع القادر على إقلاق أي شخص سوي بل وحتى إصابته بالصمم، وقُبح المعالم التي لم تعد مألوفة، واستبدال أسماء المحلات ومحتوياتها المألوفة للناس بأسماء أجنبية ومحتويات لا يعرف العامة كيفية نطقها أو فهم مغزاها، وملئها بطريقة عشوائية بأطباق الدِّش وأدوات التكنولوجيا الحديثة (بما أن هذا النوع من الاستهلاك أصبح من التوجهات السائدة اليوم، ودليلًا على الشياكة)، وفقدان السلوكيات المصرية الأصيلة التي بدأت تتصاعد فيها النزعة الأنانية، وصولًا إلى العدوانية في كثير من الأحيان.

في سنوات الطفولة، كانت هناك شاحنة كبيرة تقوم وقت الفجر بِرَشِّ الشوارع وكنت أحرص على الاستيقاظ وقت مرورها لمشاهدتها من نافذة غرفتي. كانت تصبح بعدها الشوارع نظيفة، أما الآن، فأكوام النفايات متناثرة في جميع الشوارع الخلفية، ولا تفلت من وجودها بعض الشوارع الكبرى. ومع ذلك، يظل وسط المدينة له طعم آخر من الصعب أن أشعر به شخصيًّا في أي مكان آخر في الدنيا، وأتساءل: هل هذا مجرد حنين إلى زمن ولَّى؟ لا أدري. ولكنني أعلم أنني ما زلت أحِنُّ إلى الأسواق التقليدية للأغذية التي لم أعد أجدها سوى في أماكن شديدة النُّدرة. فلم ينجح سوق باب اللوق العتيق في الانضمام إلى تلك المواقع الناجية من الفناء التي لا تتعدى اليوم في مدينتي عدد أصابع اليد الواحدة. كنت أحب أن أذهب إلى هذا السوق لابتياع بعض المشتريات التي تكلفني بها أمي، وبقيت أتردد عليه حتى بعد مغادرتنا حي باب اللوق إلى أن أصبح شبه خالٍ من المنتجات التي ذهبت لشرائها ولا أجد شيئًا مما أريده. ولكن تظل حتى الآن في المنطقة بعض محلات البقالة التقليدية التي أجد فيها أحيانًا أصنافًا لا توفرها المحلات الكبرى (مثل الجبن الأبيض المُسمى دوبل كريم، أي ذي القشدة المزدوجة)، كما أُفضِّل التعامل المباشر مع البائعين فيها الذين تنشأ بينهم وبين الزبون علاقة إنسانية لطيفة، لكنني أعتقد أن حتى هذه المحلات سوف تختفي قريبًا مع امتداد

النزعة التحديثية.

أتذكر أيضًا أن والدتي كانت تأخذني أحيانًا لقضاء بعض الوقت في ذهبية كان اسمها قاصد خير موقعها أمام فندق سميراميس القديم (الذي استُبدل به مبنى عصري يحمل الاسم نفسه ولكنه لا يتسم بالعبق التاريخي الذي عرفته في شبابي وأمضيت فيه أوقاتًا لن أنساها مع صديقات وأصدقاء الأيام الجميلة)، وحكت لي أمي أن هذه العوَّامة كانت من مقتنيات الملك فاروق ثم آلت بعد الثورة إلى جهة أخرى لا أتذكر ما هي، ولكنها اختفت الآن من موقعها. كانت أمي تلتقي هناك بصديقاتها، ويمضين الجلسة في الحديث معًا، وأنا الوحيدة بين الكبار، فكانت تسليتي المتاحة هي النظر نحو كوبري قصر النيل، ومشاهدة أنوار الكوبري المنعكسة على نهر النيل. هذه المياه كانت تتلون باللون البني المائل إلى الاحمرار أيام فيضان النهر جالبًا معه كميات من الطمي تترسب على ضفافه، فتزيد من خصوبة الأراضي. وكنت أحب النيل في هذه الأيام لأنه كان نابضًا بالحياة. هذا الحب للنهر جعلني فيما بعد أتباهى بنهرنا أمام معارفي الأجانب، مفتخرة بأننا جزء من أطول وأجمل نهر في العالم. إلا أن النيل أصبح مليئًا بالنفايات، ومخلفات المصانع، فيما عدا ما وجدته - والذي ما زلت أجده مؤخرًا - في مجرى النيل بأسوان.

خلال فترة وجودنا في بيت شارع يوسف الجندي ظل طبيب الأسرة هو الدكتور فريد حداد، الرجل ذو الأصول اللبنانية من ناحية الأب وأعتقد الإسكندنافية من ناحية الأم والتي تجلَّت في لون البشرة والعيون الفاتحة والشعر الكستنائي، مع ميل للسلوك عميق الإنسانية الذي ورثه من ناحية الأب. كان يتميز بطيبة فطرية في تعامله مع من يعالجهم، وخاصة مع من يحتاجون أكثر من غيرهم إلى خدماته المجانية سواء بالكشف أو بالعلاج والمتابعة وأحيانًا بشراء الدواء لهم على نفقته الخاصة. وهي الخدمات التي يقدمها في عيادته التي كانت تقع في بدايات حي شبرا بعد النفق. ولو تراءى لي أنه يمكنني تخيل وجه لملاك، فإنما تأتي صورته إلى ذهني على الفور. خلال عام ١٩٥٨، نظم والدي حفلًا في منزلنا على شرف هذا الطبيب للدور العظيم الذي كان يقوم به على المستويين الإنساني والنضالي. وكتب له فيما بعد المهندس الشاعر والشيوعي محمود المستكاوي قصيدة عنوانها «فريد حداد بتاريخ ديسمبر ١٩٥٩ - الأوردي» (المقصود هنا أوردي ليمان أبو زعبل)، يقول فيها:

كان إنسانًا رقيقًا كالضياء

كان صلبًا لم يلن حتى الفناء

كان بسَّامًا ودودًا كالوفاء

في سخاء كان يعطي في سخاء

ويداوي أصدقاء الأصدقاء

كان مملوءًا حياة حين جاء

خضَّب السفاح كفًّا بالدماء

وارتدى وجهًا بغيضًا من رياء

ثم أدَّى باليد الأخرى العزاء

كما ورد الحديث عنه في السيرة الذاتية للمفكر الفلسطيني-الأمريكي إدوارد سعيد بعنوان «خارج المكان»، حيث يشير إلى زواج فريد حداد بفلسطينية اسمها إيدا وإنجابهما اثنين أو ثلاثة أطفال كما كتب. وفي الواقع أنهما أنجبا كلًّا من وديع، وسامي، ومنى الذين عرفتهم شخصيًّا كما تعرفت على والدتهم. ويستطرد إدوارد سعيد حول الدور العظيم الذي قام به الدكتور حداد مع المهاجرين الفلسطينيين إلى مصر بعد قرار التقسيم إلى إسرائيل وفلسطين ووقوع كثير منهم في حالة من الفقر واحتياجهم إلى من يداوي جراحهم الجسدية والنفسية، ويضيف أن حتى زملائه في النضال (أي الشيوعيين المصريين) كانوا يعتبرونه قديسًا.

نعاه أيضًا قريبه الشاعر فؤاد حداد بقصيدة «الشاي في إيد الشهيد» وجدت أجزاء منها في مقال وحيد حول هذا الشهيد مُتاح على الإنترنت للدكتور يوسف سميكة بعنوان «طبيب الغلابة الدكتور فريد حداد (١٩٢٢-١٩٥٩)»، والمنشور على موقع جريدة «وطني» بتاريخ ١٦ مايو ٢٠١٧، أقتبس منها الأبيات الآتية:

إيه اللي بينور لي زي السراب

إن كنت لسه داخل السرداب

طول مانا عايش وابن عمي شهيد

طول مانا ميت وابن عمي شهيد

أبوس إيديك غني لي يا أبو السيد

على الشريط يا مصر يا أمنا

علشان فريد القلب الأبيض هنا

في القلب الأبيض حته من شبرا

فيها عيادة ابن عمي فريد

هو استحق بجدارة أن يذكره البعض - وإن كانوا قليلين - سواء خلال حياته القصيرة أو بعد استشهاده بطريقة غير آدمية لمجرد احتفاظه بكرامته وبفخره بالوطن الذي قرر أن ينتمي إليه.

طبيب الغلابة الشهيد الدكتور فريد حداد

نهاية الطفولة

١٩٥٩-١٩٦٤

قرر أبواي قضاء سهرة رأس السنة يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ عند بعض الأصدقاء، وكما سبق أن تركاني وحدي بالمنزل عدة مرات خلال هذا العام بحجة أنني أصبحت الآن بنتًا كبيرة، مع مكافأتي بالسماح بالمبيت في حجرتهما إلى حين رجوعهما، والوعد هذه المرة بالذات بالتفكير في إمكانية إبقائي بينهما في السرير الواسع حتى الصباح. صحيح أنني لم أحب كثيرًا البقاء وحدي بالمنزل، خاصة أن أم زكية التي عادت إلينا بعد رحيل أم مصطفى كانت هي الأخرى في إجازة ذلك اليوم، ولكن لم يُسبق لي في هذه الفترة تعلُّم الجدال مع والدَي أو ممارسته من قبل. قضيت المساء في قراءة صفحات من إحدى القصص المُحبَّبة إليَّ كما تعودت أن أفعل يوميًّا وما زلت، ثم دخلت السرير حريصة على الحفاظ على نور خافت يبدد مخاوفي من الظلام. قبل الفجر بوقت قليل استيقظت على صوت طرق قوي ومستمر على باب الشقة بينما رأيت والدتي وهي تَهمُّ لارتداء ملابس النوم، أما أبي فكان قد دخل دورة المياه استعدادًا للنوم. فتحت أمي باب الشقة فوجدت نفسها أمام مجموعة من الرجال انتشروا في أرجاء المنزل بحثًا عن أي ممنوعات. بقيت صامتة في السرير متظاهرة بالنوم وهم يفتشون الغرفة التي أرقد فيها، فطلب منهم أبي خفض أصواتهم حتى لا يقلقوني، ولكنني بعد قليل حاولت خلسة أن أتبين شكلهم، إذ إنها المرة الأولى التي أرى فيها زوار الفجر الذين طالما سمعت عنهم في أحاديث الكبار. فلما لم يجدوا شيئًا ذا قيمة، دعوا والدي لمصاحبتهم لأخذ فنجان قهوة في مبنى المباحث القريب من بيتنا والكائن آنذاك قرب ميدان لاظوغلي.

صورة أصر بابا أن نلتقطها كأسرة يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٨

بعد مغادرتهم المنزل، ظللت أنا وأمي مستيقظتين على أمل أن يعود أبي سريعًا بعد أن ينتهي من تناول فنجان القهوة، وكذلك من أجل إعادة ترتيب المنزل الذي أصبح شبيهًا بساحة المعركة. في الصباح، جاءت إلينا امرأة كانت على موعد سابق معنا اسمها خضرة وشهرتها نوال كانت تحيك لنا بعض الملابس وتضبط وتُقَيِّف على مقاساتنا البعض الآخر. فلما علمت بما حدث بقيت تزورنا يوميًّا لما يزيد على خمس سنوات لتطمئن علينا، وتتأكد أنه لا ينقصنا شيء. حدث الأمر نفسه مع إحدى صديقاتي فيما بعد، لكن لهذا الحديث موضع آخر.

لم نكن على علم بعد بأن هناك قرارًا جمهوريًّا بالقبض على أعداد كبيرة من الشيوعيين المصريين، لكننا بدأنا ندرك أن هناك عشرات، بل مئات، من الشيوعيين المصريين المقبوض

عليهم في الليلة نفسها، ومنهم بعض الذين كنت أعرفهم من أصدقاء والدي المقربين وأنادي عليهم بأونكل وطنط، وحتى بعد أن ماتوا جميعًا ما زلت في سني هذه أتذكرهم بهذه المسميات، منهم على سبيل المثال لا الحصر: أونكل حلمي ياسين، وطنط ثريا أدهم، وأونكل حسن صدقي، وطنط ثريا (عنايات) المنيري، وآخرون. لديَّ اليقين أن جميع الرجال كانوا أعضاء في تنظيم طليعة العمال والفلاحين مع أبي، وأن زوجاتهم كذلك وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بالأمر إلا في حالة طنط ثريا أدهم التي اعتُقلت هي الأخرى غالبًا بعد أيام من حملة أول يناير ١٩٥٩. وبمناسبتها، أتذكر أننا قبل عام ١٩٥٩ كنت قد توجهت أنا ووالدتي إلى المعرض الزراعي الصناعي الذي كان يُقام مكان أرض دار الأوبرا الجديدة، وفي أحد الأجنحة قابلنا طنط ثريا أدهم التي نهرتني لأنني أحني رأسي ناظرة إلى الأرض قائلة بحسم:

- بنت يوسف درويش لازم تفضل راسها مرفوعة باستمرار.

وبقيت هذه الجملة ترن في أذني حتى الآن، وإن حمَّلتني مسؤولية معنوية كبيرة.

كانت أمي قد أرسلت نوال (الخيَّاطة التي لازمتنا طوال هذه الفترة) إلى منزل والدة أونكل حلمي ياسين في باب الخلق للحصول على مزيد من الأخبار. فلما عادت إلينا، حكت أن شخصًا غريبًا قد فتَح لها الباب،

ماما مع صديقاتها، من اليمين: مارجو زوجة ريمون دويك، طنط انتصار خطاب بعد خروجها من السجن، طنط ثريا (عنايات) المنيري بجانب ماما، القاهرة عام ١٩٦٤

ثم رأت من بعيد طنط ثريا أدهم جالسة على سرير في إحدى حجرات المنزل تشير إليها بوضع إصبعها فوق فمها، أي مطالبتها بألا تتكلم أو تكشف عن نفسها. فتظاهرت نوال بأنها أخطأت في العنوان، وعادت إلينا فورًا. بعد فترة، علمنا أنه قبض على طنط ثريا، وربما يكون الرجل الغريب الذي فتح الباب هو أحد المُخبرين المُكلفين بالقبض عليها، واستوعبنا أنها حاولت إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

بدأت والدتي تسعى إلى حصر أسماء وعدد المقبوض عليهم، ومعرفة المكان الذي أصبحوا محبوسين فيه، فبعد تفكير، قالت لي إن هناك شخصًا قد يستطيع أن يمدنا ببعض المعلومات أو يعطينا مزيدًا من الأخبار، وهو عم حمزة. وهذا يستدعي إلى الذاكرة أغنية أحمد فؤاد نجم والشيخ

إمام عيسى: «رجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد ثاني». كان عم حمزة هو متعهد السجون، أي الشخص المسؤول عن تجهيز وإمداد السجون بالوجبات، سواء للسجَّانة أو للمسجونين. علمت من أمي أن هذه الوظيفة ظلت تتوارثها الأجيال المتعاقبة أبًا عن جد بالاسم نفسه، وكانت أمي تعرفه من أيام محبس أبي في سجن مصر ليقضي عقوبة الثلاث سنوات المذكورة من قبل.

توجهنا معًا إلى المحل الصغير الذي كان يقوم فيه عم حمزة بالإشراف على عمله والذي يقع بالقرب من بوابة سجن مصر. وجدنا هناك رجلًا متوسط القامة، يرتدي معطفًا طويلًا، غالبًا مصنوع من قماش الدمُّور ومن الواضح أنه يرتدي تحته جلبابًا، وله ذقن قصير مُدبَّب. سألته أمي لو كان يرسل طعامًا إلى المسجونين الشيوعيين الجدد، فنفى أن يكون سجن مصر قد استقبل مؤخرًا أي نزلاء جدد، ولكنه سمع أن هناك طلبات للطعام في سجن القلعة. فتحمست والدتي للمعلومة وقررت أن نتوجه على الفور أنا وهي إلى هذا السجن الأخير. كان الطريق طويلًا وصاعدًا إلى أعلى. ونظرًا لأننا كنا في أشهر البرد القارس، كنت أرتدي معطفًا تصادف أنه من القطيفة الحمراء مع كُوفِيَّة من اللون نفسه، وفيما يبدو أن هذا اللون قد ساهم كثيرًا في التقاطنا.

لما وصلنا أمام مباني السجن، كانت هناك في مواجهتنا بالعرض نوافذ بقضبان، ثم رأينا يدًا تخرج من وراء القضبان وتُلوِّح نحونا، ففهمنا أن هذه اليد لواحد من المقبوض عليهم مؤخرًا. لم نتمكن من الحصول على رؤية واضحة لملامحه لأنه يقف في مكان مظلم، ولكننا بدأنا أيضًا نُلوِّح ناحيته. بعد دقائق، جاءنا عسكريان وقبضا علينا لنتوجه إلى داخل فناء السجن. ثم خرج إلينا مأمور السجن ليسألنا عن سبب وجودنا هنا وتلويحنا لأحد المسجونين، فشرحت والدتي أننا أسرة واحد من المقبوض عليهم ونريد الاطمئنان عليه. تركنا المأمور ودخل إلى مكتبه واستمرت وقفتنا في الحوش لما يزيد على ساعة ونصف كنت أسأل أمي خلالها لو كانوا سيقومون بإيداعنا نحن أيضًا في هذا السجن. ثم خرج إلينا المأمور ثانية لينهانا عن الاقتراب من المكان مرة أخرى وأُفرج عنَّا. توقعت والدتي أنه من الأرجح أن يكون المأمور قد أجرى اتصالًا بأحد رؤسائه لإبلاغه بالأمر والاستفسار عن التصرف المطلوب تجاهنا، وأن هذا المسؤول اعتبر أنه لا يوجد خطر كبير من هذين الكائنين وطلب منه صرفهما. فخرج إلينا المأمور مرة أخرى، ونهانا قطعيًّا عن الاقتراب ثانية من هذا المكان. عمومًا، لم تكن لهذه الواقعة أي تداعيات بالنسبة إلينا فيما بعد وإن لم نتوصل قَطُّ إلى الهوية الدقيقة للشخص الذي كان يُلوِّح لنا من وراء القضبان، فقد زعم فيما بعد أكثر من شخص أنه هو الذي كان يُلوِّح لنا. كذلك ساهمت هذه المغامرة في التأكيد لنا - ومن خلالنا لأسر كثيرة أخرى - أن عددًا كبيرًا من ذوينا محتجزون بسجن القلعة.

أمضينا شهري يناير وفبراير ١٩٥٩ من دون أخبار عنهم، وبدأت تنتابني من وقت إلى آخر آلام شديدة في معدتي ربما يعود سببها إلى التوتر الذي ينتج عن الجهل بما سيحدث في المستقبل. وفي بدايات مارس وصلت إلينا شائعة تقول إنه تم الاستعداد لترحيل المسجونين يوم ٢١ مارس من

خلال محطة الجيزة للسكة الحديد، وهذا معناه أنهم متوجهون نحو جنوب البلاد. في هذا اليوم ذهب عدد من العائلات إلى المحطة، وتجمعنا على رصيف السكة الحديد ظنًّا منا أنهم عندما يصلون سنتمكن من التحدث معهم ولو لدقيقة واحدة أو أنهم سيمرون أمامنا بالقطار فنراهم ونُلوِّح لهم حتى لو كان من بعيد. بعد غروب الشمس، بدأ بعض المخبرين والعساكر في إجلائنا بكل غلظة خارج المحطة. فتجمعنا ثانية في الشارع قرب الباب الخارجي الذي تم إبعادنا عنه أيضًا. ثم رأينا من بعيد عددًا من سيارات الترحيلات بها كشَّافات قوية تتوجه نحونا في مشهد أقرب إلى الأفلام البوليسية. ثم راحت هذه السيارات تُلصق بابها الخلفي بباب المحطة، فأدركنا ساعتها أننا لن نرى أو نُلوِّح لأحد. فقد تم إنزال المسجونين على الفور بالفعل من العربة إلى رصيف المحطة الذي كنا قد طُرِدنا منه. أحسست بآلام المعدة تنتابني من جديد ورحت أبكي لأنني لن أتمكن من رؤية أبي، فأمرت إحدى الحاضرات من أهالي المسجونين أمي بأخذي والرجوع بنا إلى المنزل.

حكى المهندس محمود المستكاوي الذي كان ضمن المُرحَّلين مع زملائه ما كان يُرى من الجانب الآخر للحائط الذي فُرض علينا وعليهم لفصلنا عن بعض، وذلك في قصيدة ملحمية بعنوان «رحلة الحجلات»، أقتبس منها هذا المقطع:

وفي ميدان الجيزة كانت الدنيا زايطة
جيش بحاله كان مرابط في المحطة
زي أسراب الجراد عالزرع حاطَّة
والميدان تحت الحصار راسمين له خطة
كل شارع كل حارة فوقها أورطة
والمباحث والخنافس والمقاطف والأونطة
كلها شايلة السلاح وفي إيديها سلطة
سلطة القهر المسلح للجماهير اللي ساخطة
والذباب لابس ملابس مخبرين
والأهالي يشاوروا مش عارفين لمين
وشم بتدقه الثواني عالجبين
كل ثانية فيها بحر من الحنين
فيها حقد وفيها تار بايت دفين
مش حيطلع مش حتمحيه السنين
وسلمونا بالعدد جملة عدد مضبوط أكيد
كل عشرين لمهم جنزير يشخلل من بعيد
بالحجلات اللعينة إيد في إيد جوه الحديد
عقد ملضوم بالغضب راح الصعيد

المهم أن تلك كانت هي الهدية المُرَّة التي قُدِّمت للأهالي يوم عيد الأم. عرفنا فيما بعد أن

المسجونين تم ترحيلهم إلى سجن المحاريق بالواحات الخارجة. وقد تضمنت قصيدة المستكاوي إشارة إلى أنه تم استقبال المسجونين هناك بتهديد اللجوء إلى التشريفة التي تتضمن حفل استقبال بالضرب والركل وتتضمن أحيانًا أشكالًا أخرى من التعذيب والتنكيل، إلا أنهم اكتفوا هذه المرة فقط بالتلميح بالتعذيب من خلال نَصب ما يُسمى بالعروسة، وهي عبارة عن هيكل خشبي يتم تكتيف المساجين عليه والاعتداء عليهم بالجَلد.

كانت والدتي تعمل في هذه الفترة كسكرتيرة تنفيذية في شركة فيليبس مما كان يستدعي عودتي بمفردي إلى المنزل بعد انتهاء ساعات دوام المدرسة في الثانية ظهرًا، بينما تستمر ساعات عملها بعد هذا الموعد بساعة. والواقع أن مديرها في العمل كان متفهمًا لظروفنا، ويمنحها من وقت لآخر إجازة لقضاء بعض المصالح الخاصة بأبي، فقد اضطرت ضمن مهامها إلى تصفية مكتب المحاماة لأنها لم تعد تتحمل المصاريف المترتبة عليه مثل إيجار المكان، ومرتبات المحامين والموظفين المساعدين، والتكاليف الأخرى المرتبطة بالقضايا. كما أخذت تساعد بعض أسر المسجونين من أهالي العمال للمساهمة في تخفيف الأعباء عنهم، ومن هنا تعرفتُ على فتاة في مثل سني اسمها سناء وكنا نتزاور أحيانًا أو تحضر هي إلى بيتنا لقضاء اليوم والمبيت عندنا، أما أنا، فلا أتذكر أنني حبَّذت يومًا المبيت خارج المنزل أو خارج سريري إلا في حالات شديدة الاستثنائية. كنا نزور كذلك أسرًا أخرى لتبادل الأخبار نظرًا للمصير المشترك الذي نتقاسمه معها. ففي أثناء وجود المعتقلين بالمحاريق، تمكنوا من إرسال خطابات مكتوبة على قصاصات صغيرة من ورق البفرة تُخبَّأ في بيادات بعض العساكر الذين يأتون في إجازة للقاهرة ويُسلمونها إلينا لقاء مبالغ زهيدة، فَهم أيضًا من فقراء هذا البلد، كما أنهم محبوسون كذلك في هذا المنفى معظم أوقات السنة (قَدَّم المخرج عاطف الطيب صورة لمعاناة هؤلاء المجندين ومشاعرهم تجاه السجناء في فيلم «البريء»). المُضحك لي أن والدتي تضم هذه الوريقات الآتية من زوجها وتُقبِّلها، وكنت أتساءل كيف يمكنها عمل هذا على الرغم من أن هذه الخطابات لا بد أن تكون مُعبَّأة برائحة أقدام الجنود؟ لكن الحب غالب! في أحد خطاباته إلينا، توجه أبي بكلامه إليَّ وقال إن قلبه كان يُعتصر حينما تم استبعادي من مجموعة راقصي فرقة الباليه المصرية الجديدة، وأنه نهرني يومها لأنه أراد أن يُقلل من ألمي النفسي. ربما كان هذا العذر صادقًا، ولكنه لم يقضِ نهائيًّا على حزني يوم استلام هذا الخطاب. وهكذا، ما إن تصل معلومات جديدة إلى إحدى الأسر حتى نذهب لنزورها أو يأتوا لزيارتنا.

كان صلاح خطَّاب المقرب من أبي، وزوجته طنط انتصار الصديقة العزيزة لأمي، قد اعتُقلا تاركين وراءهما ابنين وحيدين في المنزل: هشام الذي كان في نفس سني تقريبًا، وعمر الذي كان أكبر منَّا قليلًا. اضطر الصبيان إلى اللجوء إلى جدتهما للأم التي لم تكف عن توبيخهما على الاختيارات السياسية لوالديهما، سواء فيما بينهم أو أمام الآخرين. كنت أكره الذهاب إلى هذا المنزل الكئيب ورؤية علامات البؤس والهوان على وجه الولدين. ولكن، هناك من ناحية أخرى ذكرى

مُنعشة تمثلت في نزهة معهما وأخي مجاهد في حديقة المسلة القريبة من حديقة الأندلس المطلة على نيل حي الزمالك. ظللنا نحن الأربعة لساعات نلهو ونضحك غير عابئين بالحزن وبالأعباء النفسية التي أُلقيت علينا. وعند قرب الانتهاء من الرحلة، علَّمني الأولاد كيف أقفز معهم في حافلة نقل عام في أثناء سيرها. وللأمانة لم أجرؤ على إعادة هذه الرياضة البهلوانية مرة ثانية منذ ذلك الحين.

هناك عدد من النساء اللاتي اعتُقلن كذلك، أذكر منهن: طنط فاطمة زكي زوجة الأستاذ نبيل الهلالي المحامي، وطنط ثريا أدهم زوجة حلمي ياسين، وطنط انتصار خطاب والدة هشام وعمر وزوجة صلاح خطاب، والفنانة إنجي أفلاطون الغنية عن التعريف، وثريا حبشي زوجة المهندس فوزي حبشي، وليلى الشال زوجة السياسي رفعت السعيد، وأخريات لا تسعفني ذاكرتي على تحديد أسمائهن. وكانت أغلبية الأزواج من المسجونين أيضًا. ظل هؤلاء النساء لمدة ثلاث أو أربع سنوات محبوسات في سجن القناطر للنساء. وفي يوم كان جمال عبد الناصر قد أعلن أن ليس لديه معتقلون في مصر، فبدأت المسجونات بعد هذا التصريح في ترتيب أمتعتهن والتوجه بها إلى مكتب مأمور السجن الذي سألهن باستغراب ما الذي يفعلنه في مكتبه، فكان ردهن أنه ليس في مصر وجود لمعتقلين سياسيين حسب ما قاله الرئيس، ومعناه أنه لا داعي لبقائهن في السجن، فما كان إلا أن جرى سحلهن من شعورهن للعودة إلى الزنازين. وصلنا علم بهذه القصة التي صدمتني بشدة، وتمنيت أن أتفادى طيلة حياتي تجربة الدخول إلى السجن. جميع المذكورات والمذكورين بالاسم قد رحلوا عنَّا اليوم، ودفنوا معهم ذكريات وتفاصيل لا نعلمها وربما لن تعرفها الأجيال الجديدة والقادمة. أما طنط ثريا أدهم، فقد أصيبت في أثناء فترة السجن بحُمى (ربما كانت الحمى الشوكية ولكنني لست متأكدة) يبدو أنها أثرت عليها كثيرًا لما شاهدتُه عن قرب بعد الإفراج عنها، فكانت تدخل فجأة في نوبات من النوم العميق تستيقظ بعدها بدقائق غير مدركة تمامًا لما يدور حولها فتبدأ في سؤال المحيطين أن يخبروها عما فاتها، إنه أمر محزن حقًّا رؤية هذه الإنسانة النابضة بالحيوية فيما قبل تصل إلى هذه الحالة.

أنا مع طنط فاطمة زكي والأستاذ أحمد نبيل الهلالي

ولكن لا ننسى أن يبقى لنا من الجانب الآخر الفن الجميل الذي تركته لنا الفنانة إنجي أفلاطون، ومن المؤكد من وجهة نظري، أن من أجمل اللوحات التي أنتجتها هذه الفنانة هي التي رسمتها فترة إقامتها بسجن القناطر الخيرية للنساء التي نجحت في تحويل زنزانتها فيه إلى مرسم.

بعد مدة من البقاء في سجن المحاريق، نما إلى علمنا أن المسجونين سيخضعون دفعة وراء الأخرى للمحاكمات التي ستُعقد جلساتها في محكمة المنشية بالإسكندرية. أظن الآن أن النظام الحاكم كان قد فضَّل الابتعاد بهذه

لوحة للفنانة إنجي أفلاطون لطفلة وُلدت وظلت فترة من طفولتها خلف قضبان السجن، سجن القناطر للنساء، بين عامَي ١٩٥٩ و١٩٦٣

المحاكمات عن القاهرة لتفادي أي شكل من أشكال التجمهر تضامنًا مع المسجونين. بدأت المحاكمات خلال صيف ١٩٥٩ وكان والدي ضمن الدفعة الأولى التي وقفت أمام المحكمة. أما فيما بين جلسات المحاكمات، فكانوا نزلاء في سجن الحَضرة الذي أتذكر أننا زرنا فيه أبي لمرة واحدة فيما كان يُسمى «زيارة سِلك»، أي الوقوف على الجانبين من الأسلاك للتحدث معًا (ولا أعلم إن كانوا يسمونها اليوم زيارة زجاج، حيث يتم التواصل خلالها عن طريق تلفون داخلي)؛ ولكنني أعجز تمامًا الآن عن تحديد موقع هذا السجن بمدينة الإسكندرية. فرحنا بلقاء ذوينا للمرة الأولى منذ غيابهم بضعة أشهر من دون أخبار مباشرة عنهم، وتبادلت الأُسَر الحديث معهم من وراء قضبان قفص الاتهام. كانت والدتي قد وكّلت محاميًا اسمه أحمد (أو محمود) البديني للدفاع عن أبي، وقد اعتادت أن تصحبني معها في جميع الأمور التي تقوم بها، بما في ذلك تلك المتعلقة بأبي، سواء في الذهاب إلى المحكمة أو إلى المحامي، ولاحقًا إلى مصلحة السجون للحصول على إذن بالزيارة.

كان هناك اتفاق بين المسجونين، وهو ألا يعترف الجميع بانتمائه إلى الحزب الشيوعي المصري المُوحَّد الذي تَشكَّل من أعضاء ثلاثة تنظيمات هي: حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني)،

والحزب الشيوعي المصري، وطليعة العمال والفلاحين وتم إعلان تأسيسه في نهايات عام ١٩٥٨. وكانت قيادات هذا التشكيل الجديد عند تأسيسه قد أصرَّت على استبعاد الأعضاء من أصول يهودية من المراكز القيادية، وهو التوجه الذي نجده في فترة مبكرة حتى قبل العدوان الثلاثي على مصر في أحد التقارير الصادرة عن أعضاء إحدى فصائل الشيوعيين، وفقًا لما جاء في مذكرات ألبير آريِّه المنشورة مؤخرًا عن دار الشروق. وعلى الرغم من إحساس أبي بمدى ظلم هذا القرار ودلالته على نزعة ابتعدت عن احترام مفاهيم حقوق الإنسان وعن المبادئ الشيوعية الأصيلة المتعلقة بعدم التمييز بين البشر، كما يشير إلى ميل للتوجه القومي العربي، فقد التزم به حينها لأنه كان شخصًا شديد الانضباط. إلا أن أبي صمَّم أن يكون واحدًا من المُقرِّين أمام هيئة المحكمة بتلك العضوية، فقرب نهاية دفاعه عن نفسه، نطق بتصريح:

- ولي شرف الإعلان عن عضويتي في الحزب الشيوعي المصري.

حاولت هيئة المحكمة إسكاته بكل الطرق، ولكنه لم يصمت وظل متحدثًا إلى أن أنهى الإدلاء بقوله. ولما خرجنا من المحكمة لتوديعهم من وراء قضبان الفتحات الضيقة في سيارة الترحيلات، قالت إحدى الزوجات لأمي إنها معجبة بدفاع أبي عن نفسه:

- ولكن ما كانش فيه داعي للكلمتين الأخيرتين.

أمي كانت متوترة لأنها تدرك ثمن هذا الاعتراف، ولكنها ردت على المرأة قائلة إنهم سيخرجون حتمًا جميعًا في يوم من الأيام لأن الأمر متعلق بقرار سياسي، ولكن هناك من سيخرج ورأسه متدلٍّ، وآخرون سيخرجون ورأسهم مرفوع. الحقيقة أنني أعجبت بشجاعة رد أمي في هذه اللحظة وفي الصمود بحسم أمام أي محاولات للتقليل من موقف أبي.

وقد عرفنا فيما بعد أن الثمن كان الحكم على أبي بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة. كما قُبض لاحقًا على المحامي الذي كنا قد وكَّلناه للدفاع عنه، ربما لأنه كان من المتعاطفين مع حزب الوفد، إضافة إلى أنه قال في إحدى مرافعاته إنه يفتخر بأن والدي أستاذه، فسأله القاضي:

- أستاذك في إيه بالضبط؟

فرد عليه المحامي:

- أستاذي في المحاماة طبعًا.

ألم يشفع له هذا الرد أو لم يقتنع به القاضي فانتهى به الأمر بقضائه هو الآخر عددًا من السنوات في السجن؟ سمعت لاحقًا أنه هاجر بعد الإفراج عنه. أما المسجونون الآخرون، فقد تراوحت الأحكام عليهم فيما بين عشر سنوات، وأحكام أخرى أقل تشددًا، وبعض الأحكام بالبراءة. ومع ذلك، ظل الجميع في السجن إلى أن أُفرِج عنهم على دفعات متقاربة خلال شهر أبريل ١٩٦٤.

في أثناء فترة المحاكمات، كنا ننتقل من وقت إلى آخر إلى الإسكندرية للقاء أبي في المحكمة،

وكنا نقيم أيامها عند أحد أخوال والدتي، واسمه إيليه داسَّا، وكان لها خال آخر مُقيم بالإسكندرية بالقرب من شريط الترام في الأزاريطة. هذا الخال الأخير تزوج من امرأة غنية، شكلها قبيح، وكان كل همها في الحياة هو الامتثال للطريقة الأرستقراطية في تناول الطعام، يعني ثلاث شوك بأحجام مختلفة على يسار الطبق، وثلاث سكاكين مماثلة على اليمين، وثلاث معالق مختلفة أعلى الطبق. ولذا، كانت تُقدِّر والدي تقديرًا خاصًّا لأنه يعرف كيف يتعامل مع كل هذه الأدوات، أعتقد أنه اكتسب هذه المهارة خلال دراسته بفرنسا، خلافًا لخال والدتي الذي أظن أنه كان يتعمد إغاظة زوجته بتناول الطعام بيديه. وكانا يتعاركان طوال الوقت على الرغم من أن حاسة السمع لديها كانت شبه منعدمة، فكثيرًا ما كان يُوجِّه لها تعبيرًا استفزازيًّا وهي تجاوبه في اتجاه مختلف تمامًا. ومع ذلك، أتذكر بعض ملامح منزلهما وبصفة خاصة دورة المياه والاستحمام التي لفتت انتباهي كثيرًا وأعجبت بها، فقد كانت مُشمِسة وبوسع صالتنا في باب اللوق، وبها مقعد طويل (شيز لونج) للاسترخاء عليه بعد الحمَّام. أما الخال الأول إيليه فكان أعزب، وقد توفيت زوجته قبل سنوات ويعيش وحده في بيت بسيط، وكانت والدتي تفضِّل الإقامة عنده في فترات السفر إلى الإسكندرية.

أرادت والدتي في أثناء إحدى مرات وجودنا في الإسكندرية وفي فترة خلت من جلسات المحكمة، أن نذهب إلى المقابر اليهودية (التي أظن أنها كانت موجودة في حي الشاطبي) لزيارة قبر والدها. مع الأسف، بحثنا كثيرًا عن هذا القبر ولم نجده، وشعرتُ بمدى الإحباط الذي انتاب أمي، وإن كانت لم تتفوه بكلمة، فمشاعرها تظل مدفونة داخلها، ربما تنعكس في حالات من الأرق أو التوتر، ولكنها كانت تُخفيها. بمناسبة قبر جدها الذي لم نجده هو الآخر، تقصيتُ فيما بعد عن هوية الأُسَر القادمة إلى مصر من بلدان شمال أفريقيا، فتوصلت إلى أن أسرة جد أمي لوالدها كانت غالبًا من اليهود السَّفارديم، أي الذين طردتهم إسبانيا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولذا من الطبيعي أنهم لجأوا أولًا إلى المغرب الأقرب لهم جغرافيًّا، ثم استقر بعضهم فيما بعد في مصر. وعلمتُ مؤخرًا أن الأغنياء منهم استطاعوا أن يذهبوا إلى أوروبا الشرقية بينما توجه الأكثر فقرًا منهم إلى بلدان الجنوب، هم يختلفون عن اليهود الأشكِناز الذين ترجع أصولهم إلى بلدان أوروبا الشرقية، ويُقال عنهم إنهم أكثر تشددًا دينيًّا، وإن لهذا السبب حرصت إسرائيل على استقطاب أعداد كبيرة منهم، وبالتالي، لا تتعلق هذه التسميات بالضرورة بعقيدة دينية مختلفة، وإنما ترتبط أساسًا بالأرض التي يأتون منها، وربما ببعض التقاليد والمُعتقدات الخاصة بالبيئة التي نشأوا فيها، ولكن نظرًا إلى أنني لست ضليعة في شؤون الأديان، سأكتفي بهذا القدر من المعلومات التي فهمتها وفقًا لعلمي المتواضع ممن هم أكثر إلمامًا مني بها.

ذات مرة، كانت والدتي قد استنفدت رصيد إجازاتها في العمل فطلبت مني أن أسافر أنا وصديقتي سناء ابنة العامل السجين فؤاد عبد المنعم إلى الإسكندرية لنقف بجانب آبائنا في المحكمة، وطلبت من إحدى الزوجات المقيمة هناك استضافتنا فترة بقائنا بالإسكندرية، ثم سلَّمتني مبلغًا

بسيطًا من المال ليساعدنا على التصرف أنا وصديقتي في حالة الحاجة إليه. بعد اليوم الأول لعودتنا من المحكمة مع مُضيفتنا التي كانت تسكن في منزل بدور مرتفع بمقدار نصف متر أو أكثر قليلًا عن مستوى أرض الشارع، قررت هذه السيدة أن تخرج لقضاء بعض الأمور الخاصة، وما إن أوصدت باب الشقة وراءها حتى اكتشفنا أنها أغلقته بالمفتاح. فكرت أنا وصديقتي معًا: ماذا سنفعل لو تركتنا هنا ولم تعُد؟ أو ماذا إذا شبَّ حريق في الشقة أو أي أمر طارئ آخر؟ لم نفكر طويلًا ولم نتردد في تسلق سور الشرفة والتزحلق منها على الرصيف، ثم ركضنا بكل قوتنا نحو محطة سيدي جابر وعدنا إلى القاهرة في أول قطار وجدناه مُتاحًا. قد تبدو هذه القصة غريبة بالنسبة إلى بنتين في سن العاشرة أو أكبر قليلًا، لكن كان استياؤنا شديدًا من تصرُّف مضيفتنا التي لم تأبه حتى أن تنبهنا لإغلاق باب الشقة بالمفتاح أو لإمكانية الخروج منها لو حدث أي طارئ في أثناء وجودنا بمفردنا. وهكذا عدنا كما أتينا تمامًا، مثل البنات الكبيرات وربما غَلَبنا الميل إلى المغامرة أيضًا، فقد أصبحنا بالفعل بنات كبيرات قبل الأوان.

من اليمين: ماما، سناء صديقة الهروب الكبير من الإسكندرية، أنا، جدتي راشيل، في أحد الكازينوهات على ضفاف النيل عام ١٩٦٢

بعد انتهاء محاكمات الفوج الأول من الشيوعيين المصريين، علمنا أنه تم ترحيل هؤلاء إلى

أوردي ليمان أبو زعبل، وتشير كلمة «الأوردي» إلى السجن الذي يدخله محترفو الإجرام ومعتادوه، أي إلى المُلحَق التأديبي لسجن أبو زعبل. فتوجهنا في اليوم التالي لعودتنا إلى القاهرة؛ والدتي وأنا إلى ما كان يُسمى بمصلحة السجون (ولا أعلم إن كانت هذه الهيئة موجودة حتى الآن، أو من أين يتم الحصول على تصاريح الزيارات) حيث حصلنا على إذن للزيارة. وقد سمح مدير أمي لها بأخذ تصريح بالإجازة من العمل، بل أتاح لها استعمال سيارته الخاصة للذهاب إلى هناك. توجهنا مع السائق نحن الثلاثة؛ أمي وأخي مجاهد وأنا لزيارة أبي.

وبينما نحن ننتظر دورنا أمام البوابة، فُجِعنا بمشهد رهيب لامرأة خارجة توًّا من زيارتها لزوجها وهي تولول وتلطم على وجهها من صدمة ما رأته هناك، ولما سألناها عما يحدث قالت إننا سنعرف بعد قليل، ثم دخلنا إلى حوش واسع بنهايته جدار من السلك ذي الفتحات الضيقة وعلى جانبيه المتقابلين مقعدان من الحجر. كان والدي يجلس على أحد هذه المقاعد ويقف وراءه عسكري مُدجج بالسلاح، بينما جلسنا نحن الثلاثة على المقعد المقابل، وكان يقف بجانبنا عسكري آخر بالأسلحة نفسها كأننا أتينا لعمل انقلاب في السجن أو لاختطاف أبي.

وجه والدي كان متورمًا، فسألته والدتي إن كان سليمًا، فتح يديه اللتين بدتا مليئتين بالإصابات. حينئذ، بدأت عينا مجاهد تمتلئان بالدموع، فقرر أبي بصوت حاسم أن الزيارة انتهت ووقف ليعود إلى زنزانته. ربما أراد ألا يُبدي أي علامة للضعف سواء أمامنا أو أمام زبانيته. بدأ أبي يتحرك ليعود إلى زنزانته بينما رحنا نتجه نحو الخارج وثلاثتنا يبكي.

كان هناك مسجون من المسجونين العاديين، أي من غير السياسيين، ولكن سبقت إدانتهم في جناية على سبيل المثال مما يفسر وجوده في مُلحَق السجن هذا. وهو يكنس أرض الحوش، أخذ يقترب منا بكل حرص، ثم همس لنا بصوت منخفض:

- ربنا يكون في عونكم، ربنا يصبركم.

من الأرجح أن هؤلاء قد سمعوا أصوات التعذيب وعما يحدث في السجن وهو ما لم نكن على دراية به من قبل لانقطاع التواصل بعد نهاية محاكمة الدفعة الأولى من المعتقلين. حكى لنا أبي فيما بعد - والعهدة على الراوي - أن صغار السجَّانة كانوا يسكنون في عزبة قريبة من السجن، فلما سمعت زوجاتهم بما يحدث من تعذيب وحشي على أيدي أزواجهم امتنعن عن معاشرتهم. قد تكون هذه القصة من تأليف المسجونين بغرض رفع معنوياتهم والشعور بأن هناك من يتضامن إنسانيًّا معهم. أظن أننا لن نعرف أبدًا مدى صدق هذه القصة من عدمه.

بعد هذه الزيارة المريرة، علمنا من الأُسَر الأخرى أنه قد مُنع منعًا باتًّا منح أي تصريح بزيارات أخرى، وقد تكون زيارتنا ناتجة عن خطأ وقعت فيه مصلحة السجون والتي حدثت بعد يوم من مقتل الدكتور فريد حداد أو خلال فترة مقاربة، ولكنها كانت بلا شك مرحلة تعذيب مُبرح. لما

علمنا بخبر وفاة الدكتور فريد حداد، لم أدرك تمامًا حينها معنى ومفهوم الموت وأنه يعني أننا لن نرى ثانية أشخاصًا أحببناهم.

منذ فترة قريبة عرفت معلومات أكثر دقة حول يوم مقتل فريد حداد من المقال الوحيد الذي وجدته على الإنترنت للدكتور يوسف سميكة بعنوان «طبيب الغلابة الدكتور فريد حداد (١٩٢٢-١٩٥٩)»، والذي حرص كاتبه على إحياء ذكرى هذا الشهيد، فراح يبذل جهودًا متعددة للحصول على المصادر التي تُوثق ما سينشره، ولم يكتفِ بالوثائق القليلة المكتوبة، وإنما سافر أيضًا إلى بلدان مختلفة لمقابلة بعض الأشخاص من أهل الشهيد. ويقول فيه إن طبيب الغلابة استمر تعذيبه منذ لحظة وصوله إلى السجن لإجباره على الاعتراف بأنه روسي، بينما ظل هو يردد: «أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين».

ما قام به هذا الباحث عن الحقيقة يمثل إضافة محمودة ومهمة بديلة عن جو التعتيم الذي أحاط حياة الدكتور فريد حداد، وعطاءه، ونضاله من أجل الفقراء والمحتاجين، ثم الجريمة المأساوية التي قضت عليه. كما علمنا فيما بعد من والدي أنه رأى فريد حداد جثة هامدة وقد تهشمت جمجمته من الضرب المُبرح على رأسه الذي تَعرَّض له. تُوفي طبيب الغلابة يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٥٩. إنه يوم آخر من الأيام المؤلمة التي عشناها، والتي عاشتها بالذات أسرته الصغيرة المُكوَّنة من زوجته إيدا والتي كانت من أصول فلسطينية وأولاده الثلاثة: وديع، وسامي، والصغيرة منى الذين تعرفت عليهم في أثناء هذه الفترة، وقد مُنعوا من زيارة قبره الذي ظل مُشمَّعًا بالشمع الأحمر لفترة مع حراسة مُشدَّدة عليه حتى لا يتمكنوا من إثبات التعذيب الذي تعرَّض له.

كما قرأت في كتاب السيرة الذاتية لإدوارد سعيد عن بعض ملامح شخصية الدكتور فريد حداد الذي كان قد قسَّم حياته إلى ثلاثة أقسام: حياته الخاصة في مصر الجديدة مع أسرته حيث افتتح عيادة للمرضى الميسورين تُمكنه من سد احتياجات الحياة اليومية لأسرته وتوفير الإمكانيات اللازمة لمساعدة الغلابة، وعيادة شبرا المجانية من ناحية أخرى، ونشاطه السياسي السرِّي المتنامي في مكان مختلف تمامًا والذي ظل شديد الكتمان بشأنه. يضيف إدوارد سعيد أنه بحث لسنوات عما كان قد حدث بالفعل في السجن لهذا الرجل. وبعد عشرين سنة في أثناء زيارة لمصر، حالفه الحظ بلقاء أبو سيف يوسف الذي كان طوال فترة السجن السكرتير العام للحزب الشيوعي المصري المُوحَّد، والذي قُبض عليه في مارس ١٩٥٩ واقتيد إلى السجن الحربي على ما أتذكر حيث تَعرَّض إلى تعذيب وحشي مما سمعناه. وعلى الرغم من أن أبو سيف يوسف قال لإدوارد إنه لا يعلم أي أخبار عن أسرة حداد منذ هجرتها من مصر، فإنه أهدى إدوارد سعيد صورة زواج الدكتور فريد حداد وعروسه، فضمَّنها هذا الأخير ضمن كتابه عن سيرته الذاتية.

حينما أُفرج عن المسجونين الشيوعيين في منتصف ١٩٦٤، اتصلت إيدا التي ما زالت تحلم بأن ترى زوجها مع المُفرَج عنهم بأبي بعد خروجه من محبسه، خاصة أنها لم تتمكن من رؤيته ميتًا. فقال لها بكل صدق والألم يعتصر قلبه لأن الدكتور حداد كان عزيزًا عليه وصديقًا مُقرَّبًا:

- أنا بنفسي شفت فريد ميت يا إيدا، حاولي ما تعيشيش في حلم مستحيل.

بعدها بفترة وجيزة، قررت إيدا أن تترك البلاد هي وأطفالها، ولم أرَ هذه الأسرة بعدها.

والدي أيضًا تَعرَّض لتعذيب مرير في الفترة نفسها، ولكنه كان تعذيبًا من نوع آخر علمتُه بعد وفاته، ربما أجرؤ يومًا ما على الحديث عنه.

بعد بضعة أشهر، استشهد شهدي عطية الشافعي الذي كان قد أُلقي القبض عليه في الحملة الكبرى لأول يناير ١٩٥٩، ثم خضع للمحاكمة في مارس ١٩٦٠، ولما وصل إلى أوردي ليمان أبو زعبل هو و٤٧ آخرون، تعرضوا لتعذيب شديد حتى تُوفي على إثره في ١٥ يونيو ١٩٦٠.

ولكن فريد حداد وشهدي عطية لم يكونا الشهيدين الوحيدين لهذه الحملة، ففي مقال استرجع فيه الكاتب والأديب صنع الله إبراهيم ذكرياته، أحصى فيه اثني عشر شهيدًا آخرين، بعضهم مات بسبب التعذيب المبرح، والبعض الآخر بسبب الإهمال الطبي المُتعمَّد. كما أشار إلى حالة الاختفاء القسري لأحد المقبوض عليهم اسمه سيد أمين، فلم يعرف أحد مكان اعتقاله منذ مارس ١٩٥٩ حتى تَسلَّمت زوجته جثته في يناير ١٩٦٢. وربما كان هناك آخرون لم يُذكروا. قد يكون الشهيد شهدي عطية تمتع بشهرة دولية أوسع من الدكتور فريد حداد، وكان زملاؤه في السجن قد تمكنوا من تسريب خبر وظروف مصرعه خارج مصر، فقامت الدنيا ولم تقعد. وتم إحراج جمال عبد الناصر في أحد المحافل الدولية عندما وقف أعضاء برلمان دولة من أوروبا الشرقية إجلالًا لروح الشهيد المصري الذي تُوفي من التعذيب في السجن. وهو ما جعل رئيس الدولة المصرية يُسرع بالاتصال بالمسؤولين في القاهرة ويأمرهم بإيقاف التعذيب فورًا وبإجراء تحقيق بهذا الشأن للانتهاء من هذه

الفضائح على المستوى الدولي، وهو التحقيق الذي لم يتم حتى اليوم حسب علمي المحدود، وإن كان قد حدث فإنني أتمنى بشدة الحصول على النتائج التي تُوصِّل إليها.

بعد هذا الموقف تغيرت الأمور نوعًا ما، فتم منحنا أذون للزيارات في أوردي ليمان أبو زعبل، وأذكر أنني رأيت في أثناء إحدى هذه الزيارات عودة المسجونين من العمل في الجبل حيث كانوا يقومون بتكسير صخور البازلت وهم حفاة الأقدام، وهي الممارسات التي يمكن الرجوع إلى تفاصيلها - كما أتذكر - من كتاب طاهر عبد الحكيم بعنوان «الأقدام العارية» وربما من كتب أخرى قام آخرون بإصدارها فيما بعد، ويُطلب منهم جلوس القرفصاء أمام المسؤولين عن السجن كأحد أساليب الإذلال وكسر المعنويات.

علمت فيما بعد أن معظم الذين شاركوا في ممارسة هذا التعذيب ماتوا بطريقة عنيفة على يد بعض ضحاياهم من غير هؤلاء المسجونين السياسيين، أي الجنائيين وآخرين. وعندما حاولت استرجاع ظروف وفاة هؤلاء بالبحث على المواقع الإلكترونية، ظلت الصفحات التي وُضِعت فيها أسماؤهم تنغلق واحدة بعد الأخرى في وجهي، فمن الواضح أنه تم التعتيم على هذه المعلومات قصدًا حول هوياتهم وظروف موتهم.

طيلة فترة سجن أبي، حرصت والدتي على استكمال تربيتي الثقافية والفنية. فكانت تأخذني إلى مكتبة الشرق في شارع سليمان باشا (طلعت حرب حاليًّا) لنشتري منها بعض المؤلفات ذات الأسعار المناسبة لميزانية أسرتنا. اختفت هذه المكتبة منذ زمن وحل محلها بعض المحلات الأخرى لبيع الملابس والطعام وما على هذه الشاكلة لتتناسب مع متطلبات العصر العظيم. ومن هناك قرأت بعض الروائع المُترجَمة للأدب الروسي لأدباء مثل دوستويفسكي، وبوشكين، وتولستوي، وجوركي، وآخرين.

كنا نذهب أحيانًا إلى سور الأزبكية لالتقاط بعض الكتب المستعملة رخيصة الثمن - خاصة باللغة الفرنسية - التي تركها المهاجرون الأجانب وراءهم، فقد كنا أسرة فرانكوفونية في الأساس نتحدث فيما بيننا خليطًا من الفرنسية والعربية، وإن كان أبي يحرص دائمًا أن يتحدث إليَّ أنا وأخي بالعربية. كما كانت والدتي تحرص على تلبية ميلي إلى فن الباليه من خلال مشاهدة مجموعة متنوعة من الأفلام الروسية كانت تعرضها سينما أوديون في ذلك الحين.

قرأت أيضًا كتبًا كثيرة حول مقاومة الهجمة الهتلرية على الاتحاد السوفيتي وعلى بلدان أخرى مثل فرنسا والدانمارك، وحول المقاومة الشعبية داخل تلك البلدان والتي شارك فيها عديد من الوجوه النسائية، ولكنني لم أكن بعد على علم كافٍ بتاريخ بلدي. كذلك أذكر أنني قرأت في سن الثانية عشرة معظم كتابات بعض الوجوديين مثل جان بول سارتر، وألبير كامو، وبعضًا مما كتبته سيمون دي بوفوار. وللأمانة، لا أدَّعي أنني فهمت كل ما قرأته لهؤلاء الوجوديين، وأكثر ما أثر فيَّ من خلال قراءة لاحقة كان كتاب دي بوفوار «مذكرات فتاة مهذبة».

لما انتهت مرحلة أوردي ليمان أبو زعبل، وكل أشكال المهانة والألم التي صاحبته، نُقل الشيوعيون المصريون مرة أخرى إلى سجن المحاريق بالواحات الخارجة في نهايات ١٩٦٠. أتذكر - كأنه اليوم - أول زيارة لنا إليه. قيل لنا نحن وأُسرة أخرى إن هناك اتفاقًا مع سائق سيارة أجرة سيصطحبنا من مدينة أسيوط إلى الواحات الخارجة. سافرت أنا وأمي وأخي ليلًا بالقطار، ولما وصلنا إلى أسيوط كان هناك شخص ينتظرنا بالمحطة وأخذنا إلى فندق لننام في غرفة بها أربعة أسرَّة تتجول فوقها فلول من الحشرات، بينما تكتظ طرقات الفندق بأسرَّة ينام عليها بعض الرجال، مع دورة مياه وحيدة مشتركة لجميع النزلاء. صحونا مبكرًا ليس فقط بسبب الاشتياق للوصول إلى مقصدنا، ولكن أيضًا للهروب من هذا المكان الكابوسي. كنا قد أحضرنا معنا نحن والأُسرة الأخرى تموينًا قد يكفي لعدد كبير من المسجونين، فكنا على يقين بأن المسجونين الشيوعيين يمارسون - حينما تسمح ظروف الحبس - ما يسمونه بالحياة العامة، أي أن كل المُؤَن التي تصل إلى السجن هي ملك للجميع بالاتفاق على كيفية اقتسامها بواسطة لجنة تشرف على عدالة التوزيع. لا أعلم إذا كان هذا معمولًا به حتى الآن أو قد مُورس أو يُمارس مع نوعيات أخرى من المسجونين سواء السياسيين أو العاديين، ولكني أظن أن هناك دائمًا نوعًا من التضامن بين المساجين كيفما يُمارس.

لما بدأ طريق السفر، دخلنا في صحراء بدت لي ساحرة. فقد أحببت دائمًا المساحات الرملية وأفقها الواسع كأنه بحر أصفر من الحرير ليست له نهاية. ولكن هذه الصحراء كان لها شكل مميز بصخورها ذات الألوان الوردية، وتلالها الرملية، وما أسماه السائق بوادي البطيخ الذي كان عبارة عن زلط كبير الحجم داكن اللون يُذكِّرك بشكل ثمار البطيخ. ولكن سرعان ما انطفأ حماسنا حينما انفجرت العجلة الأولى في السيارة، ثم الثانية بعدها بقليل، فأصبحنا من دون أي بديل متاح للاستمرار في رحلتنا. سألت أمي السائق عما سيحدث لنا بعد هذا، فرد عليها بكل لامبالاة إننا ربما نقضي الليلة في هذه الصحراء إذا لم يمر أحد لنجدتنا. بدأ القلق يظهر على والدتي خوفًا من وجود حيوانات متوحشة أو ربما وحوش آدمية في هذه الصحراء، وظلت تُمطر السائق بالأسئلة التي يرد عليها بعدم اكتراث الشخص العالِم بأسرار الغيب، ولكن مع مواصلة عدم مبالاته العظيمة وصل الحد إلى اتهامها في لحظة بأنها هي التي حسدت السيارة وبالتالي هي السبب في المصيبة التي نحن فيها. إلى أن جاء الفرج على يد سائق سيارة أجرة أخرى ووافق على تسليف سائقنا إطارًا حتى المحاريق حيث يمكنه إصلاح الإطارات التي خُربت.

وصلنا أخيرًا إلى السجن، وقَدَّمنا تصاريح الزيارة للصُّول المسؤول عن استلامها، فإذا بنا نُبلغ بأن إدارة السجن تمنع إدخال أي مأكولات معنا. دخلنا والتقينا بوالدي وربما ببعض السجناء الآخرين لا أتذكرهم جيدًا، ولكنني أذكر منهم الأستاذ محمد سيد أحمد، وهو مفكر وكاتب مصري من أسرة أرستقراطية، ولكنه اختار أن ينضم إلى صفوف اليسار، كما فعل آخرون من هذه الطبقة

مثل إنجي أفلاطون، وإلهام سيف النصر مؤلف كتاب «في معتقل أبو زعبل»، وأحمد نبيل الهلالي الذي كان والده رئيسًا لآخر وزارة مصرية في عهد الملكية.

كان مجاهد قد أتى هذه المرة ليُعلِم أبي بأنه نال منحة دراسية في سويسرا وأنه على وشك السفر إليها. كاد أبي أن يبكي، ولكن ما كان له أن يمنع هذا القرار. الحقيقة أن مجاهد نجح تمامًا في هذه الرحلة التي تمتد من أكتوبر ١٩٦١ حتى يومنا هذا. فقد حصل على بكالوريوس الهندسة الفيزيائية، ثم على درجة الدكتوراه في العلوم التقنية. كما عمل مهندسًا فيزيائيًّا في الإلكترونيات الدقيقة، ومديرًا في هذا المجال منذ ١٩٨٥ في مجموعة سواتش لإنتاج الساعات، ثم عضوًا في مجلس إدارة هذه المجموعة لمدة عشر سنوات فيما بين ١٩٩٥ و٢٠٠٥، وأصبح أيضًا عضوًا في الأكاديمية السويسرية للعلوم التطبيقية.

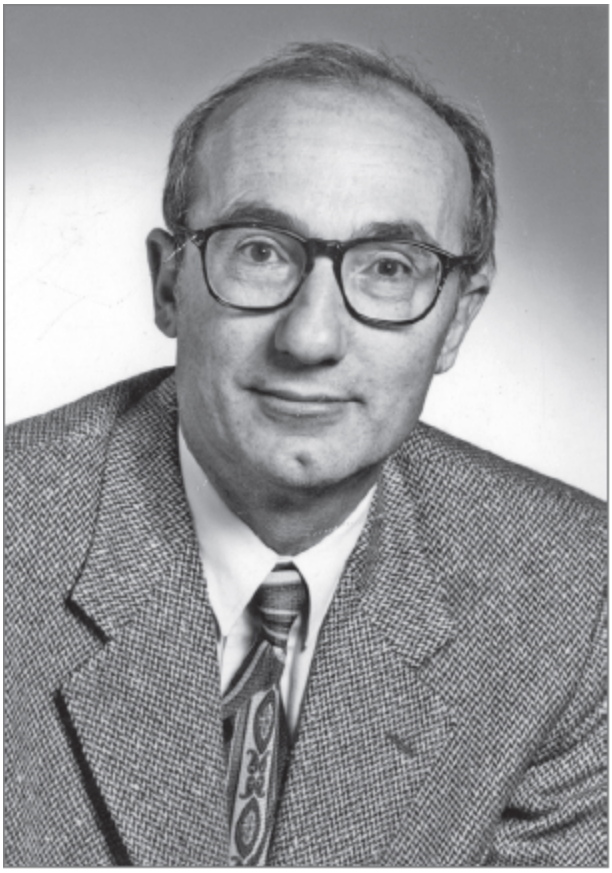

أخي مجاهد درويش في سويسرا

عدنا بعد ساعة من الزيارة في الواحات بعد هذه الرحلة الطويلة المليئة بالمغامرات والإحباط ومعنا كل ما أتينا به من تموين، حتى إن أخي كان يُهرج قائلًا لي:

- تخيلي إنني جالس الآن على قطعة كيكة.

وكنت أضحك على الرغم من النهاية التعيسة لأنني أحببت دومًا روح السخرية اللطيفة التي يتحلَّى بها مجاهد.

الزيارة التالية كانت أفضل نوعًا ما، فقد اتفقنا مع سائق آخر التقطنا عند محطة قطار أسيوط فجرًا، وذهبنا بدعوة منه إلى منزله حيث تناولت للمرة الأولى - والأخيرة - في حياتي بيضًا بالعجوة الذي أعجبني طعمه ولكنني لم أصادفه ثانية في أي من رحلاتي اللاحقة إلى الصعيد، وربما كان سبب كل هذا الإعجاب الجوع الذي استمر خلال الليلة الطويلة التي استغرقتها رحلة القطار.

انطلقنا في الساعات المبكرة من الصباح على الفور إلى الواحات ووصلنا إليها سريعًا من دون مشاكل في الطريق، فاستطعنا أن نظل فترة أطول في الزيارة، ونظرًا لأن ظروف السجن كانت قد تحسنت إلى حدٍّ ما، سمحوا لنا بإدخال بعض الطعام بشرط أن يقوم المسجون بتناوله فقط في أثناء الزيارة من دون إدخال الباقي إلى زملائه. وفي الزيارات التالية، أصبحت التسهيلات أكبر، إلى أن كانت الزيارة الثالثة عشرة من نصيبي وحدي لأن ظروف عمل أمي لم تسمح لها بالقدوم معي، وكان ذلك في بدايات عام ١٩٦٤.

حكى لنا أبي وزملاء آخرون له بعد خروجهم من السجن أنهم تمكنوا من القيام ببعض الأنشطة خلال فترة وجودهم بهذا السجن ومع تسهيل الممارسات المعمول بها من جانب إدارة السجن تنفيذًا غالبًا لأوامر عليا، نتج عنها: بناء مسرح في حوش السجن قُدِّمت عليه بعض عروض الماريونيت وعروض فنية أخرى، وإصدار مجلة حائط، وإطلاق إذاعة نشرة أخبار صباحية، وتكوين مكتبة وتنظيم ندوات لمناقشة الكتب وندوات عامة في موضوعات عديدة، وإجراء بعض الترجمات، وإقامة دورات تعليمية في مجالات متنوعة، وزراعة بعض الخضراوات لتحسين النظام الغذائي قليلًا، أي أنهم شكَّلوا ما يشبه الحياة الاجتماعية خارج السجن ولكنها تظل خلف الأسوار.

طوال الفترة الممتدة بين عودة السجناء إلى سجن المحاريق حتى الإفراج عنهم في منتصف ١٩٦٤، عشنا ما يزيد على أربع سنوات في ظروف مادية صعبة في منزلنا. فاضطرت والدتي إلى تأجير غرفتي لطالب من أصل يوناني يعيش والداه في أبو قرقاص بالصعيد جاء ليُكمِل دراسته في القاهرة، وبالتالي كان عليَّ اقتسام غرفة النوم الأخرى مع والدتي، وهو الأمر الذي لم يضايقني كثيرًا لتعلقي العميق بها.

في إحدى المرات، كنت في زيارة لعمتي نيللي المفضلة لديَّ هي وبنتاها نادية وجاكلين. وهذه العمة، هي وتوأمها إبراهيم هما آخر العنقود في أسرة أبي، وكانت هي الأقرب إلى أبي من بين جميع أشقائه، لأنها منفتحة على الحياة مثلما كانت حال والدتها وأبي. ولاحظتُ فيما بعد أن ابنة عمتي نادية تحمل نفس الجينات والتعطش إلى الاستمتاع بكل دقيقة في حياتها، على الرغم من أن الفارق الوحيد بين كل هؤلاء ووالدي كان استعداد يوسف درويش للاستغناء عن جميع المتع في

سبيل التمسك بمبادئه الفكرية والسياسية وبنضاله من أجل مستقبل أفضل لأبناء بلده.

عاشت نيللي سنوات طويلة في أمريكا هي وزوجها وبنتاهما نادية وجاكلين منذ عام ١٩٦٤ بعد أن غادر جميع أشقائها الآخرين مصر فيما عدا أبي. من الأمور الغريبة أن والدي كان يخلط باستمرار بين اسمي واسم عمتي، وكنت أعتقد أن ذلك يرجع إلى تعلقه العميق بشقيقته، وإنما اكتشفت أن الأمر نفسه يحدث مع أخي، فكان يناديني أحيانًا باسم ابنته جويل، ويناديها باسمي، وعلى الرغم من تأكيده لي أن ذلك لم يعد يحدث، فإنه اعترف لي بعد أن طَلبتُ منه بعض البيانات المُتعلقة بابنته بأن هذا الخلط بين الاسمين قد تكرر وهو يُجهِّز لي إجاباته عن أسئلتي.

عمتي المفضلة نيللي قبل سفرها من مصر عام ١٩٦٤، نادي هليوبوليس سبورتنج

كنت أحرص على زيارة عمتي نيللي دائمًا كلما سافرتُ إلى الولايات المتحدة حتى تُوفيت في نوفمبر ٢٠١٣، ولحقها بعد أقل من شهر توأمها، على الرغم من أنهما كانا يعيشان في مدن بعيدة تمامًا عن بعض (هي في سان فرانسيسكو وهو في بوسطن)، كما أن عمي لم يعلم بوفاة شقيقته التوأم قبل أن يُتوفى بدوره، ويبدو أن هذه الرابطة التي تتشكل بين التوائم من الأمور المنتشرة حتى إن كلًّا منهما يشعر بآلام الآخر عن بُعد. وأذكر أنه عندما علمت عمتي نيللي بوفاة أبي، اتصلت بي من أمريكا لتعزيتي بكل حنان الأمومة وتسألني عن تفاصيل الوفاة، وعبَّرت لي في إحدى زياراتي لها في بيت المسنين الذي قضت فيه آخر أيام حياتها بأمريكا عن اشتياقها وحنينها إليه. وللصدق، فإن ابنة عمتي نادية قد اعتنت بها حتى النهاية، وكانت تزورها يوميًّا لتلبية كل احتياجاتها، أما عضو الأسرة الآخر الذي اتصل بي من أمريكا لتعزيتي في وفاة والدي، فهو دافيد ابن عمي ليون الذي التقيت به فيما بعد خلال أول رحلة لي إلى الولايات المتحدة وذكَّرني شكله كثيرًا بأخي مجاهد. وعمومًا، يتميز معظم المنتمين لأسرة موسى درويش - وربما في فروع أخرى من الأسرة نفسها - بوجود ما يُسمى بـ«طابع الحُسن» على ذقنهم، أي بختم العائلة.

وعودة إلى قصتي الأصلية، قررت أن أقضي هذه الليلة في أثناء فترة سجن أبي في منزل عمتي. ولكن في الساعة العاشرة مساء، اتصلتُ بأمي تلفونيًّا في حالة من القلق البالغ لأطلب منها أن تأتي إلى بيت عمتي في مصر الجديدة وتعيدني إلى بيتنا في باب اللوق. وعلى الرغم من أننا لم نكن نملك سيارة بطبيعة الحال في هذا الوقت، لم تتردد والدتي ثانية في الحضور في أسرع وقت باستعمال المواصلات العامة، حتى لا أشعر بأنني كالطفل اليتيم الذي ليس له أهل يأوي إليهم. وقد رأيت القلق بالشعور نفسه عند ابنتي تجاه جدتها من ناحيتي، وعند حفيدتي تجاه والدتها في بعض الحالات، وإن لم يُصرِّح أحد منا بهذا القلق بطريقة واضحة، أو لم ندركه بوعي تام.

في إحدى المرات التي قضيتها عند عمتي، أقنعتني ابنة عمتي الشقية نادية بأن أقوم بتغطية خروجها ليلًا للحاق بأحد جيرانها، وكان صديقها الحميم، في أثناء غياب والديها خارج المنزل. كنت صغيرة، غالبًا تحت الثانية عشرة، ولكنني وافقت بكل حماس. فقد بدأت أستوعب بطريقة أفضل معنى الاشتياق إلى شخص من الجنس الآخر، على الرغم من أنني لم تسبق لي ممارسة هذا الشعور، ولكنه أحد مظاهر الدخول المبكر في سن المراهقة، ولو أني أعتقد - وفقًا لما أراه حولي اليوم - أن هذه المرحلة تأتي هذه الأيام عند البنات والبنين بصورة مبكرة عن ذي قبل، فأسمع عن بنات وأولاد صغار يشيرون إلى صديقهن أو صديقتهم الأنتيم، ولا أعلم حقيقة البُعد العملي الذي يحمله هذا التعبير.

ابنة عمتي الشقية نادية صالح-هارتمان

وعدتني نادية بأنها لن تتأخر، وصدَّقتها بالطبع لأنها كانت في هذه الفترة من عُمري هي المثل الأعلى في حياتي، وهي التي علمتني فيما بعد أمورًا كثيرة عن الحياة وكنا - وما زلنا - نتقاسم أسرارنا. عمومًا، بعد حين وقبل أن تعود نادية، دق عليَّ الجرس، وكانت إحدى جارات عمتي وصديقة لها، فحاولت أن تدخل إلى المنزل، وما كان مني إلا أن وقفت أمامها كالبلهاء أفرد ذراعيَّ لمنعها من الدخول حتى لا تكتشف الحيلة، ولكن هيهات! فهي كشفت الأمر تمامًا، ولكنني لا أتذكر إن كانت أخبرت عمتي وزوجها في حينه، أو في أي وقت لاحق، أو ظلت مُتسترة على الأمر بعد هذه الواقعة.

خلال الفترة نفسها، كانت جدتي لأبي المحبة للحياة كما كان أبي تمامًا، تؤجِّر عِشَّة كل عام في رأس البر تقضي فيها ما يقرب من شهرين. وعلى ما أتذكر أنها دعتني غالبًا عام ١٩٦٣ لقضاء أسبوعين معها هناك. فكنت أذهب للاستحمام في منطقة الجربي التي لا تبعُد كثيرًا عن التقاء نهر النيل بالبحر الأبيض المتوسط، وبالتالي كانت مياهه عذبة إلى حدٍّ ما؛ قابلت هناك أطفال فريد حداد. كل ذكرياتي عن هذا اليوم أننا ونحن في الماء، كان هناك رجل كبير في السن - أو هكذا بدا لي كذلك حينذاك - يعاكسنا نحن الأطفال، فبدأت منى الصغيرة، ابنة الدكتور فريد حداد، السخرية منه بالتوجه إليه بصوت مرتفع قائلة:

- يا رجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز.

ضحكتُ كثيرًا من هذه العبارة التي أعجبتني وإن لم أستعملها شخصيًّا تجاه أحد في حياتي بعد ذلك. في خطاب مُرسل من رأس البر خلال هذا الصيف كتبتُ:

مامتي الحبيبة،

أشتاق إليكِ إلى درجة لا تتخيلينها، خاصة في وقت أشعر فيه بالتعب، وأنت تعلمين كم أحتاج إليك في هذه الأوقات. لا تقلقي من كلمة تعب، المسألة فقط هي أنني تعرضت كثيرًا للشمس اليوم في الجربي واحترق جلدي على الرغم من كل الاحتياطات، لكن ولا يهمك أعيش وآخد غيرها.

الواقع أنني عانيت طوال حياتي من التعرُّض للشمس، فكم من حروق أصابتني مصحوبة بفقاقيع مياه مؤلمة، ويُذكِّرني هذا بأننا كنا نُصيِّف في الإسكندرية خلال إحدى سنوات طفولتي، وبعد يوم طويل من الاستحمام والبَلبَطة في البحر، التصق الفستان الذي أرتديه بجلدي بسبب هذه الفقاقيع اللعينة، فاضطرت والدتي إلى نزعه نزعًا. بعد سنين طويلة، لم أعد أتعرض للشمس بتاتًا، وكنت لا أطيق حرارة الجو، على الرغم من أنني وُلدت في أحد الشهور الصيفية.

كانت جدتي تجهز لنا الكابوريا والبط. بمناسبة الكابوريا، أتذكر أننا كنا وأنا أصغر سنًّا في مَصِيف المندرة بالإسكندرية، وكان معنا مجاهد. ونظرًا لأنها ساحلية وتعشق المأكولات البحرية، كانت أمي تُحضِّر لنا الكابوريا. ولأننا بالقرب من البحر، كانت تأتي لنا الكابوريا الطازجة وغالبًا لا تزال حية، وفجأة أمسكت إحداها بكماشاتها بأصابع أمي، وماما تصرخ من الألم ولا أحد يستطيع الاقتراب منها لكي يُخلِّصها، حتى أم زكية كانت تصرخ هي الأخرى وتلطم على وجهها من دون أن تستطيع مساعدتها، وظلت بعدها ماما رابطة أصابعها لمدة ثلاثة أيام، لكن هذا لم يمنعنا من التهام الكابوريا ومن التندر بعدها بسنوات على هذه الواقعة، حتى ماما كانت تنهمر دموعها من كثرة الضحك على هذه الذكرى.

بدأت جدتي تدللني منذ رحلة رأس البر، حتى إنها بعد عودتها إلى القاهرة أهدت لي تباعًا عدة هدايا صغيرة من الذهب، غالبًا ما كانت تُحضرِها من بقايا ما تركه لها جدي أو من أحد محلات الذهب الخاصة بأزواج عماتي مارسيل وإيفون. لكن يبدو أن جسدي كان نفورًا من الذهب، فضاعت مني كل هذه الهدايا، وأصبحت لا أتحلَّى بالذهب، وفضَّلتُ الفضة ولونها. بعدما أصبحت مراهقة، بدأتُ في شراء منتجات من الفضة منها الحلقان والأساور التي يُعرِّفني بها أصدقائي، ويكتشفون قرب وجودي وسطهم من سماع صوت صلصلة الأساور التي ظللت أرتديها ليل نهار، إلى أن حدثت الظاهرة نفسها من نفور الجسد مرة أخرى بعد سنوات، فبدأ لون هذه الحلي يميل إلى اللون الأسود بعد أن كان لامعًا دومًا، ويُسبب لي نوعًا من الحساسية في الجلد حتى خلعتها جميعًا وانتهى بي الأمر أن أهديت كل مقتنياتي من الفضة إلى ابنتي وحفيدتي التي كانت معجبة بها

وتنجذب عيناها وأصابعها الصغيرة نحوها منذ ولادتها.

بعد رحيلي مباشرة من رأس البر إلى القاهرة، تعرضت جدتي لحادث حينما صدمتها سيارة مسرعة أدت إلى كسر ساقها وإصابة بالغة في ذراعها. فسافرت عمتي نيللي وزوجها على الفور إلى جدتي ونجحا في نقلها إلى بيتهما بمصر الجديدة وقد ظلت قعيدة الفراش فيه لمدة عام تقريبًا. ولما تعافت من إصاباتها، استطاعت عمتي وأسرتها الاستعداد للسفر إلى أمريكا الذي تم خلال عام ١٩٦٤. وأصبح المكان الوحيد المتاح أمامها هو بيتنا في باب اللوق، فعاشت معنا حتى عام ١٩٦٨، وقد تُوفيت في أمريكا عام ١٩٧٧. عندنا، تصاحبت جدتي نوننا درويش (كما كنا نُسمي الجدَّات في أسرتنا) على جارتنا مدام ماري جودة، وكانتا تلتقيان يوميًّا في إحدى الشقتين على قهوة الصباح التي كانت تُعدها إحداهما بالتبادل على السبرتاية بعد طحن حبات البن المُحمَّصة أولًا بأول. كما أتذكر لجدتي في فترة بقائها معنا أنها أحضرت معها جهازًا للتقطير، أشبه بأجهزة المعامل، تقوم خلال موسم الربيع بتقطير الورد، والزهر. وكانت هذه الرائحة تدغدغ أنفي منذ الخروج من مصعد العمارة حتى الوصول إلى باب الشقة، كما جاءت جدتي بقُلَّة تملؤها بالماء وتضيف إليها بعضًا من الزهر أو الورد كما اعتادت أن تفعل طوال عمرها؛ وأصبح أبي - بعد خروجه من السجن - يُفضِّل الشرب من هذه المياه عن المياه المُثلَّجة من الثلاجة.

على الرغم من تبعات المعاناة بسبب الحادثة، والتي تمثلت في العرج، وفي بعض الآلام التي تعانيها في ذراعها خاصة مع برودة الجو، ظلت هذه المُحِبة للحياة تطالب باستمرار بالذهاب إلى السينما وبخروجات أخرى للتسلية. وفي إحدى هذه المرات ونحن ذاهبات مشيًا، وقعت على الأرض وسط شريط ترام باب اللوق في شارع التحرير، واضطررت إلى إعادتها على قدميها سريعًا قبل أن يصل الترام على الرغم من أن وزنها كان يزيد على وزني بمقدار ما لا يقل عن الضعف. لديَّ ذكريات ظريفة من الحكي معها على الرغم من أنها قالت لي مرة:

- ابني يوسف أقل واحد أحبه من أولادي.

- ليه يا نوننا؟

- علشان أبوكي أسلم وكمان شيوعي.

لكن هذا لم يمنعها قبل إحدى زياراتنا الأخيرة له أن تجهز كعكًا بالعجوة والسكر الناعم مُشترِطة أن يكون له وحده دونًا عن زملائه الشيوعيين الآخرين.

جدتي راشيل كوهين والدة أبي، بيت يوسف الجندي

أتذكر أيضًا أن تزامَن في بداية الستينيات دخول الإرسال التلفزيوني إلى مصر للمرة الأولى. ومن حظي أن أمي كانت تعمل في شركة فيليبس التي تنتج أجهزة التلفزيون، فتمكنت من شراء جهاز صغير بنظام التقسيط. كان كل الإرسال في هذه الفترة أبيض وأسود ولم تدخل الألوان إلا في مرحلة لاحقة. أبهرني ذلك الاختراع الجديد بعد أن ظللت طيلة السنوات السابقة أكتفي بالاستماع إلى بعض المسلسلات الإذاعية، وبصفة خاصة مسلسل ألف ليلة وليلة بالصوت المميز للفنانة زوزو نبيل. وكانت لوالدتي زميلة عمل اسمها هانم تقدم حلقة أسبوعية في البرنامج الألماني للإذاعة المصرية، فأجلس أمام الراديو وأنا صغيرة وأهمس لها: «أنا هنا يا هانم» متخيلة أنها تسمعني. أصبحت أجلس ساعات طوالًا أمام الجهاز الجديد لألتهم كل ما يقدمه، بما في ذلك الأخبار السياسية مثل الوحدة بين مصر وسوريا فيما سُمي بالجمهورية العربية المتحدة والتي انتهت بانفصال سوريا عن هذه الوحدة في عام ١٩٦١، وميثاق العمل الوطني في ١٩٦٢، وأحداث سياسية أخرى إلى جانب المسلسلات، والأفلام، والبرامج الثرية التي قدمتها مذيعات شهيرات مثل

ليلى رستم، وسلوى حجازي، وأخريات وآخرون.

كانت قراءاتي الكثيرة قد حمستني بشدة للنضال الشيوعي، ففي إحدى الزيارات إلى الواحات طلبت من أبي أن يسأل الأستاذ أبو سيف يوسف - سكرتير الحزب الشيوعي المصري المُوحَّد آنذاك - عن سِن قبول الانضمام إلى الحزب الشيوعي المصري. الواقع أن أبي لم يجاوبني وقتها عن هذا السؤال. فقد كانت تدور في هذه الأثناء مفاوضات داخل السجن لحل الحزب. أبي وآخرون كانوا ضد الحل، ولكنهم شكَّلوا في نهاية الأمر أقلية غير قادرة على إيقاف القرار، فحتى الأصدقاء المقربون إليه انحازوا إلى هذا الاختيار إما بسبب تأثير الطرف الآخر عليهم، أو نتيجة وعود بتوفير فرص عمل ومسؤوليات سياسية لهم بعد الحصول على الإفراج، أو لمجرد الإجهاد من كل ما رأوه من عذاب، وفقدان الأحباء، والحرمان، أضف إلى هذه الأسباب المُحتمَلة سعي الاتحاد السوفيتي إلى سد الفجوة مع النظام المصري، أو أي سبب آخر. أنا لا ألوم أحدًا، ولكن هناك من ادَّعوا أن النظام قد تغير، وأنه يسعى إلى تطبيق الاشتراكية في مصر، ونشروا الوعود التي اتضح أنها كانت كاذبة ولم تنطبق إلا على قلة من المختارين بدقة، غالبًا ممن أطلقوا وتبنوا الدعاية لأهمية حل الحزب ودافعوا عن هذا الخيار ولكن بالتأكيد ليس لصالح الجميع، وبصفة خاصة ليس للسجناء من العمال.

بعد فترة من الجفاء بين مصر والاتحاد السوفيتي، بدأت العلاقات تتخذ منحى أكثر اعتدالًا، خاصة أن الاتحاد السوفيتي كان قد التزم بالمساهمة الفعَّالة في بناء السد العالي. وبالفعل، حظيت والدتي بفرصة لزيارة موقع بناء السد العالي في بداياته عام ١٩٦٢ مع مجموعة من زملائها في العمل، وعادت شديدة الحماس من تجربة تلك الرحلة.

ماما في زيارة إلى السد العالي عند بداية بنائه

سمعنا لاحقًا أن هناك ترتيبات لزيارة جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي سوف تليها زيارة لنيكيتا خروشوف، رئيس الاتحاد السوفيتي حينذاك، إلى مصر ومن المُتوقع أن تتم خلال شهر أبريل ١٩٦٤. تمنينا جميعًا أن يعني هذا انفراجة ما في وضع الشيوعيين المصريين، وربما الإفراج عنهم، ولكننا كنا دائمًا حريصين على عدم المبالغة في حجم أحلامنا تجنبًا لخيبة الأمل التي قد تلحق بنا فيما بعد. ثم بدأت تنتشر شائعات أن الرئيس السوفيتي طالب بطريقة مُلحَّة بالإفراج عن الشيوعيين المصريين، وبدأت هذه العملية بالفعل قبل ساعات من وصول خروشوف إلى مصر، ولكنها اتسمت بالتباطؤ الشديد وبحادث مأساوي أدَّى إلى وقوع الشهيد الشيوعي الأخير لهذه المرحلة بسجن المحاريق واسمه لويس إسحق. كان شابًّا من محافظة المنيا لعب فيها دورًا مهمًّا في بناء وجود حزبي لصالح تنظيم طليعة العمال والفلاحين، وظل مناضلًا نشطًا طوال حياته القصيرة التي استمرت سبعة وثلاثين عامًا فقط (كما في حالة الدكتور فريد حداد). وكان في أثناء مفاوضات حل الحزب الشيوعي من ضمن الذين عارضوا بقوة هذه الفكرة، وربما يكون هذا هو السبب الحقيقي في موته المُفجِع. فقد سالت دماؤه برصاصة من أحد الضباط استُشهد على إثرها يوم ٤ أبريل ١٩٦٤، وقيل حينئذ إن الرصاصة انطلقت بالخطأ. بعد هذه الحادثة، نُقل أبي إلى سجن أسيوط، وآخرون إلى سجون أخرى في محافظات متفرقة، مما أدَّى إلى تأخير الإفراج الفعلي

لما بعد وصول خروشوف لمصر. ثم نُقل والدي إلى قسم عابدين الذي توجهنا إليه لاستلامه بعد سلسلة من الإجراءات المُطوَّلة.

لما عاد أبي إلى منزلنا كان قد فقد كثيرًا من وزنه، كما فقد كل أسنانه، وبحاجة إلى جرعة مكثفة من العلاج العام. لكن الأهم من هذا أن تدهورت حالته النفسية مع انتصار الجناح المؤيد لحل الحزب. وكان يدور كالحيوان السجين في أرجاء البيت ويخبط رأسه في الحائط ويتشاجر مع أمي حينما تطلب منه الكف عن ممارسته السياسة التي أهلكته وأهلكتها هي الأخرى، حتى إنه اعترف لي بعد سنوات بأنه كان يفكر وقتها في الطلاق منها بسبب هذا المطلب.

أما الأمر الآخر الذي كان يشغله ويجذبه كثيرًا خلال فترة ما بعد الخروج من السجن، فهو جهاز التلفزيون الذي يظل جالسًا أمامه. ومن الأمور الظريفة التي حدثت أن والدي ووالدتي ذهبا بعد خروج والدي من السجن في رحلة استجمام إلى مرسى مطروح خلال صيف ١٩٦٤، وهناك وهو سائر في الشارع لمح شخصًا له وجه مألوف ويعرفه بكل تأكيد من سنوات الحبس، فتوجه إليه وأخذه بالأحضان، وكان رد فعل الآخر مُتحضرًا للغاية فلم يبتعد عنه، وصافحه كأنما كانوا معارف منذ زمن طويل؛ ثم اكتشف أبي أنه المذيع التلفزيوني عبد الرحمن علي الذي أصبح صديقًا له بعد هذه الحادثة. فكل الناس الذين رآهم على مدى خمس سنوات ونصف كانوا أساسًا زملاءه في السجن، فلما رأى هذا الوجه المألوف ظن أنه أحد زملائه ولم يخطر على باله أنه عرفه من خلال رؤيته على الشاشة الصغيرة فقط.

وفي ختام هذه المرحلة التي حملت أكوامًا مكثفة من الهموم، زاد عليها حزن أبي على مصير الحركة الثانية للمد الشيوعي في مصر (بعد الحزب الشيوعي المصري الأول الذي تَشكل في يناير ١٩٢٢ وحلَّه سعد زغلول في عام ١٩٢٤) التي امتدت من نهاية الثلاثينيات وتُوِّجت بتأسيس الحزب الشيوعي الموحد في عام ١٩٥٨ والذي تم الإعلان عن حلِّه في ٢٠ يناير ١٩٦٥. أصدر جمال عبد الناصر قرارًا بالعفو الشامل عن الشيوعيين المصريين خلال شهر أبريل من سنة ١٩٦٥.

سنوات المراهقة وبدايات النضج

١٩٦٥-١٩٧٥

بدأت سنوات الانطلاق إلى المراهقة الفعلية والتجرؤ على الخوض في الممنوعات؛ ففي يوم كان أبي ينوي الخروج لقضاء بعض المشاوير وقال لي إنه ترك علبة السجائر بالمنزل وإياي أن أقترب منها. كان هذا التحذير بمثابة المُحفِّز الذي دفعني إلى الدخول في عالم المدخنين. فكان أبي مدخنًا شرهًا؛ يدخن النيكوتين بجميع أشكاله: السيجارة، السيجار، البايب (الغليون)، والشيشة، وربما قد ورثت بعضًا من جيناته في هذا المجال. لكن ما أتذكره عن هذا اليوم أنني قررت إشعال سيجارة وظللت أسعل حتى كاد نفسي أن يتوقف فاستلقيت على السرير لعلني أسترد أنفاسي، لكن هذه التجربة لم تمنعني من تكرارها والاستمرار في هذه العادة حتى اليوم. فأصبحتُ أنا وصديقات في المدرسة أو أخريات من خارجها نذهب إلى عم مرسي صاحب محل البقالة الكائن بالقرب من منزلنا لنشتري بتجميع مصروفنا المحدود علبة سجائر كليوباترا كانت متوفرة في هذه الفترة بعبوات تحتوي على عشر سجائر فقط، ثم نذهب إلى السينما التي كانت تمثل المكان الآمن لنا لتدخينها. فكانت السينمات في مصر تسمح آنذاك بالتدخين داخل قاعات العرض. كما أتذكر أنني كنت أدخل إلى دورة المياه في بيتنا، وأغلق الباب، ثم أفتح الشرَّاعة الصغيرة المطلة على بئر المصعد، وأدخن سيجارة معتقدة أن ذلك سوف يبدد رائحة الدخان. وفي يوم بعد خروجي من الحمَّام، وجدت أمي جالسة أمام التلفزيون، فاقتربتُ منها والتصقتُ بها، فلما سألتها لو كانت جلستي تضايقها، كان ردها:

- لأ، لكن ريحة السجاير هي اللي مضايقاني.

وهكذا تبيَّن لي أنها اكتشفت - ربما منذ فترة - ما كنت أقوم به في دورة المياه، مُتخيلة أن لا أحد في المنزل يدرك ما أفعله. أصبح التدخين بالنسبة إليَّ علامة من علامات الاقتراب من سن امتلاك البطاقة الشخصية المُرادِفة للرقم القومي الآن. كنت أتمنى منذ سنوات الوصول سريعًا إلى سن الحصول على بطاقة الهوية الخاصة بي التي تعني أنني كبرت. ولما وصلت إلى هذه السن، لم يتغير شيء بداخلي بل بقيت البنت نفسها، وربما حتى الآن بعد تجاوز سن السبعين.

بعد خروج والدي من السجن، اكتشفت أن لي أقارب آخرين من ناحيته. فقد جاء اثنان إلى بيتنا لتهنئة جدتي على عودة ابنها سالمًا بعد سنوات الحرمان من الحرية، هما: يوسف درويش ابن عم أبي (يبدو أن اسم يوسف انتشر في بعض فروع أسرة درويش، غالبًا نسبة إلى اسم الجد الكبير يوسف فرج درويش) وزوجته ماري القدسي. كانا من المقيمين في حارة اليهود ولو أنني لم أزرهما قَطُّ هناك، وأندم على ذلك لأنني علمت أن طابع التعايش الأصلي كان سائدًا وشائعًا حينذاك بين جميع الديانات، وقد اندثر الآن. يوسف درويش كان شخصًا شديد الأدب والخجل، لا أتذكره

جيدًا، ولكن هكذا كان انطباعي عنه. أما زوجته ماري، فكانت أشبه بفلاحة روسية من أوديسا بضفيرتين من الشعر الأبيض ملفوفتين خلف خلاف حول رأسها. تساءلت كثيرًا لماذا تحمل هذا الاسم، وهل هذا يعني أنها من أصول فلسطينية، أم كان هذا اللقب هو لقب أسرتها الذي ما زالت تحمله؟ ولكن كانت تعجبني طريقتها في الكلام البلدي والتصرف على أنها سيدة من أصول بسيطة لا تتطلع للحصول على أي مزايا سوى الالتقاء بأقرباء قد تعتبرهم أعزاء. تظل ذكرى هذه الفلاحة من أوديسا كأقرب الصور إلى قلبي. أعتقد أن هذا الثنائي قد هاجر فيما بعد، غالبًا إلى إسرائيل التي لجأ إليها معظم اليهود المصريين الذين لم يمتلكوا إمكانيات الهجرة إلى بلدان أخرى.

لما وصلت إلى المرحلة الثانوية من الدراسة، كونت صداقات مع أولاد وبنات من مدرستنا. فبدأت تصلني دعوات إلى حفلات رقص مشتركة في بيوت بعض الأصدقاء، وكنت ألبيها كلما سُمح لي. فلم يشك أبواي قَطُّ في سلوكي، وعادة ما كانا يوافقان على ذهابي إليها. كنا نستقبل أيضًا في منزلنا كثيرًا من الطالبات والطلاب المنتمين إلى مدرسة ليسيه باب اللوق الذين تعرفوا على أبوَي، وخاصة على طعام أمي اللذيذ وعلى حديث أبي الشائق والمُنتبِه في الوقت نفسه إلى التعرف على تطلعات الشباب، والأفكار المتداولة في أوساطهم.

على الرغم من ميولي الأدبية، قررت الالتحاق بشعبة العلوم بالثانوية العامة، ورأيي اليوم أنه كان خطأ جسيمًا، فلم أفلح إطلاقًا في كل ما هو علمي وحصلت على مجموع اقترب من ٥٦٪ في الثانوية العامة، أي أيام الرُّخص! ولكنه سمح لي ولبنات أخريات بالدراسة خلال السنتين الثانية والثالثة الثانوية بالالتحاق بجناح البنين بالمدرسة والاختلاط بهم. وكانت تجربة جديدة تمامًا لي، بعدما اقتصرت لقاءاتنا معهم بطريقة خاطفة ساعة انتهاء دوام الدراسة على ناصية شارعي يوسف الجندي ومحمد محمود بالقرب من المدرسة، وما زلت حتى اليوم أرى أولاد وبنات مدرستنا يتقابلون بالطريقة نفسها كلما اقتربت من منطقة بيتنا القديم.

غالبًا في ثالثة ثانوي، جاءنا مُدرس فرنسي يتعامل بعنصرية شديدة تجاه كل ما هو مصري، وفي يوم، شتم الفصل بأكمله ونعتنا بالصراصير، فإذا بزميلنا فؤاد سرهنك ذي الأصول التركية، يقف ويقول له:

- لما كان أجدادكم ما زالوا قرودًا تتسلق الأشجار، كان أجدادنا نحن قد غزوا أوروبا بأكملها.

اختفى هذا المدرس بعد هذه الواقعة، وعلمنا بعد ذلك أنه انتقل إلى بلده حيث يمكنه ممارسة عنصريته بعيدًا عنا، ولو أن هذا من المفترض أنه لم يعد ممكنًا هناك بهذه السهولة.

أتذكر أيضًا أن في أيام امتحانات الثانوية العامة كان مسموحًا لنا بالحضور بملابسنا الخاصة وعدم الالتزام بالزي المدرسي، وكان ذلك في شهر مايو أو يونيو ١٩٦٦، وكان المشرفون على سير الامتحانات من خارج هيئة تدريس المدرسة. وذات يوم كنت أرتدي فيه فستانًا بفتحة دائرية

غير عميقة من ناحية الصدر ومن دون أكمام، نادتني مشرفة ووبختني على لبسي. فلما أجبتها «أن الدنيا حر»، قالت لي:

- وانت مش خايفة من نار جهنم؟

لا أتذكر أنني رددت على هذا الاستفزاز، فكانت هذه هي المرة الأولى التي أصطدم فيها بتلك النوعية من التفكير الذي أتى مبكرًا جدًّا إلى مصر ومثَّل في إدراكي اللاحق الإرهاصات الأولى لانتشار الفكر الأصولي في بلدنا، أو ربما كان موجودًا ولكن بطريقة مستترة فيما قبل. هناك أيضًا الظروف المحيطة بي وبنشأتي التي حالت إلى درجة كبيرة دون احتكاكي بتلك المعتقدات فيما سبق. ظلت هذه الخبرة تطاردني إلى أن برزت على السطح مظاهر مماثلة أو حتى أكثر حدة من التعنت خلال حقبة السبعينيات. فمعظم النساء اللاتي رأيتهن حتى ذلك الحين كن سافرات، يرتدين ملابس أنيقة ولا يضايقهن أحد. أما في الفترة التالية، فقد بدأت النساء السافرات - وأنا منهن - يحرصن على إطالة الأكمام حتى وصلت إلى أصابع اليد لتفادي التعرُّض لأي أذى أو استفزاز ممن أصبحوا يملأون الشوارع ويمارسون أعمالًا من العنف ضد السافرات، مثل إلقاء المياه الحارقة على ملابسهن إلى جانب الإهانات اللفظية، وأشكال أخرى من الهجوم تصاعدت بشدة في السنوات التالية، وخاصة بعد فترة حصول الإخوان المسلمين على الحكم.

بدأتُ في نهاية الستينيات التقرُّب من بعض الفتيات من خارج مدرستنا منهن بصفة خاصة عصمت المنياوي وليلى ممتاز. لا أتذكر في الواقع كيف تعارفنا، ولكنني كنت أرى عصمت من بعيد في مدرستي ولكننا لم نكن صديقتين، ثم اختفت وعرفت فيما بعد أنها انتقلت لتلتحق بمدرسة ليسيه المعادي حيث التقت بليلى. تواصلنا سريعًا بطريقة جيدة إلى أن فرَّقتنا مصائرنا الشخصية إلى حد ما مع الوقت ولكنها بقيت علاقة حية وإن لم تكن يومية كما كانت في الماضي. ففي السابق كنا نلتقي بانتظام وبطريقة شبه يومية في أحد بيوتنا، إما عند ليلى في بيت أسرتها بالمعادي، أو عند عصمت في بيت جدتها بشارع الجيش، أو في بيتنا في شارع يوسف الجندي بباب اللوق. أبواي أحبا البنتين كثيرًا واعتبراهما من بناتهما وحضرا حفل زفاف ليلى التي خرجت عروسًا من بيتهما، أما عصمت، فكان أبي يسميها «حلويات». تُوفيت عصمت مؤخرًا بمرض السرطان الذي انتشر في كامل جسدها، واتصلت بي إحدى بناتها لتُبلغني بالأمر وإن والدتها سوف تفرح من مجيئي لزيارتها. وقد لبيت هذا الطلب على الفور لحبي العميق الذي ظل موجودًا طوال السنين تجاه عصمت، وما زال. لما ذهبت إليها في مستشفى وادي النيل، وقبَّلتها، قلت لها في أذنها:

- يلَّا قومي بسرعة علشان نرجع للشقاوة تاني مع بعض.

وابتسمت ابتسامتها المعهودة، لكنني كنت أعلم أنها المرة الأخيرة التي سأقابلها.

تخرجنا نحن الثلاثة من الثانوية العامة بمجاميع ضئيلة وكان نصيبي من مكتب التنسيق هو كلية

المعلمين (علوم جامعة القاهرة)، بينما التحقت صديقاتي بكلية الترجمة الفورية جامعة الأزهر. بالنسبة إلى حالتي، كان افتتاح كلية للمعلمين في هذه الجامعة للمرة الأولى، ونظرًا لأنه لم توجد بعد مبانٍ تأويها، فقد وُزع طلابها مؤقتًا على كلية الآداب وكلية العلوم حسب تخصص الثانوية العامة. الحياة الجامعية كانت تجربة جديدة مهمة بالنسبة إليَّ. من خلال بقائي ما يقرب من شهر في كلية العلوم اكتشفت كم كنت مخطئة في اختيار الشعبة العلمية للثانوية العامة، أولًا بالنظر إلى المجموع الضئيل الذي حصلت عليه، ثانيًا بسبب ما تعرضت له من حوادث قد تبدو طريفة اليوم، ولكنها لم تكن مُضحكة بالنسبة إليَّ في ذلك الوقت؛ فمن ضمن المنهج كان أحد الدروس عبارة عن تشريح لضفدعة. المعيد المسؤول عنا أكد لنا أنه قام بتخدير جميع الضفادع وأنه يلزمنا فقط تدبيسها من أجل إجراء التشريح. لسوء حظي، الضفدعة التي جاءت من نصيبي كانت كبيرة الحجم نوعًا ما، فما إن بدأت في تدبيسها حتى قفزت في الهواء واختفيت أنا تحت الطاولة الرخامية التي تُجرى عمليات التشريح فوقها. ثم علمت بعد ذلك أن درس التشريح القادم من المقرر أن يتم على صرصار، عند العودة إلى المنزل، توجهت على الفور إلى أبي وقلت له إنني لا أريد استكمال تعليمي الجامعي ومستعدة أن أعمل صبيًّا عند حلَّاق للسيدات إذا تعذر إيجاد أي عمل آخر يصلح لي. طمأنني والدي وقال إنه سيبحث عن طريقة لنقلي إلى كلية الآداب. كان المفكر والمؤلف لويس عوض من معارف أبي غالبًا من أيام السجن في الواحات، وبما أنه كان من خريجي كلية الآداب جامعة القاهرة فكر أبي أنه ربما لا يزال يحتفظ بعلاقات فيها. رتَّب الدكتور لويس عوض بالفعل موعدًا لي مع عميد كلية الآداب في هذه الفترة الذي قَبِل نقلي إلى هذه الكلية بقسم اللغة الفرنسية. وهكذا بدأت أنتظم في الجامعة وفقًا للمجال الذي يتناسب مع ميولي.

الأهمية الثانية لدخولي جامعة أهلية مصرية هي أنها أتاحت لي فرصة التعرُّف على ناس من مختلف الانتماءات الاجتماعية والجغرافية، وخاصة الاضطرار من أجل التواصل السلس مع الزميلات والزملاء، إلى تعميق معرفتي باللغة العربية سواء الدارجة أو الفصحى. وهذا ما لم أكن اكتسبته خلال سنوات المدرسة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، لم أفهم في البداية تعبير «يطنِّش» الذي غالبًا ما أصبح اليوم منتميًا إلى اللغات الميتة مثل اللاتينية. ولما استفسرت عن معناه، أصبحت أستعمله في محله وفي غير محله سعيدة بامتلاكي تعبيرًا جديدًا يُمكنني من الاستيعاب بطريقة أفضل لما يقوله الآخرون. بدأت أيضًا أتعرف على الأنشطة الجامعية من اتحادات طلابية، ومجلات حائط، ولاحقًا مظاهرات احتجاجية. صحيح أنني أنهيت سنوات دراستي الجامعية قبل الهبَّات الطلابية الكبرى في السبعينيات، ولكنني كنت أشعر منذ البداية بنمو الفكر النقدي بداخلي كما ابتعدت تمامًا عن أسلوب التعلُّم عن ظهر قلب وإنما لجأت إلى البحث في المراجع، خاصة أن والدي كان قد كوَّن مكتبة عظيمة في بيتنا ضمت ما يزيد على خمسة آلاف كتاب في مجالات متنوعة، وأن أحد أساتذتي في السنة الأولى بجامعة القاهرة كان الدكتور القدير عبد المنعم تليمة،

وتبعه بعض الأساتذة الكبار فيما بعد في كلية المعلمين بجامعة عين شمس.

في مطلع صيف ١٩٦٧، برزت دعاية محلية طنَّانة بأن القوات المسلحة المصرية على وشك الانتصار على القوات الإسرائيلية. في البداية صدَّقها الناس، ثم بدأ من كان يستمع إلى إذاعات أجنبية مثل «البي بي سي» ومحطات أخرى، يشكك في الأمر، إلى أن جاء يوم تنحِّي جمال عبد الناصر، فنزلت جماهير غفيرة إلى الشوارع في القاهرة وعديد من المحافظات الأخرى تُطالبه بالعدول عن قراره وبتحمُّل مسؤوليته حتى النهاية. الغريب في الأمر أنني - أنا التي علمت عن قرب كل الجرائم التي ارتُكبت في عهد عبد الناصر - نزلت إلى الشارع أيضًا لمطالبته بالعودة. لم أنسَ الماضي، لكن يعود غالبًا سبب اشتراكي في هذه المظاهرات إلى الكاريزما الطاغية التي كان يتمتع بها شخص بمثل هذه الشخصية التي يُلهب مجرد سماع صوتها الحماس الجماهيري العارم. كما انتشر أسلوب شعبوي يدغدغ مشاعر الناس ويعدهم بغد أفضل وبالتفوق على جميع الغاصبين، وربما أيضًا لأنني كنت أفتقد كثيرًا من الوعي السياسي وانجرفت وراء المشاعر العاطفية.

اجتزت السنة الأولى بنجاح مع الحصول على تقدير جيد جدًّا، وهو ما أتاح لي منحة جامعية لا أتذكر قيمتها بالضبط لكنها كانت تساوي تقريبًا نصف مصروفي الشهري الذي أتقاضاه من أهلي. على أساس هذا الدخل، قرر أبي أن عليَّ استكمال النصف الآخر بمجهودي الشخصي. فبدأت أقوم بأعمال صغيرة يبحث لي عنها والدي في دائرة معارفه. على سبيل المثال، راجعت لمدة طويلة اللغة الفرنسية لإصدارات منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، كما أعطيت دروسًا خاصة لأطفال بعض معارف أبي. وسمح لي ذلك بسد جانب من احتياجاتي وعلَّمني مبكرًا الاعتماد على نفسي ولو جزئيًّا في البداية، خاصة أنني بدأت أشعر بالرغبة في الانفصال عن منزل الأسرة وإبداء هذه الرغبة أمام أهلي، بينما يردد لي أبي:

- سوف تعيشين كما تختارين عندما تتمكنين من الإنفاق على نفسك بطريقة كاملة.

بعد السنة الجامعية الأولى، تقرر إلغاء كلية المعلمين من جامعة القاهرة، ونُقل طلابها إلى كلية المعلمين التي كانت تابعة أصلًا لجامعة عين شمس (وهي الكلية التي تغير اسمها اليوم لتصبح كلية التربية ولو أنني أُفضِّل شخصيًّا تسمية المعلمين) الكائنة في منشية البكري قرب منطقة روكسي بمصر الجديدة. فكانت مجموعات كبيرة من الطلبة تتجمع صباحًا عند نهاية مترو مصر الجديدة ناحية كورنيش النيل في منطقة ماسبيرو، وهو المَوقَف الذي كان يقع بالقرب من الكنيسة الأنجليكانية الموجودة هناك، والتي نُقلت بعد ذلك إلى كنيسة جميع القديسين بالزمالك، كما تم نقل مَوقَف نهاية المترو الذي كنا نستقله للذهاب إلى كليتنا من أجل بناء المبنى الضخم للإذاعة والتلفزيون مكانهما. كانت رحلة الوصول إلى كليتنا تستغرق فيما بين نصف إلى ثلاثة أرباع الساعة، وتصبح خلالها عربات المترو مليئة بشكل شبه حصري بخليط من الطلبة من جميع

التخصصات في الأقسام العلمية والأدبية، وكنا نتبادل الحديث، ونتناول أخبار الدراسة، وربما تكوَّنت القصص الغرامية بين البعض منهم. وجدت نفسي في دفعتي مع مجموعة من الطالبات والطلاب لم يتجاوز عددنا الثلاثين، وأعتقد أنه العدد الضئيل الذي ظل بعد ذلك في أقسام اللغة والآداب الفرنسية بسبب الانتشار الواسع لغلبة اللغة الإنجليزية واستحواذها شبه الكامل على فرص العمل المُربِحة. وكانت هناك منافسة حامية بيني وبين أحد زملائي بالقسم. فمعظم البنات انحازوا لصفي فيما عدا بنتًا واحدة كانت معجبة بهذا الشاب وتطارده باستمرار، وقد أطلقت إحدى الزميلات عليها اسم «بلح أمهات» بسبب تسريحة شعرها. أما الأولاد، فاكتفوا بمشاهدة المباراة التي تدور تحت أعينهم وترقُّب نتيجتها النهائية.

استمتعت جدًّا بدراسة الآداب الفرنسية استكمالًا لما كنت قد درسته أيام المدرسة على يد معلمين أكفاء من الفرنسيين الذين كانوا يقضون فترة أدائهم للخدمة العسكرية بواسطة القيام بهذه النوعية من المهام. والواقع أنني أحببت دائمًا الأدب الفرنسي الذي التهمت له كتبًا كثيرة لكبار الكُتَّاب والشعراء مثل أراجون وزوجته إلسا تريوليه، وبول إليوار، وسانت إكزوبيري صاحب «الأمير الصغير» وفولتير، وبودلير، ورامبو، وآخرين كثيرين، منهم كُتَّاب وشعراء من العصور الوسطى ومن عصر النهضة وصولًا إلى القرن العشرين. كما استمتعت في أثناء دراستي الجامعية ببعض المواد التربوية من دون الأخرى، فقد أحببت مواد طرق ومناهج، وتاريخ التعليم، وطرق خاصة، وبصفة محددة خلال السنتين الأخيرتين مادة التربية العملية، أي التطبيق العملي لما تعلمناه في فصول حقيقية ومع تلاميذ من لحم ودم، وهي من المواد التي تميزت فيها.

انتهت السنة الجامعية الثانية بالنسبة إليَّ بالحصول على تقدير السنة الأولى نفسه، وقد أغاظ ذلك غريمي الذي حصل على جيد مرتفع، وكنا لا نُوجِّه الكلام لبعض مثل الأطفال الصغار عندما يتخاصمون مع أصحابهم، يعني سلوكًا طفوليًّا من الجانبين. خلال السنة الثانية، صدرت الأحكام ضد المسؤولين عن هزيمة ١٩٦٧، وقد استفزت هذه الأحكام أوساطًا واسعة من الشعب، وعلى رأسها الطلاب، فوجدت نفسي يومًا من أيام ١٩٦٨ أشارك في مظاهرة على باب كليتي مَنَعها حرس الجامعة من الدخول إلى حرم الكلية. لا أدَّعي أنني كنت سياسية جدًّا في هذه الفترة، فالإحباط الذي سبَّبه لي حل التنظيمات الشيوعية والذي تلاه إحباط هزيمة يونيو كان يُبعدني عن هذا المجال، يزيد على ذلك الاهتمام المتزايد لديَّ بالذكور. ومع ذلك، كانت من عاداتنا الأسرية صباح كل يوم جمعة قراءة مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل معًا، مما ساهم في تطوير الحاسة النقدية لديَّ بالاستفادة من الملاحظات التي يُبديها أبي ومن النقاش الجماعي حول هذه النقطة أو تلك.

إلى جانب الدراسة، كان هناك التزويغ أحيانًا من المحاضرات كشلَّة من البنات. كانت تمتلك إحدى زميلاتنا سيارة خاصة صغيرة نتكدس داخلها، وهو ما ساعدنا على الانتقال بسهولة من

مكان إلى آخر، أتذكر أننا ذهبنا يومًا إلى سينما روكسي القريبة من الكلية لمشاهدة فيلم «أبي فوق الشجرة»، ومرة أخرى أخذتني زميلاتي إلى سوق التوفيقية في وسط البلد لتناول رغيف الحواوشي الذي لم أكن سمعت به من قبل. وفي أثناء جولاتنا، تتحدث كل واحدة عن أخبارها الغرامية ما عدا أنا التي كنتُ أكتفي بالحديث عن أسراري الخاصة مع صديقتي المقربتين عصمت وليلى. مارس هذا الثلاثي كل الحيل الممكنة لتضليل الأهل بشأن الخروجات التي نقوم بها. فعلى سبيل المثال، كانت والدة ليلى أكثر صرامة من أبوَي ومن جدة عصمت التي تقدمت في السن ولم تعد قادرة على التحكم كاملًا في أمور حفيدتها. حجرة نوم ليلى كانت تقع بعيدًا عن حجرات النوم الخاصة بشقيقتها الكبرى ووالدتها، ولها شباك منفرد يطل مباشرة على الطرف النهائي لحديقة الفيللا. فاتفقنا على قضاء بعض الوقت معًا في إحدى الأمسيات بمكان للرقص، خاصة أن صديقة أخرى اسمها منى كارامانيان وهي أرمنية-فرنسية جاءت لزيارة قصيرة إلى مصر وأعربت عن رغبتها في قضاء سهرة رقص ظريفة معي ومع صديقاتي. فاستقللنا سيارة تاكسي إلى المعادي، ودخلنا من الباب الخلفي لحديقة الفيللا، وساعدنا ليلى على القفز من الشباك واللحاق بنا. كنا قد أخذنا معنا بعض الملابس البديلة لتتمكن ليلى من قضاء سهرة ممتعة في ملابس تُشعرها بالاطمئنان إلى أناقتها، ثم توجهنا إلى فندق في الزمالك كنا نعرف أن به قاعة للرقص، وبعد انتهاء هذه السهرة البريئة بكل المقاييس، قمنا بإعادة ليلى إلى حيث أخذناها، ثم جاءت الصديقتان الأخريان للمبيت معي في منزلنا بباب اللوق، وأمضينا بقية الليل في الدردشة والتعليق على سهرتنا.

خلال عام ١٩٦٨ حرص أبواي على أن أقوم برحلتي الأولى خارج حدود الوطن. فسافرت أولًا إلى باريس حيث التقيت بأسرة والدتي التي كانت قد هاجرت إلى هناك إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وهو الأمر الذي حاول قاضي محاكمة ١٩٥٩ استغلاله ضد أبي باعتباره دليلًا على التخابر مع العدو، فرفض أبي مثل هذا الاتهام الجائر بكل قوة، وقال إنه غير مسؤول عن أفعال غيره، وإنه مواطن يعتز بمصريته والدليل على ذلك أنه كان قد اختير رسميًّا ضمن آخرين في أثناء هذا العدوان الثلاثي للمشاركة من القاهرة في تنظيم المقاومة الشعبية في بورسعيد.

وفي باريس، التقيت بخالي فيليكس وزوجته وأبنائه، لكنني مكثت فترة أطول في منزل جدتي فلورا وخالتي توني التي حكت لي رحلة رحيلهم من مصر، وكيف كانت الوحيدة في الأسرة التي ظلت تبكي فراقنا وفراق مصر. أما جدتي، فكانت تحتفظ بصورة لزوجها الذي تُوفي في عز شبابه وظلت صورته هكذا في ذاكرتها، أي الشاب الأنيق الوسيم، إلى نهاية حياتها. وبدأت تشكو من أنه حينما داهمتها قبله الحمى الإسبانية، اعترف لها فيما بعد بأنه اضطر إلى اللجوء إلى أحد بيوت الدعارة التي كانت موجودة حينذاك بطريقة رسمية في مصر لتلبية احتياجاته الجنسية، فلما دخل في حجرة إحدى بائعات الجنس وجد أنها قبيحة للغاية، فألقى على السرير بثمن الزيارة وتركها من

دون أن يقترب منها، وظلت جدتي تبكي ربما على هذا الشاب الذي راح وكانت لديه النية لخيانتها، أو على نفسها وعلى حياتها التي كادت أن تنتهي قريبًا من دون أي استمتاع باستثناء تربية الأطفال الذين تركها معظمهم اليوم؛ فأمي في القاهرة، وخالتي سيلين في إنجلترا، وخالي أصبح يسكن في منزل منفصل مع أسرته الصغيرة، ولم يبقَ معها سوى خالتي توني. هزتني هذه القصة، وفكرت للمرة الأولى في مدى احتياج النساء إلى الوفاء الحقيقي في إطار العلاقة العاطفية. كما أتاحت لي هذه الرحلة فرصة لقاء بول جاكو، الأب الروحي لوالدي، والذي اصطحبني إلى الحي اللاتيني، وإلى جامعة السوربون الفرنسية لأرى بعض بقايا آثار هَبَّة الطلاب الفرنسيين في مايو ١٩٦٨ المطالبين بالعدالة الاجتماعية. وكان لهذه الزيارة أيضًا تأثيرها على تشكيلي المستقبلي.

جدتي لأمي فلورا داسا، باريس عام ١٩٦٨

بعد ذلك، جاء الدور للقائي الأول مع خالتي سيلين، وزوجها ألن في لندن بإنجلترا. وكانت رحلة

هادئة انضمت إليها إحدى صديقات خالتي ووالدتي، واصطحبتني هذه الصديقة إلى بعض المتاحف الكبرى في إنجلترا حيث شاهدت للمرة الأولى حجر رشيد الأصلي الذي سُرق من مصر، كما حظيت بالتعرف على لوحات بعض كبار الرسامين البريطانيين مثل تيرنر الذي عشقت تصميماته وكيفية تصويره للضوء في إنارة المناظر الطبيعية التي يرسمها بالفرشاة. زرتُ أيضًا متحف الفن الحديث حينذاك (والذي غالبًا ما تغيرت مقتنياته كثيرًا اليوم) وتعرفت على أعمال المثَّال رودان وآخرين لم أحبهم جميعًا، فلم أمِل قَطُّ إلى المرحلة التكعيبية في الفن، وأخيرًا ذهبنا إلى برج لندن الذي جرى بناؤه في العصور الوسطى وقام على امتداد تاريخ إنجلترا بأدوار متعددة، منها التعذيب والإعدام، ولكن أيضًا لصد الهجمات، وأدوار أخرى على رأسها المكان الذي تودع فيه مجوهرات الأسرة الملكية، ومما أذكره من هذه الزيارة الأخيرة بصفة خاصة هو مشاهدة ماسة ضخمة قيل لي إنها أكبر ماسة في العالم. وجدت أن خالتي سيلين نموذج للمرأة القوية التي تقود أسرتها، بينما زوجها هو الرجل الحسَّاس الذي يحرص دائمًا على العناية بضيوفه وتوفير كل سبل الراحة لهم. فعلى سبيل المثال، كان قد صنع بيده درابزين للسلم يصل ما بين الدورين الأرضي والعلوي لبيتهما لتسهيل استعمال جدتي نوننا حاسين لهذا السلم، والغريب أن رد فعلها كان التعبير عن أن زوج خالتي قد ضحك على ابنتها مدعيًا أنه مُدرس، بينما هو في حقيقة الأمر نجَّار، فلما حاولت أن أثنيها عن هذا الاعتقاد رفضت بشدة تغيير وجهة نظرها. أعجبني في بيتهما وجود حديقة صغيرة زرعا فيها أنواعًا من الخضراوات، وهو ما تمنيت طوال عمري أن تتاح لي الفرصة لأفعل مثلهما. ولكنني لم أمتلك حديقة ولا فن زراعة الخضراوات، فحاولت فيما بعد أن أقيم حديقة مُصغَّرة في إحدى شرفات بيتي ولكنني لم أفلح أيضًا في زراعة الخضراوات، وإنما اكتفيت ببعض نباتات الزينة والصبار. تجدر الإشارة هنا إلى أن وصية خالتي وزوجها كانت بأن يؤول هذا البيت بعد وفاتهما إلى منظمة غير ربحية محترمة في إنجلترا اسمها أوكسفام.

كان المُخطَّط أن أذهب أنا وخالتي وزوجها بعد إنجلترا إلى فرنسا لنلحق ببقية الأسرة التي حجزت بيتًا في جنوب إيطاليا لقضاء إجازة قصيرة هناك، ولكن فاجأنا زوج خالتي بترتيب رحلة لبعض القصور الأثرية الواقعة على نهر اللوار، وهي قصور رائعة الجمال بُنيت على طراز عمارة عصر النهضة. زرنا خلال هذه الجولة الخلَّابة ثلاثة قصور، هي: بلواه، وشامبور، وشينونسو، وهي الرحلة التي تعلمت خلالها الاستمتاع أكثر بالفن الراقي، وتطوير قدرتي على تثمين قيمته. ثم توجهنا بعد ذلك إلى مدينة جنوة بإيطاليا للحاق ببقية الأسرة وقضاء ليلة واحدة قبل الانتقال إلى الجنوب الإيطالي على البحر المتوسط. الذكرى الوحيدة التي أحتفظ بها عن هذه المدينة هي تمثال كريستوفر كولومبوس الذي راح ليغزو أمريكا.

من الواضح أنني كنت قد أُصبت قبل سفري من مصر بعدوى ما في قاع قدمي تؤلمني كثيرًا عند السير. فقررت خالتي سيلين - ذات الشخصية القوية - أنه لا بد من عرضي على طبيب، ولكن لم

يوجد مستشفى في هذه البلدة الساحلية الصغيرة، فوجَّهوني إلى قسم الإسعافات الأولية في عيادة القرية حيث استأصل الطبيب أو ربما التمرجي الموجود الورم الصلب الذي تكوَّن في بطن قدمي وقيل لنا إن اسمه السنط. بعد سنوات عاد هذا السنط مرة ثانية، فكنت أتردد على مركز للعناية بالأظافر في مصر، يقوم فيه أحد المتخصصين هناك بعلاجي يومًا بعد يوم إلى أن اختفى تمامًا. في أثناء إحدى جلسات العلاج، كان نجم الفكاهة الراقية عبد المنعم إبراهيم جالسًا على مقعد بجوار مقعدي فسألني عما أعاني، لما قلت له إنه سنط، بدأ يضحك قائلًا:

- مفيش غير الفلاحين اللي بييجي لهم سنطة.

فكانت إجابتي إننا جميعًا فلاحون. عمومًا، بعد خروجي من العيادة الإيطالية أصبحت قدمي تؤلمني ومربوطة بالشاش، وأسير عرجاء جراء العملية الجراحية التي تمت ببنج موضعي بدأ يختفي مفعوله، مَرَّ شاب على دراجة بخارية، وعَرَض توصيلي إلى المكان الذي أسكن فيه. ترددت خالتي توني الطيبة التي صحبتني إلى العيادة لخوفها من أنه سوف يختطفني، ثم وافقت وأعطته عنواننا. هذا الشاب كان قد تطوع بلا أي أفكار خبيثة ليساعد أحدًا، وتركني ما إن وصلنا إلى مكان إقامتنا من دون أن ينطق بكلمة، خاصة أنه لم يكن هناك أي لغة مشتركة بيننا يمكننا التواصل بواسطتها. شعرت بالامتنان نحوه، ليس فقط لأنه أنجدني من ألم السير على الأقدام بعد العملية، ولكن أساسًا لأن سلوكه ذكَّرني بشهامة أولاد بلدنا، على الأقل في هذه الفترة. ومع ذلك، عليَّ الاعتراف بأنه حتى يومنا هذا هناك سلوك للمصريين نادرًا ما تجده عند أهل الغرب من غير القاطنين بقرب حوض البحر المتوسط. فمع تقدمي في السن، أصبحت عملية اجتياز الشوارع الواسعة التي بها سيارات مسرعة في الاتجاهين مهمة صعبة بالنسبة إليَّ، فكم من مرة تتوقف جميع السيارات - حتى عربات الميكروباص المعتادة على السير بسرعة جنونية - إلى أن أمُر بأمان من رصيف إلى رصيف.

الرحلة الأخيرة كانت إلى سويسرا حيث كان سيُقام زفاف أخي مجاهد على آن ليز. في البداية، قضيت بضعة أيام في مسكنهما الخاص، هما يذهبان إلى العمل ويتركاني بالمنزل أحاول أن أساعد خطيبة أخي في ترتيب البيت وإعداد السلطة وبعض الأشغال الصغيرة الأخرى. وبعد يومين من وصولي اتصل بي أخي من مكتبه وطلب مني ضاحكًا أن أشرح لخطيبته أهمية الاحتفاظ بقلب الخس له لأنها كانت معتادة على إلقاء هذا الجزء في سلة النفايات معتبرة إياه من الزوائد غير المفيدة. هكذا كان أخي وهكذا أحببت دائمًا روحه الفكاهية.

بعد إتمام مراسم الزواج المدني، عدتُّ إلى باريس لأستقل الطائرة إلى مصر. عند الوصول إلى مطار أورلي، جرى تنبيه الركاب بأن هناك عُطلًا في الطائرة المتوجهة إلى مصر وأنها لن تغادر فرنسا في موعدها. ظللنا هكذا ثلاثة أيام من دون أمتعة، ننام على الأرائك الحديدية للمطار، حتى

عَلِم خالي من والدتي بموضوع بقائي في فرنسا كل هذه الفترة، فكان والداي يذهبان يوميًّا إلى المطار أملًا في وصولي، وعندما يسألان الموظفين هناك، يتم الرد عليهما بأنني ربما فَضَّلت البقاء مدة أطول في باريس! أحضر لي خالي فرشاة ومعجون أسنان، وبعض اللوازم الأخرى، ثم غادرنا أخيرًا فرنسا بعد أن بقينا هذه المدة في المطار، لا نستطيع الوصول إلى حقائبنا، أو التحرُّك من المطار، أو مجرد التوجُّه لساعات معدودات إلى قلب باريس.

في صيف ١٩٧٠، أتاح لي أبي فرصة الانضمام إلى رحلة لألمانيا الشرقية في إطار استضافة وفد من العرب من أعضاء جمعية الصداقة العربية-الألمانية التي لم أكن بالمناسبة عضوة فيها، ولكن هكذا كانت تدور الأمور في بلدنا. شكَّلت هذه الرحلة فرصة تعليمية إضافية إليَّ. أقمنا في البداية في برلين الشرقية التي كان يفصلها سور عالٍ عن النصف الآخر من برلين كانت قد قامت ببنائه ألمانيا الشرقية. ومع سقوط عدد من الأنظمة الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية مع نهاية الثمانينيات، هبت رياح التغيير على ألمانيا وأدَّى ذلك إلى هدم السور بطريقة شبه نهائية خلال عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، وأصبح هذا الهدم تمهيدًا رمزيًّا لتوحيد شطري ألمانيا التي ظلت منقسمة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية - بفعل قرار من قوات الحلفاء - إلى ألمانيا الفيدرالية وألمانيا الديمقراطية. ثم زرنا عدة مدن منها مدينة إيرفورت الشهيرة بالزهور والبستنة، وقيل لنا آنذاك إنه كان يُنظم فيها معرض دولي سنوي للزهور كثيرًا ما فازت فيه مصر بالمرتبة الأولى. ثم انتقلنا إلى مدينة فايمار، يليها بوتسدام، والتي اجتمع فيها إبان الحرب العالمية الثانية رؤساء روسيا والولايات المتحدة وإنجلترا حيث اتفقوا على تقسيم ألمانيا بعد سقوط النازية، ووفقًا لذلك انقسمت أوروبا بدورها إلى معسكرين: دول أوروبا الغربية ومعسكر الدول الاشتراكية. كما زرت درسدن التي لقبتها بيني وبين نفسي بمدينة الفنون من جمال معمارها وما تُقدمه لعيون الزوار من آثار معروضة على الطريق. لا أعلم كيف أصبحت اليوم، وهل فقدت طابعها المُميز؟

من أهم الزيارات بالنسبة إليَّ كانت زيارة معتقل بوخنفالد الذي كانت تُباد فيه أعداد غفيرة من المقبوض عليهم منهم اليهود والشيوعيون الألمان، غالبًا بالغازات السامة. ولما وجَّه وفد الزوار سؤالًا حول جدوى الحفاظ على هذه الأماكن، جاء رد مُضيفينا:

- حتى تعلم الأجيال الجديدة الفظائع التي ارتكبها النظام النازي والتي لا بد أن تنتهي إلى الأبد.

كل هذه الزيارات علَّمتني قطعة من التاريخ كنت قرأت عنها في الكتب، لكن رؤيتها عن قرب أحدثت فرقًا. كما تعرفت في أثناء الرحلة على مجموعة من السودانيين، وتصاحبنا على بعض إلى درجة أنني وجدت يومًا ليس بالبعيد رسالة على فيسبوك من فتاة سودانية اسمها نولة، قالت إن والدها الذي شارك في هذه الرحلة أطلق عليها اسمي. وهي تعيش حاليًّا في القاهرة ولكنني لم أجد الفرصة لمقابلتها بعد.

عند عودتي من هذه الرحلة إلى القاهرة، علمت أن والدَي تلقيا بدورهما دعوة لزيارة ألمانيا الشرقية التي سافرا إليها خلال شهر سبتمبر ١٩٧٠. بقيت أنا وصديقتي عصمت في بيتنا بباب اللوق، وصرفنا حتى آخر مليم النقود التي كان أبواي قد تركاها لنا للوفاء باحتياجات المنزل. يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، بعد البحث في الراديو عن موجة للأغاني، لم أجد غير تلاوة القرآن على جميع الموجات، ثم أذيع نبأ وفاة جمال عبد الناصر. فاصطحبتُ عصمت معي لنتوجه سيرًا على الأقدام نحو القصر الجمهوري بالقبة الذي أُودع فيه جثمانه. كانت الشوارع مكتظة بالجماهير، منهم من يهتف، ومنهم من يبكي. لما وصلنا هناك كان من المستحيل أن نرى شيئًا من شدة الزحام، فقررنا العودة إلى المنزل ومتابعة الأخبار من هناك. فعلمنا أن الجنازة ستكون يوم أول أكتوبر. في هذه الأحيان، كان والداي قد قررا قطع زيارتهما والعودة سريعًا إلى مصر التي تدور فيها أحداث قد تؤدي إلى تغييرات كبيرة، كما كانا يرغبان في الوجود وسط الناس في ظل هذه الظروف الصعبة. لما وصلا إلى المنزل كان معهما صديقان من بلد عربي آخر لا أتذكر ما هو، وطلب الجميع احتساء بعض الشاي، لكن لم تكن هناك ملعقة واحدة من الشاي أو السكر ولا حتى قطعة خبز واحدة في المنزل.

يوم الجنازة نزلت أنا وصديقتي عصمت إلى ميدان التحرير لننضم إلى المشيِّعين، ولكن السير كان صعبًا بل يكاد يكون غير وارد فيما بين المشيِّعين الرسميين والجماهير العريضة التي أحاطت بالنعش المحمول على حاملة للمدافع والمُغطَّى بعَلَم مصر. فعدنا مرة أخرى إلى البيت للمتابعة بطريقة أفضل من خلال البث التلفزيوني المُباشر. ارتديت شخصيًّا الملابس السوداء لمدة شهر تقريبًا!

في حدود بداية السبعينيات، اتصل بعض المناضلين من جنوب أفريقيا من المنتمين لمنظمة المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان يسعى إلى تخليص بلاده من المحتلين ومن سياسة الفصل العنصري بين البيض والسود، وهي السياسة القائمة على اعتبار الزنوج عبيدًا والتعامل معهم على هذا الأساس، وطلبوا مقابلة والدي الذي رحَّب بلقائهم، وكان قد دعاني إلى الحضور معه هو وأمي. لما جاء الضيوف، اكتشفنا بعد حديث قصير أنهم ظنوا أن من سيقابلونه هو الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش لتشابه الألقاب. ومع ذلك، حدث التواصل سريعًا بين الطرفين اللذين التقيا حول الأفكار والتطلعات المتقاربة. بفضل هذه المقابلة، بدأت صداقة لي استمرت سنوات مع سينديسو مفينيانا وزوجته ريتا الروسية. كما تعرفت عن طريقهما بثوار أفارقة من بلدان مُحتلَّة أخرى، مثل: أنجولا، وغينيا بيساو، وموزمبيق. فكانت مصر ما زالت تحتضن هؤلاء الثوار وتؤويهم، مثلما كان يحدث من قبل مع المناضلين الجزائريين للحصول على الاستقلال من فرنسا. وبهذه المناسبة، كان بن بلة الذي أصبح رئيسًا للجزائر بعد الاستقلال يعيش أحيانًا وقت النضال من أجل التحرير مع بعض رفاقه في عمارة بحي جاردن سيتي بالقاهرة يسكنها أيضًا أحد

الشيوعيين المصريين الذين قُبض عليهم فجر الأول من يناير ١٩٥٩. فلما جاء بن بلة في إحدى زياراته إلى مصر وعلم بالأمر، توسط لدى الرئيس جمال عبد الناصر للإفراج عنه، وقد لبَّى له الرئيس المصري هذا الطلب. المهم أن هؤلاء المناضلين الأفارقة قد ساعدوني كثيرًا فيما بعد، وسوف أشرح هذا في حينه.

من اليمين: شاب من الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، صديقتي عصمت، أنا، شاب آخر من الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، القاهرة في نهاية عام ١٩٦٩

سينديسو مفينيانا وريتا

تعرَّف أبي في بداية السبعينيات على شاب فرنسي اسمه جان بيير ثييك كان يتحدث العربية بطلاقة، وشرح لي أنه كان يتناول وجباته مع بواب عمارته على السلالم بدلًا من تقضية كل وقته مع المثقفين المصريين الذين يُفضِّلون - ربما استسهالًا منهم أو على سبيل الممارسة من أجل تحسين المعرفة باللغة - الحديث معه بواحدة من اللغات الأجنبية، واعتبر أن هذا سيُعرقل تحصيله بطريقة أفضل للغة العربية. وتعرف والدي من خلاله على مجموعة من الشباب الجزائري الذين جاءوا لدراسة اللغة العربية وفقًا للمتطلبات الوظيفية الجديدة في بلدهم. وبسرعة شديدة أصبح جان بيير توأم روحي، فنحن مولودان في السنة نفسها، وتحت البُرج نفسه، وكان بيننا تشابه في الشكل الخارجي كما في الشكل الداخلي. لا تأخذكم الظنون، فكلانا كانت له تفضيلاته العاطفية المختلفة، لكن ربطت بيننا صداقة عميقة على الرغم من البعد الجغرافي في أحيان كثيرة. كان جان بيير يُعد رسالة ماجستير حول الحركة الطلابية المصرية في أربعينيات القرن الماضي. كما أصدرت والدته بعد وفاته، وأصرَّت على أن تأتي إلى مصر لتهديني نسخة من الكتاب الذي جمعت فيه بعض مقالاته التي نُشرت له في جريدة لوموند الفرنسية أيام كان مراسِلًا لها في تركيا، ومنها مقال مُطوَّل بعنوان «الشيوعيون والحركة الوطنية في مصر (١٩٤٥-١٩٤٦)» يتناول تأثير المنظمات الماركسية التي كانت موجودة في مصر على انتقال الفكر الاشتراكي إلى الأوساط العمالية والطلابية.

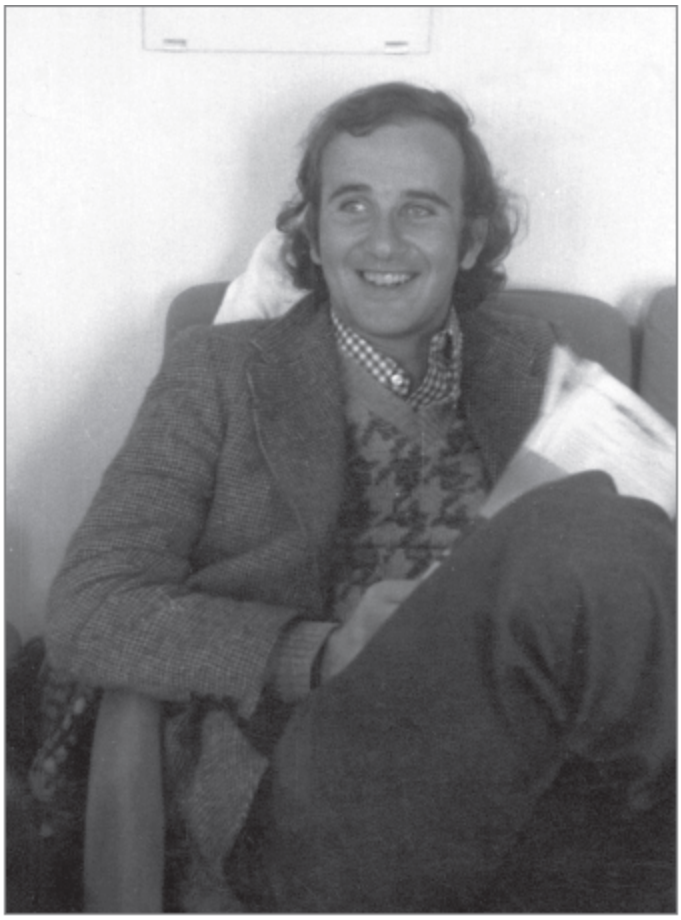

صديقي الحميم جان بيير ثييك

أما الشباب الجزائري، فقد انتهز أبي فرصة وجودهم وأوكل إلى أحدهم تولِّي تربيتي ماركسيًّا، ففرض عليَّ هذا الأخير قراءة جميع مجلدات مؤلف «رأس المال» لكارل ماركس. الحقيقة أنني لم أفهم الكثير منه، لكن الصورة التي ظلت في ذاكرتي أنه حينما يتحدث ماركس عن إرهاصات الرأسمالية في إنجلترا، يصف كيف فضَّل الرأسماليون توظيف الأطفال الصغار في مصانعهم لأنهم يمثلون عمالة أرخص، وكان عمل هؤلاء الصغار يمتد إلى ما بين ١٢ و١٦ ساعة متواصلة يوميًّا فتضطر الأمهات إلى إطعامهم وهم يواصلون تأدية العمل. هذه الصورة مؤلمة في حد ذاتها، وربما كانت أكثر إيلامًا وبالتأكيد أكبر تأثيرًا بالنسبة إليَّ عن المعادلات المُعقَّدة التي قام ماركس على أساسها ببلورة القياس الشهير لكيفية إنتاج فائض القيمة لصالح الرأسمالية.

من جهة أخرى، بعد فترة وجيزة من حل الحزب الشيوعي في مصر عام ١٩٦٥ بدأت تتشكل مجموعات جديدة من الرافضين لفكرة الحل، وممن شعروا بأهمية تواجد سياسي ينحاز إلى حقوق الذين هم فعليًّا صُنَّاع هذا الوطن، وينادي بتلك الحقوق ويدافع عنها. كما برزت أجيال جديدة من المؤمنين بالفكر الاشتراكي المختلط بالنزعة القومية خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧. وربما كان هناك

آخرون أصيبوا بخيبة أمل بعد اكتشاف زيف الوعود التي تلقوها بالحصول على عمل والمشاركة النشيطة في الحياة السياسية. كان أبي من ضمن من أسسوا مجموعة الشروق التي ظلت صغيرة وتضمنت بعض كبار المفكرين، مثل ميشيل كامل ونبيل الهلالي. كما واظب والدي على ملاحقتي حتى أنضم إليهم. كنت أرفض هذه الفكرة بانتظام مُتعللة بأن من حلُّوا الحزب الشيوعي من قبل من الوارد تمامًا أن يحلُّوا التشكيلات الجديدة أيضًا أو يشوِّهوا مضمونها. ولما كنت قد وصلت إلى سنتي الدراسية الأخيرة في الجامعة، قررت أن أكرس نفسي لهذه المهمة إلى جانب بعض اللهو الجانبي.

تخرجت من الجامعة في دور مايو ١٩٧٠ وحصلت على ليسانس في الآداب الفرنسية والتربية بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وبناء عليه عُيِّنت معيدة في كلية المعلمين. ولكن سرعان ما اكتشفت أنه يُنظر إلى خريجي المعلمين على أنهم درجة أدنى من طلاب كلية الآداب، فكان لزامًا علينا حتى يُسمَح لنا باستكمال الدراسات العليا، اجتياز سنتين إضافيتين في كلية الآداب جامعة عين شمس للحصول على ليسانس منها بحجة أن دراستنا لم تتضمن مادة اللاتيني.

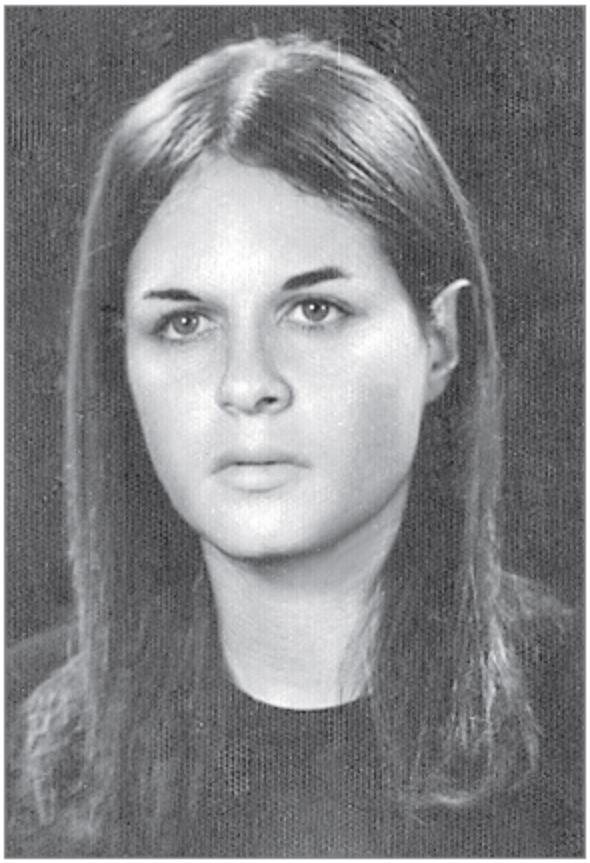

صورتي التي وُضعت على شهادة الليسانس
عام ١٩٧٠

استأت كثيرًا من هذه النظرة الدُّونية لنا، خاصة أنني كنت أمتلك ثقة عميقة في مستواي التعليمي والثقافي بالآداب الفرنسية وبالمهارات الأخرى التي أمتلكها، مثل إتقان الممارسة العملية لمهنة التدريس بالمقارنة مع خريجي كلية الآداب الذين لم يتدربوا عليها وإن كان يتم تعيين كثيرين من هؤلاء في مجال التدريس بعد تخرجهم. أصبحت مترددة في استكمال هذه المسيرة، إلى أن جاءني عقد للعمل كمُدرسة لغة فرنسية بالجزائر العاصمة. سافرت في صيف ١٩٧١ إلى الجزائر ولكن لم أجد هناك استكمالًا لإجراءات التخصيص لمسكني الوظيفي. فبعد أن وصلتني دعوة من صديق والدي بول جاكو، قررت أن أذهب إلى باريس للفترة الفاصلة بين هذا الشهر وبداية العام الدراسي في الجزائر. وقد تصادفت هذه الرحلة مع وجود أبي بباريس حيث كان عضوًا في رابطة الحقوقيين الديمقراطيين العالمية التي كانت تعقد اجتماعها الدوري في مقرها بباريس. من المهم الإشارة هنا إلى أن هذه الرابطة تبَنَّت على مدى سنوات مواقف شديدة الاحترام تجاه القضية الفلسطينية التي أشاد بها كل من أبي والأستاذ أحمد الخواجة، نقيب المحامين في هذه الفترة، واللذين لا يمكن لأحد التشكيك في وطنيتهما. وتأتي هنا إلى ذاكرتي جلسة غير رسمية تمت منذ سنوات قريبة جمعت بيني وبين المرحوم الأستاذ عبد الله خليل المحامي، أشاد فيها بدور أبي، وحكى لي أنه كان في سهرة يومًا يقضيها وحده بصحبة أحمد الخواجة الذي ظل يُحدثه عن أبي وعن دوره الوطني ومساهمته في تطوير فكر نقابة المحامين بمصر.

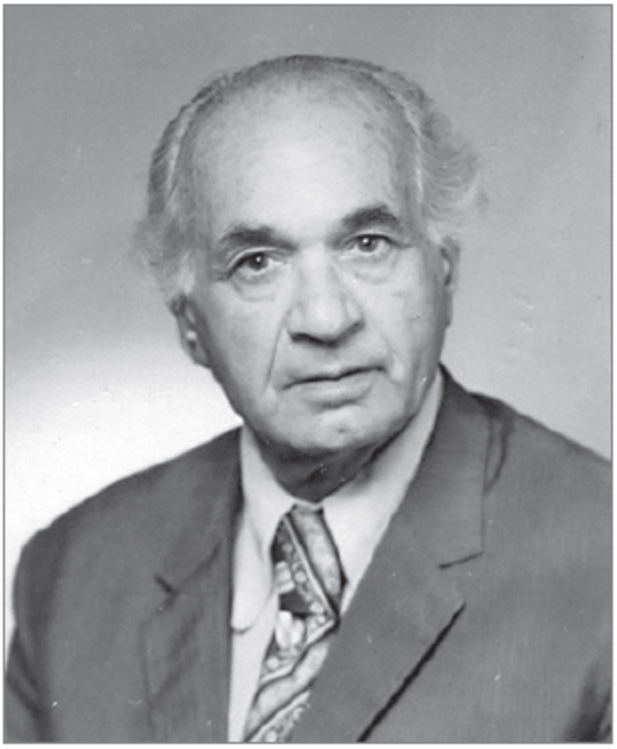

المحامي والمناضل المصري يوسف درويش

مكثت قرابة شهر في باريس، يُدللني أبي، فدعاني يومًا على الغداء معه في مطعم من مطاعم فواكه البحر التي كانت موجودة في منطقة ميدان محطة قطار سان لازار، ويصطحبني عند صديقه بول جاكو وزوجته هنرييت وابنهما بيير، ثم إلى صديقيه نبيل قرنفلي وزوجته عايدة اللذين كانا يعملان بمنظمة اليونسكو، ونتسكع معًا في شوارع باريس، مدينة النور الرائعة التي أعشقها ولكنني لا أستطيع أن أعيش فيها فترات طويلة، ثم جاء يوم السفر: أبي إلى القاهرة، وأنا إلى الجزائر لاستلام مهامي كمُدرسة في مدرسة حسيبة بن بوعلي بحي القُبَّة في مدينة الجزائر العاصمة. أما السكن الإداري، فلم يكن جاهزًا بعد وعليَّ الانتظار لمدة شهرين إضافيين، إذ إن الشقة المُخصَّصة لي كانت ضمن مجمع سكني باسم مدينة العناصر ولم تكن قد اكتملت بعد جميع الإنشاءات فيه.

كان جيدًا أن أصل إلى الجزائر قبل زحمة الانتهاء من الإجراءات الإدارية لعملي الجديد بأيام، لأنني تمكنت خلال هذه الفترة من الاتصال ببعض الأصدقاء من المناضلين الأفارقة الذين انتقلوا إلى الجزائر حيث جرى استقبالهم بأذرع مفتوحة بعد أن شعروا بشيء من الجفاء من جانب مصر. التقيت هناك بأصدقاء من أنجولا عرضوا عليَّ الإقامة مؤقتًا معهم إلى أن أحصل على مسكني وطلبوا مني أن تعيش معي بعد حصولي على السكن إحدى الزميلات الأنجوليات التي لم يكن لها مكان للإقامة في الجزائر، وقد رحبت بالفكرة بصدر رحب. فلما انتقلت أنا وهي إلى المنزل الجديد الذي كانت به غرفة نوم واحدة، وصالة كبيرة نوعًا ما، وحمَّام ومطبخ صغيران. اكتشفت أن لها صديقًا حميمًا جزائريًّا، فقررت أن أعطيها هي غرفة النوم المغلقة وأن أنام أنا في الصالة على مرتبة لإتاحة الخصوصية لهما. بقينا شهورًا على هذه الحال، هي تطبخ أحيانًا بعض الوجبات، وأنا أقوم بتنظيف الشقة التي لم تحتج إلى كثير من المجهود. ولم أعلم ما كانت تفعله شارلوت في أثناء دوامي في المدرسة، لأنه لم يعنني معرفة ذلك. فقد آمنت دائمًا بأن حياة الناس الشخصية ملك لهم وليس من حق أحد الاطلاع عليها أو السؤال عنها حينما لا تُسبب أذى لأحد، ولكن ما كان يضايقني قليلًا هو الشعور الذي أوصلته إليَّ هذه الصديقة الجديدة، وهو أنني ضيفة عندها ولست مُضيفة لها.

كانت الجزائر تعاني هذه الفترة - وفيما بعدها - من أزمة كبرى في المياه، ونظرًا لأننا كنا نسكن في الدور الأرضي للعمارة الواقعة بمدينة العناصر السكنية القريبة من حي القُبَّة، كانت حارسة المبنى، أو بالأصح المسؤولة عن تنظيف السلالم أسبوعيًّا، تطلب مني السماح لها بملء دلو من الماء من شقتنا لأداء مهام عملها. لم أبخل عليها طيلة بقائي هناك لأنني كنت أدرك مدى صعوبة المهمة التي تقوم بها.

من ناحية أخرى، بدأت ممارستي التدريس في مدرسة البنات اللاتي تراوحت أعمارهن في الفصول المُوكَّلة إليَّ بين ١٢ و١٣ سنة. فتيات في سن الورد، مليئات بالحياة ومتفتحات لتلقيها. لم

يكن الفرق في أعمارنا كبيرًا، أي ما بين تسع إلى عشر سنوات. وصولي للمدرسة صباحًا كان يستغرق تقريبًا نصف ساعة سيرًا لأن منزلي كان يقع في منطقة منخفضة، أما المدرسة فكانت مبنية على تلَّة مرتفعة. وأحيانًا كنت أمُرُّ على إحدى زميلاتي الجزائريات في الطريق لنصعد معًا إلى مكان عملنا. كانت من أظرف الزميلات اللاتي التقيتهن هناك، وأسعد بصحبتنا معًا في الصباح، وهي توجه لي بعض النصائح التربوية أو نتناول أحاديث في أمور عامة أخرى. مع الأسف لا أتذكر اسمها، فهذه الذكريات تعود إلى أكثر من خمسين عامًا. أحببت تلميذات فصلي، ولو أنني شعرت بقصوري في تعليمهن مادة الجغرافيا - التي فُرضت عليَّ في عقد العمل - بأفضل طريقة، إذ إنني لم أكن قد تعلمت هذه المادة خارج نطاق المناهج المدرسية التي تلقيتها قبل سنوات الجامعة. في نهاية سنة التدريس، نظمت بنات الفصل حفلًا صغيرًا لوداعي، وغنين أغنية بالفرنسية تقول: الوداع يا مُدرستنا، لن ننساك أبدًا، والمستوحاة من أحد أفلام سيدني بواتييه بعنوان: «إلى أستاذنا بكل الحب».

أنا مع تلميذات الفصل في مدرسة حسيبة بن بوعلي، الجزائر العاصمة عام ١٩٧٢

وصلتني منذ سنوات قليلة رسالة على فيسبوك من إحدى تلميذاتي السابقات في المدرسة الجزائرية، فأدخلتها إلى قائمة أصدقائي، واكتشفت على مر السنين أنها امرأة ناجحة في عملها

وسعيدة في حياتها الخاصة، وأبهجني ذلك. ثم جاءتني رسالة ثانية من تلميذة أخرى، وجدت اسمي على موقع التلميذة الأولى فأرسلت تقول إنهن لن ينسين أبدًا مَن ساهم في تعليمهن. إنها أمور تضيء لنا الحياة وتعطينا أملًا أننا لسنا وحدنا، وربما أسهمنا خلال مسيرة حياتنا بعمل إيجابي، حتى وإن استمرت هذه السنة المدرسية عامًا واحدًا فقط. حاولت بعد ذلك أن أجمع الصور المتوافرة لديَّ عن بنات الفصل، ولم أتمكن من التعرف يقينًا على الاثنتين اللتين تواصلتا معي. وإن كنت أتخيل وفقًا للشبه أن الأولى التي اتصلت بي كانت تحمل لقبًا عائليًّا مكونًا من ثلاثة حروف (SNP) أي اختصار من دون لقب للأب، فلما سألتها عن معنى هذا، أخذت تبكي وتقول لي إن لها أبًا، وإن هذا لا يعني أي شيء سوى إجراء بيروقراطي ربما تَعلَّق بسنوات حرب التحرير. طمأنتها آنذاك، وقلت لها إن هذا لا يهم بالنسبة إليَّ. أتمنى أن تكون هي الابنة التي أرسلت لي الرسالة الأولى وأن تعلم يومًا ما أنني أحببتها بغض النظر عن أي ظلم قد وقع عليها كطفلة، وأن عليها الفخر بأصولها مهما كان الأمر، ولكنني لم أجرؤ أن أفتح معها هذه الموضوعات التي قد تكون مؤلمة وحساسة بالنسبة إليها.

قبل انتهاء بقائي في الجزائر، حدثت بعض الأمور التي تحمل أهمية خاصة بالنسبة إليَّ ولكنني أوجزها فيما يلي:

أولًا: استمرار صداقتي بالمناضلين الأفارقة هناك الذين شعرت بأنهم اعتبروني جزءًا منهم. فكان هناك صديقان لديهما رغبة عارمة لإتمام الزواج بينهما. هذا الثنائي كان يتكون من شاب أنجولي اسمه أرنالدو وإحدى الثوريات الجزائريات كنا نسميها «زوزو» (لا أدري حتى الآن اسمها الحقيقي، هي بقيت زوزو بالنسبة إليَّ). اصطدما بالإجراءات الإدارية الجزائرية التي منعت الجزائريات في هذه الفترة من الاقتران بأجانب، مع أنني تعرفت أيضًا على ثنائي آخر الزوج فيه جزائري والزوجة فرنسية، ولا أعلم إن كانت هذه الأمور قد تغيرت في الجزائر إلى الأفضل منذ ذلك الحين. كانت هذه الصديقة حاملًا من رفيقها، وتتمنى أن تذهب معه إلى أنجولا حينما يحين موعد سفره إلى هناك للحاق بمهامه النضالية على أرض الواقع، وأن تنجب طفلًا ينتمي رسميًّا إلى أمه وأبيه. قررت أن أتوجه إلى أحد معارف والدي من ذوي الصلة القوية بالدوائر العليا، وطلبت منه المساعدة ودعوته هو وزوزو وصديقها إلى مسكني ليتعارفوا ويعرضا عليه مشكلتهما. وعد صديق أبي أن يحلها من خلال اتصالاته بدوائر الحُكم، ودعانا بعد أيام على وليمة من الأوزي المشوي - وهو الخروف الصغير - وبعض المقبلات الأخرى في مكان بديع بين أشجار الكرز، وواضح أن هذه المزرعة كانت ملكًا له. بعد تناول الغداء، دعا أصدقائي إلى الغرفة المخصصة لهما، ويبدو أنه ظن أننا ستكون لنا جولة خاصة معًا في إحدى الغرف الأخرى بالمنزل، ولكنني طالبته بإعادتي مباشرة بعد انتهاء هذه الوليمة إلى منزلي في مدينة العناصر، مُتعللة بوجود بعض الارتباطات الأخرى. تم الزواج الذي سعينا إليه، كما أسميا الطفل باسم صديق أبي عرفانًا بكرمه

ومساعدته لهما. وبذلك تحققت إمكانية ولادة الطفل القادم في ظروف تسمح بحصوله على هوية محددة خاصة به، تحمل اسم الأب والأم معًا وتُمكنه من العيش في عالم آمن نوعًا ما، بعيدًا بقدر الإمكان عن أي منغصات لحياته، وتسمح له باختيار طريق حياته مستقبلًا. عرفت بعدها بسنوات أن الوالدين رحلا إلى أنجولا معًا ومعهما طفلهما، وأن أرنالدو تُوفي في بلده مصابًا بسرطان المخ، بينما ظلت زوزو هناك تمارس مهنة التمريض. كما علمت فيما بعد أن صديق أبي صار وزيرًا، وبالتأكيد ليس بسبب تدخله لصالح أصدقائي!

الأمر الثاني: كنت قد تعرفت في فترة سابقة على أحد مناضلي مجموعة فريليمو لتحرير الموزمبيق. فلما التقينا بعد شهور طويلة، بدأنا بالخروج معًا، ثم ربطتنا علاقة أكثر حميمية. علمت منه أنه دائم السفر لتأدية مهام نضالية، وقبلت ذلك كما ظللت أقبل هذه النوعية من العلاقات التي لا تحمل أي أمل في الاستمرارية. ولكنني احتفظت بمشاعر الحب تجاه هذا الإنسان بالذات والتي لا تقوم على أي مبرر عقلاني، إلا فيما أحكيه في السطور القادمة.

الرسالة التالية عثرت عليها ضمن مجموعة من الخطابات كنت قد أرسلتها إلى صديقتي ليلى خلال إقامتي بالجزائر فاحتفظت بها ثم سلمتها إليَّ بعدها بسنوات، وأتحدث فيها عن مقابلتي لأشخاص جدد، وكتبت فيها:

سوف أحكي لك قصة قصيرة تخصني. أنت تعلمين أنني بعد وصولي إلى الجزائر سكنت في البداية لمدة شهرين عند أصدقاء من أنجولا، وبطبيعة الحال كنت أقابل هناك ناسًا من حركات التحرر الأفريقية الأخرى. في هذا الإطار تعرفت عندهم على شخص وجدته في البداية ثقيل الظل لأنه كان يبدو لي متفاخرًا بنفسه بطريقة مبالغ فيها من وجهة نظري، هكذا كان انطباعي عنه من دون أسباب أخرى محددة، فالحقيقة أنه لم يسئ إليَّ في شيء، ولكنك تعلمين كم يمكنني أن أكون مجنونة أحيانًا. فمثلًا جاء مرة إلى المنزل الذي استضافوني فيه وكنت وحيدة، ونظرًا لأن هذا البيت كان يقوم أيضًا بدور المكتب للحركة الشعبية لتحرير أنجولا، يظل باب الشقة مفتوحًا حتى ساعة دخول الجميع للنوم. كنت واقفة في دورة المياه المقابلة لباب الشقة وأصفف شعري أمام المرآة، ثم دخل وقال:

- مساء الخير.

همهمت بإجابة مقتضبة من دون أن ألتفت إليه، فسألني لو كان أي من الزملاء موجودًا، فكان ردي أكثر سخفًا من السابق:

- أنت ترى جيدًا أنه لا يوجد أحد هنا.

فشكرني بكل أدب ثم غادر. مرت أيام كثيرة، وجاء أبي لحضور مؤتمر هنا، وكان أوسكار (هذا هو اسمه) من المشاركين في المؤتمر نفسه. حدث في أثناء وجودي معهم في المؤتمر أن تحدثنا مطولًا معًا ووجدت أنه لم يكن إطلاقًا ثقيل الظل كما ظننت من

قبل. لم أقابله بعدها إلا خلال حفل نُظم في أحد بيوت الأصدقاء خلال النصف الأول من شهر مايو ١٩٧٢، أي قرب سفري إلى مصر. وهكذا تقابلنا مرة أخرى هناك ورقصنا معًا. كنت أشعر ببعض الضيق يومها (طبعًا لا أتذكر سبب هذا الضيق، ربما مشاكل في العمل، أو توتر ما بيني وبين زميلتي في السكن، أو مجرد ضيقي لترك الجزائر التي أحببتها على مَرِّ الشهور وتعلمت كيف أُقدِّرها)، سألته لو كان يمكننا التجول قليلًا في سيارته بعد انتهاء الحفل، فوافق على الفور. بعد جولة قصيرة أخذني إلى بيته واعتبرت ذلك في حينه مجرد مغامرة عابرة لأنني كنت غير مستعدة للارتباط بشخص بعد الإحباط الذي سببته لي علاقة سابقة. بعد هذه الأمسية، ظل مسافرًا للخارج لمدة لا أعلمها، كما كنت لا أعلم إن كان سيعود أصلًا إلى الجزائر. مع ذلك، فكرت فيه طوال الوقت خلال هذه المدة، بالتوازي مع محاولة منع نفسي من التفكير فيه، أصل الولد حلو والبنات بيتجننوا عليه، فقلت لنفسي مش معقول حادخل في دور منافسة، ولا مستعدة أجري ورا واحد أو أمثل الثقل والحركات القرعة بتاعة بنت عندها ١٦ سنة، فقلت يا بنت خديها من قصيرها وبعدين مش معقول هو يفكر يشوفك بعد ما يرجع، ده لو رجع من أساسه، لكن بيني وبينك كنت برضه بافكر فيه، أصل صاحبتك رومانتيكية حبتين وتستاهل ضرب الجزم. فاتت الأيام، وفي يوم سبت كنا قاعدين في صالة شقة مدينة العناصر أنا وشارلوت وصديقها، والكهربا مقطوعة والدنيا كُحل. حد خبط على الباب، رحت أفتح ولم أميز على الفور من كان الطارق ولكن في وسط العتمة اكتشفت أن أوسكار هو اللي قدامي، فبدأ قلبي يدق بسرعة ولكنني عملت نفسي مش فارق معايا وبوسته على خده زي ما باعمل مع أي صديقة أو صديق وزي ما شارلوت اتصرفت معه. فضلنا نرغي مع بعض لمدة نصف ساعة تقريبًا وصديق شارلوت قاعد على قلبنا. بعد كده شارلوت اتكلمت مع أوسكار بالبرتغالي وعزمته على العشا يوم الحد بالليل علشان صاحبها ما يفهمش وما يفضلش لازق. الحقيقة إن صديق شارلوت قال لها بعد كده:

- أنا فهمت إن نولة بتحب أوسكار من حاجة واحدة هي إن عينيها كانت بتلمع في الظلمة.

جه أوسكار يوم الحد بالليل وقعدنا نتكلم مع صاحبتي اللي وصل صاحبها بعد شوية وقال إنه عيان ودخل حجرة النوم وهي دخلت مباشرة وراه. فضلت أنا وأوسكار نحكي في مواضيع عامة، كأننا مكسوفين من بعض، وبعدين ضمني في حضنه وقال لي:

- باحبك.

فانتفضت وسألته:

- إنت بتحبني صحيح؟

وكان رده إنه بيحبني إلى درجة أن جسده يرتجف من شدة هذا الحب.

سأكتفي بهذا القدر من الخطاب، ولكن هذه اللحظات بقيت عالقة في ذهني وفي قلبي كل هذه السنوات حتى اليوم، فهي كانت من أنقى وأصدق الذكريات التي قابلتني طوال حياتي مع أي رجل عرفته قبله أو بعده، فنادرًا ما يُفصح رجل عن مشاعره بهذه التلقائية والنقاء من دون خجل أو مواربة. اضطررنا إلى الابتعاد عن بعض؛ هو إلى نضاله لتحرير بلده، وأنا بالعودة إلى مصر بعد انتهاء مدة تعاقدي في الجزائر، وهكذا انتهت أجمل قصة حب عشتها على الإطلاق. وعلى الرغم من أنني راسلته ثلاث مرات بعد افتراقنا، لم أرسل له عنواني الجديد على ظهر المظروف حتى لا يظن أنني ألاحقه، وبالتالي لم يصلني منه أي رد. ويبقى أن الاحتفاظ بالكرامة أغلى عندي من أي سلوك آخر، حتى في حالة الحب.

قبل مغادرتي بفترة وجيزة، تم استدعاء زميلتي في السكن شارلوت إلى أنجولا للمشاركة في العمل الميداني هناك، وعرفت فيما بعد أنها سافرت وهي حامل من صديقها، وأرسلت لي مرة صورة لابنتها التي أسمتها على اسمي. أما صديقها، فقد عرض عليَّ بعد سفرها أن أصاحبه بدوري. رفضت هذا العرض الوقح، وطردته من المنزل الذي يبدو أنه كان يريد أن يحتله من خلالي.

الأمر الأخير الذي أذكره من رحلتي في الجزائر والذي أثَّر فيَّ بعمق، أن حارسة البناية التي كنت أسمح لها بأخذ المياه من عندي لتنظيف السلالم، جاءت في يوم بعد أن علمت برحيلي القريب، ووضعت خلسة على طاولة قريبة من باب الشقة أربع بيضات وإصبعين من الموز. وكنت أعلم ارتفاع ثمن هذا الموز وحجم التضحية التي ستكلفها هذه الهدية.

يُقال إن الجزائريين شعب عدواني، وقد تشير طريقتهم في الكلام والتصرفات إلى ذلك الطابع. لكنهم شعب عانى سنوات طويلة من ظلم الاحتلال الفرنسي الذي سعى إلى محو هويته الأصلية، وفي الوقت نفسه استغله وحرمه من جميع حقوق الحياة بأبشع الوسائل وأقلها آدمية، من ضمنها بالقطع السعي إلى محو لغتهم الأصلية، ومن أبسطها أن هذا الاستعمار كان يقوم بحرمان هذا الشعب من الذهاب إلى شواطئ البحر في بلده، أي إلى بحرهم. ثم إن هناك أسلوبًا معينًا قادرًا على استيعاب غضبهم السريع الذي قد يعود إلى عدم فهم جميع الكلمات والمعاني التي ننطق بها بلكنتنا المصرية، خاصة أن سنوات الاحتلال الفرنسي سعت إلى طمس معالم اللغة العربية هناك، أو إلى ظنهم أحيانًا أن النكات التي نطلقها تسخر منهم، فطباعنا مختلفة عنهم ولا يُميزون دائمًا الجد من التهريج.

أخيرًا، ترك المُدرسون المصريون الذين خدموا بالجزائر في بداية الاستقلال ذكرى سيئة من التصرفات التي وصلت إلى أشكال من عدم اللياقة والاستهبال، وصولًا إلى حد تفكيك صنابير المياه في المنازل التي سكنوا فيها للعودة بها إلى مصر، وهو ما حكته لي مُدرسة مصرية من زميلاتي في العمل هناك.

رجعتُ إلى مصر في نهايات صيف ١٩٧٢ بعد تسليم نتائج الامتحانات وعهدتي من السكن، حاملة بداخلي كل الأحلام الضائعة، ولكن أيضًا بخبرة إنسانية واسعة. وعاد أبي إلى ملاحقتي للانضمام إلى مجموعتهم التنظيمية. في النهاية رضخت إلى ضغوطه، وفكرت أن ذلك قد يكون شبيهًا بالنضال الذي يخوضه أوسكار من أجل بلده. فانخرطت في العمل النضالي بالتوازي مع بحثي عن عمل بدلًا من البقاء عاطلة.

وجدت والدتي وظيفة لي من خلال إحدى زميلاتها في العمل مع أحد المنتجين السينمائيين بصفتي سكرتيرة له. كان الرجل مهذبًا، ولم يحاول في أي لحظة استغلال منصبه للدخول في علاقة لم أكن لأقبلها في جميع الأحوال، ولكنه كان يحب أن يشكو لي مما فعلته به طليقته، الممثلة المشهورة، وكيف استولت على أهم المقتنيات الثمينة في بيته بعد طلاقهما. أعتقد الآن - بعد خبرة السنين وبعد التقدم في السن - أنه كان يبحث فقط عن أذن مصغية لآلامه، وأظن أنني فعلت ذلك مرارًا وتكرارًا مع كثيرين على امتداد حياتي.

العمل التالي جاءني فيما بعد عن طريق والدي من ناحية إحدى موكلاته التي سبق لها التمثيل هي الأخرى، ثم اتجهت إلى مجال الفندقة. وكانا قد تشاجرا قبل فترة دخوله السجن والتي استمرت ما بين ١٩٥٩ إلى منتصف الستينيات لأنه رفض رفع دعوى ضد أحد العاملين في فندقها متهمة إياه بالسرقة. هكذا كان أبي، ينحاز باتساق مع نفسه وقناعاته في جميع الحالات إلى جانب العمال، ولكنه اعترف لي بعد خروجه من السجن بأنها كانت على حق في اتهامها لهذا الرجل وبأنه أخطأ في تقدير الموقف. كانت أمي شديدة الغيرة من هذه المرأة، خاصة أن أبي تجرأ وقال لها يومًا إنها تمتلك أجمل عينين رآهما في حياته. فاشتعل صدر والدتي غضبًا حتى صحَّح أبي هذا الخطأ الفادح بعد فترة طويلة من الزمن، وقال لها إنها هي التي تمتلك أجمل عينين في الدنيا، ولكن ذلك لم يُطفئ لديها الشعور بالمنافسة بينها وبين صديقة أبي. لا أدري إن كانت هذه الأخيرة قد تعمدت إظهار تفوقها على أمي في حياة والدي، فكانت تدعو أبي - من دون تضمين والدتي في الدعوة - لقضاء يوم كامل معها في مزرعتها. فلما عاد مرة من هناك مُحمَّلًا ببعض من ثمار المزرعة التي أهدتها إليه، كانت إجابة والدتي إن بيتنا مليء بالفاكهة من جميع الأشكال ولا نحتاج إلى شيء من أحد. ولما راح يحكي لنا عن المشروعات التي تفكر هذه الصديقة في إنجازها ومنها بناء نوع من الفنادق الصغيرة (الأوبرج) في مزرعتها، كان رد والدتي التلقائي:

- وهي عمرها ما فكرت في الموت؟

المهم، جلست جلسة مُطولة مع الصديقة الفاتنة التي تُقلق منام والدتي، وراحت تحكي لي عن طفولتها في منزل جدتها الإقطاعية، وكيف رأتها الجدة في يوم وهي تمتطي الحصان المُحبَّب لها، وتميل على عنقه لتُقبله فقررت الجدة إخضاعها لعملية الختان. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع

فيها عن هذه العادة. عمومًا، لم أمكث طويلًا في هذه الوظيفة بعد أن أفهمتني صاحبة الفندق المهام الوظيفية التي من المفترض أن أقوم بها، ومن ضمنها خروجي في نهاية يوم العمل إلى الصالة للجلوس مع بعض رواد المكان. هنا قررت الاعتذار نهائيًّا عن الوظيفة. لكن كان من حسن حظي أن تزامن ذلك مع الإعلان عن عقد دورة تدريبية يُنظمها المركز الثقافي الفرنسي لتعلُّم الوسائل السمعية البصرية في التدريس، فقدمت طلبًا للالتحاق بها.

في هذه الأثناء بدأت ممارسة مهامي النضالية التي تمثلت - بكل أسف - في القيام بدور السكرتيرة المُطيعة التي تطبع أحيانًا بعض الأوراق، أو تنقل خطابات من مكان إلى آخر، أو حتى تقوم بمساعدة أطفال الزملاء في تعلُّم اللغة الفرنسية كأحد التكليفات النضالية. وقد أنَّبني مؤخرًا واحد من هؤلاء الأطفال الذي قد أصبح رجلًا لأنني حرمته من ممارسة اللعب مع أصدقائه مع إبقائه بجانبي لتلقِّي دروس اللغة الفرنسية، ولكنني لم أكشف له أنني كنت متورطة أنا الأخرى حتى لا تتغير صورة والده في عينيه، خاصة أن هذا الأب كان من النادرين الذين احترمتهم في هذا المجال بسبب مواقفه الإنسانية معي في أمور مختلفة. ولكن التربية التي علَّمها لي أبي اضطرتني إلى قبول هذه الأوضاع والرضوخ إلى الانضباط المطلوب اعتقادًا مني بأنها الخطوات الأولى نحو ممارسة النضال الحقيقي كما كان في مخيلتي، وهو الظن الساذج الذي استمر معي لمدة سنوات تالية. بمناسبة هذه النوعية من السذاجة، أتذكر أن أونكل حلمي ياسين الذي سبق الحديث عنه، حكى لي يومًا أنه تقابل مع أبي في سجن مصر، فبشَّره هذا الأخير بأن عضويته قُبلت في مجموعة طليعة العمال والفلاحين، فجاء تعليقه الساخر لي:

- وأنا اللي كنت فاكر إني عضو منذ عشر سنوات مضت!

وظل يضحك مستهزئًا من نفسه.

في مايو ١٩٧٣، قُبض على والدي ومجموعة أخرى من زملائه. بالمصادفة، كانت صديقتي عصمت قد نامت عندنا هذه الليلة لأساعدها في التحضير للامتحان الذي رسبت فيه وعليها أن تخوضه صباح اليوم التالي. فلما عادت إلى البيت اكتشفت ما حدث، ورفضت أن تترك بيتنا طوال فترة بقاء أبي في السجن، أي ثلاثة أشهر. ساعدتني في إخراج أي أوراق من المنزل، وكانت تقول لي:

- طيب علميني أقول أي حاجة لو قبضوا عليَّ.

وفي إحدى الزيارات صممت أن تأتي معنا لتزور أبي الذي كان محبوسًا في سجن القلعة للمرة الثانية. لما دخلنا إلى حجرة الزيارة سأل الضابط المسؤول عن الجلوس معنا من هي، فرد عليه والدي:

- دي حلويات.

مما أدهش الضابط الشاب. الحقيقة، هم دول ستات مصر الجدعان.

ظل والدي في سجن القلعة إلى أن أُفرج عنه بناء على مرافعة قوية من الأستاذ عادل أمين المحامي الذي رد خلالها هيئة المحكمة بعد الحصول على موافقة أبي للسير في هذا المسلك القانوني الذي يحمل بعض المُخاطرة. كان أبي يبلغ حينما خرج من محبسه قرب الأربعة وستين عامًا، وشعرت أنا ووالدتي بكم الإنهاك الذي طاله بعد كل هذه السنوات الطويلة من السجون والمعتقلات. فتحدثنا معه، وأقنعناه بالسفر خارج مصر لمدة معينة حتى تهدأ الأمور ويستطيع العودة إلى وطنه، وأنني في جميع الأحوال باقية هنا يمكن أعرف أسِد مكانه ولكنني كنت أشك كثيرًا في قدرتي على ذلك، خاصة مع نوعية التكليفات التي حظيت بها. يبدو أن هناك آخرين أقنعوه أيضًا بفكرة السفر والابتعاد، إما خوفًا عليه أو قلقًا من وجوده بينهم بالفكر الراديكالي الذي يحمله. نجحنا في ذلك الصيف في الحصول على تصريح عمل له بالجزائر كمترجم في شركة سوناتراك للبترول. وجاء ذلك بفضل الصديق الذي سبق له الحصول على تصريح الزواج لأرنالدو الأنجولي وزوزو الجزائرية.

أما فيما يتعلق بفترة بقاء والدي في سجن القلعة، فأتذكر أنني ذهبت مرة إلى وزارة الداخلية لإرسال بعض الكتب له، فبقيت فترة ملطوعة في مكتب أحد الضباط إلى أن اتصل بشخص آخر يبدو أنه في غرفة مُجاورة وقال له:

- تعال أنا عندي حاجة حلوة في مكتبي.

قمت منتفضة بغض النظر عن المعنى المقصود من الرسالة التي سمعتها ولكنها كانت مريبة، وخرجت من المبنى، ثم توجهت على الفور إلى مكتب المحامي عادل أمين الذي أبدى استفزازًا عميقًا من هذا الموقف، وطلب مني ألا أتعامل بعد الآن مع الداخلية وإنما مع مكتب المُدَّعي الاشتراكي الذي كان مسؤولًا عن القضية (وهو الجهاز الذي لم يعد موجودًا فيما بعد). فلما ذهبت إلى هذا المكتب بالكتب التي أريد إرسالها، استقبلني هذا المُدَّعي الاشتراكي بطريقة لطيفة وطلب مني التعامل معه وحده، وقد أدركت من طلبه هذا أن الأستاذ عادل أمين كان قد تواصل معه وحكى له الواقعة.

قدمت طلب الالتحاق بالدورة التي يُنظمها المركز الفرنسي كما تقدمت لها مجموعة من المتدربات اللاتي أصبحن فيما بعد زميلات - وبعضهن صديقات - العمل المستقبلي. كما تعرفنا خلال الدورة على زميلات يمارسن المهنة منذ سنوات في هذا المركز، ويقمن بالمشاركة في توفير التدريب لنا، منهن بصفة خاصة كورنيليا فرناندیز، وهي السويسرية التي ربطت مصيرها بعضو في إحدى الفصائل الأنجولية المختلفة عن التي انتمى إليها أصدقائي من المناضلين الأنجوليين، وكانت تؤدي أداء ممتازًا في تعليم الكبار، وفي تعليمي كيفية جذب اهتمام الطلبة وتنشيط

مشاركتهم. كان لها طفلان، أحدهما ابنة اسمها جينجا رائعة الجمال بشعرها الذهبي وعينيها الفاتحتين كالأم وبشرتها البرونزية من ناحية الأب الذي لم يكن - حسب زميلتي - الأب أو الزوج المثالي. وحكت لي أن لها صديقًا مصريًّا شابًّا يصغرها ببضع سنوات ويبدو لي - مما شاهدته من علاقتهما - أنه كان يعيش على حسابها. تعلمت كثيرًا من كورنيليا في إطار صنعة التدريس بالطرق السمعية البصرية، المنهجية التي كانت حديثة الاستعمال في مصر، وربطتني بها صداقة وإن كنتُ متحفظة على الشاب الذي تعرفه، ولكنني لم أتدخل بالنقد أو بالجدال معها بهذا الشأن في أي لحظة.

الزميلة الأخرى التي ربطتني بها صداقة عميقة هي نادية إدريس، المُعلمة الفذة، وفيما بعد الصديقة التي تعرفت في بيتها على الفنان حسن سليمان صاحب اللوحات التي تستولي على وجدانك، وخاصة تلك المرسومة بالفحم حيث يُخلط فيها اللون الأسود والأبيض والفضي، وأتذكر بصفة خاصة لوحة ليدين ربما كان قد رسمها في أثناء إحدى الوقفات الطلابية بميدان التحرير. كنت أزور نادية في منزلها بالزمالك، وأشاهد كل الرقي الذي أدخلته على هذا المنزل، وتعلمت منها حب النباتات والعناية بها. كما أنها أهدتني في بداية ممارستي للطهي كتاب «أبلة نظيرة» الذي تعلمت منه كثيرًا وظل يلازمني حتى الآن وإن أصبح شبه مهلهل من كثرة الاستعمال.

الشخص الآخر الذي ربطتني به صداقة وثقة كبيرة، كان فيليب مدير قسم اللغات بالمركز وبالتالي مديري في إطار قيامه بالإشراف على مجموعة المُعلمات. وهو الذي حرص أن يُعرفني على زوجته المصرية ذات العينين الفاتنتين ويدعوني إلى بيتهما من وقت إلى آخر. بعد مرور ما يقرب من سنتين بدأت إحدى زميلاتي في العمل تطلق تلميحات أمامي مفادها أنه مطلوب القبض عليَّ. ولديَّ شعور قوي بأنها كانت على صلة ببعض الأجهزة الأمنية، ولكنها أرادت - لتفاقم إحساسها بأهمية الذات - التباهي بحجم علمها بجميع الأمور حتى لو كان هذا على حساب دواعي الاحتفاظ بسرية علاقاتها. ذهبت إلى فيليب وحكيت له ما حدث، فأصرَّ أن عليَّ مغادرة مصر على الفور واللحاق بوالدي في الجزائر، وأنه سوف يوصلني للمطار حتى آخر لحظة لحين التأكد من مغادرتي بخير. التقيت بفيليب بعد سنوات في باريس، وقضينا سهرة ظريفة نجترُّ فيها الذكريات ما بين المبهج والمؤلم منها. وأخبرني أنه طلَّق زوجته المصرية بعد أن اكتشف خيانتها له على مرِّ سنوات، وهو الأمر الذي لا أستطيع الجزم به أو نفيه لأنني لم أكن ممن أخبروه بذلك أو حملت أي شكوك بشأنه، ولم أستمع إلى وجهة نظر الطرف الآخر، خاصة لأنني لا أُفضِّل التدخل في الحياة الخاصة للناس. كما أخبرني أنه تزوج من أخرى، فرنسية هذه المرة.

عندما وصلني التهديد غير المباشر من زميلة العمل، سافرت إلى الجزائر في بدايات ١٩٧٥ لأرتمي في الأحضان الحنونة لأمي وأبي. وبقيت معهما فترة، يعرفاني على أصدقائهما المصريين الجدد الذين يستضيفانهم بكل كرم في بيتهما. كما تصادف أن التقيت للمرة الأولى بمحمود

المستكاوي وزوجته طنط سعاد وابنهما عدلي الذي أصبحنا فيما بعد صديقين بمعنى الصداقة الخالصة، فكنت أعبر له بكل صدق عن رأيي في صديقته الجزائرية آنذاك، وهو يضحك من كلامي. كما حالفني حسن الحظ أن أستمع للمرة الأولى إلى قصيدة «رحلة الحجلات» لمحمود المستكاوي والتي أحيت بداخلي ذكريات قديمة. وكنا في تلك السهرة الحميمية مع المفكر محمود أمين العالم الذي تأثر كثيرًا بالقصيدة، غالبًا ما أرجعته هو الآخر إلى سنوات السجن والحرمان والقهر.

دخل والدي السجون والمعتقلات مرارًا وتكرارًا، في ظل الملكية، وانتهاءً بعام ١٩٧٣ الذي فيه كانت آخر جولاته كسجين، وزار عددًا كبيرًا من سجون مصر منها: أرميدان، والهايكستب، وأبو زعبل، وأوردي ليمان أبو زعبل، والقلعة، وعيون موسى في سيناء، والحضرة في الإسكندرية، والمحاريق في الواحات، وسجن أسيوط. عندما سألته أي من فترات السجن كانت أرحمها، رد عليَّ بلا تردد بأنها فترة الملكية، وفيما عدا هذه الفترة الأخيرة التي كان فيها وعيي محدودًا، ظللت طوال السنوات أصاحب والدتي في زياراتها له. والواقع أن والدتي قامت بدور يُحتذى به في دعم والدي خلال كامل حياتهما الزوجية حيث استمرت في العمل حتى بعد سن التقاعد (وهي التي بدأت مشوارها المهني في سن المراهقة بسبب ظروفها الأسرية) وفي الوقت نفسه تواظب بانتظام على زيارة والدي أينما أخذته جولاته السياحية في السجون مع إعداد كمية كبيرة من الطعام له ولزملائه على الرغم من قلة دخلنا. ثم رافقته من دون تردد إلى المنفى الطوعي الذي ارتضاه والدي بعد محبسه لمدة ثلاثة أشهر في عام ١٩٧٣ وهو يبلغ من العمر ٦٤ سنة.

هذه الأحداث مجتمعة كانت عاملًا آخر في تكوين شخصيتي، وقد علَّمتني كثيرًا الانحياز لمن يعانون من القهر والظلم والوقوف بكبرياء وشجاعة أمام من يمارسونه، وألا أرضى بفرض الأوامر عليَّ من أحد وألا أقبل إلا الندية في التعامل. كما أصقلت قدرتي منذ الصغر على تحمل مسؤوليات الحياة التي اعتبرتها - وما زلت - شيئًا طبيعيًّا لابنة من أسرة مناضلين. والواقع أن أُسَر المسجونين يعانون نفسيًّا والأغلب ماديًّا أيضًا بالقدر نفسه الذي يعاني منه الإنسان المحروم من الحرية. وأتحدث هنا أساسًا عن مسجوني الرأي، ولكن قد ينطبق هذا أيضًا على أُسَر أي مسجون، لا أعلم. فالواقع أن الأُسَر في أغلبية هذه الحالات لا حول لها ولا قوة إلا الوقوف إلى جانب المسجون أو المسجونة، ومعاناة الإحساس بالقلق الدائم على أحوال هذا الشخص داخل محبسه، ومشقة الزيارات للسجن التي قد تتخذ أحيانًا طابعًا مهينًا، وضيق ذات اليد بسبب غياب أحد أفراد الأسرة، خاصة إذا كان عائلها الوحيد.

قضيت فترة ثانية في الجزائر تدللني أمي، ويعرفني أبي على أصدقاء آخرين، منهم رجل دين برازيلي اسمه ألميري كان متزوجًا من يوغوسلافية لا أتذكر اسمها الآن، وأخذ هذا الشخص يُعرِّفني على فكر باولو فريري. ذلك الكاهن المسيحي المُتحرر والمناضل الثوري البرازيلي من

أجل تحرير المقهورين. وعلى حسب ما تعلمته أن فريري كان يرى أن داخل كل إنسان حجمًا هائلًا من المعرفة لا يُدركه بطريقة واعية، وبصفة خاصة من ليس لهم صوت مسموع على مستوى مجتمعاتهم، وأن علينا تحفيز استخراج هذه المعرفة من أجل التغلب على الصمت المفروض علينا من جانب القاهرين. وأقنعني ذلك الصديق البرازيلي أن نسعى معًا إلى إعادة تجريب منهج فريري مع مجموعة من العمال الجزائريين. فقمنا بداية بالاستعانة بمعلم جزائري كان يتقن اللغة العربية بالإضافة إلى اللهجة الجزائرية واقتنع بالفكرة وهو ما كان الأهم بالنسبة إلى هذا الفريق. بدأ ثلاثتنا من خلال سلسلة من الجلسات المتتالية في تطوير المنهج الذي قررنا تطبيقه على بعض عمال الغابات هناك. يتمثل المنهج في إطلاق مناقشة مفتوحة حول موضوع يكون في قلب اهتمامات وهموم عامة الناس، واستخلاص نتائج هذه المناقشة معهم وبواسطتهم، ثم الانتقال إلى كيفية كتابة أهم كلمة دارت حولها المناقشة على هيئة مقاطع لغوية وتدريب المتعلمين على إعادة استعمال تلك المقاطع أولًا في تبديلات وتركيبات ثم في كتابة كلمات جديدة. فعلى سبيل المثال كان اختيارنا للكلمة الأولى هي «صابون» التي كانت موضوع الساعة بسبب الأزمة الكبرى التي لحقت بمنتجات النظافة في ذلك الوقت بالجزائر. فبدأنا النقاش حول هذه الكلمة من خلال طرح مجموعة من الأسئلة بدأت بكيف يُصنع الصابون؟ ماذا يعني الصابون بالنسبة إلى حياتكم؟ ما مدى توافره الآن؟ ما السبب في هذه الأزمة؟ إلخ. تاركين قيادة المناقشة لهؤلاء المُتعلمين الجدد الذين ربما لم يدخلوا التجربة في بدايتها بثقة عميقة في جدواها ونتائجها. ولكن ما إن بدأوا يتكلمون - أي التعبير عن أنفسهم، ووجود ناس يستمعون باهتمام إلى ما يقولون، وهو الأمر الذي لم يختبروه من قبل - حتى تدفق سيل الكلام، إلى أن قال أحدهم:

- هذه الأزمة ناتجة عن الفساد السائد في البلد، والذي لا بد من القضاء عليه نهائيًا.

كنا قد وصلنا إلى النقطة الفارقة في المناقشة، أي الوصول إلى المرحلة التي يتولد فيها الوعي بقدرات الذات، فبدأنا في عرض كلمة صابون على السبورة متقطعة على الوجه التالي: صا / بون. بعد بداية قراءتها وإحداث تنويعات لغوية عليها، منها: صان، صاب، صون، بان، ناب، إلخ. وكان المتعلمون هم الذين يكتبون بأنفسهم الكلمات الجديدة التي اكتشفوها على السبورة. استمرت هذه الجلسات على كلمات وموضوعات أخرى حتى بعد مغادرتي للجزائر وعلمت لاحقًا أنهم نجحوا جميعًا في اجتياز اختبارات محو الأمية الأبجدية، لكنهم نجحوا أساسًا في اكتساب الشعور بالقيمة الذاتية وبامتلاك القدرة على التعبير عن أنفسهم وعن أفكارهم، وربما التطلع إلى تخطي الوضع الذي سعى القاهرون إلى إبقائهم فيه. أثرت فيَّ هذه الخبرة كما أثرت على مسيرتي المهنية المستقبلية، وعلمتني أن العمل مع المقهورين لا يقل - بل يزيد - عن أهمية العمل كسكرتيرة في إحدى المنظمات الشيوعية.

في أثناء وجودي هذه المرة الثانية بالجزائر، سمعت للمرة الأولى عن الثنائي أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وعن شيوع صيتهما في الأوساط التقدمية المصرية، وكنت شغوفة بالاستماع إليهما وإلى أشعارهما والأغاني المصاحبة لها. كما كان ألميري قد عرَّفني على بعض الشابات والشباب من الفرنسيين الذين كلموني بكل إعزاز عن المهندس حسن فتحي صاحب تجربة قرية القُرنة في الأقصر، والتي زرتها خلال زيارتي للأقصر بعد أن كانت قد أصبحت شبه مهجورة.

بعد حين، جاءني صديقي جان بيير واقترح عليَّ الذهاب معه إلى الجبل لمشاهدة الثلج للمرة الأولى في حياتي. تحمست للفكرة، خاصة أن وجودي مع جان بيير كان دائمًا من أبهج الأوقات. سافرنا معًا في مكان جبلي بالجزائر يعلو مدينة البليدة المعروفة أيضًا باسم مدينة الورود، وقضينا هناك أوقاتًا سعيدة، نتبادل الذكريات، والأخبار الخاصة، وحكيت له عن أوسكار، وحكى هو لي عن علاقاته الغرامية، وضحكنا كثيرًا معًا، وحِكنا المؤامرات البسيطة لإبعاد بعض الرجال اللحوحين عني. كما قمنا في أثناء الرحلة بركوب الزلاجة الصغيرة التي يتزحلق بها الناس على الجليد ممن لا يعرفون استعمال التزلج وقوفًا بالعصيان الخاصة بهذه الرياضة. وبدأنا نحيك معًا المؤامرات للتخلص من أي دخيل يسعى إلى التفريق بين صداقتنا. وعرض عليَّ جان بيير أن أترك الجزائر وأذهب لفترة إلى باريس في ضيافة والدته جاكلين ثييك. كما حكى لي أنه كان ابنًا غير شرعي للورد بريطاني بينما والدته مناضلة شيوعية فرنسية من أصول تونسية، وقصَّ لي أنه أراد يومًا ما أن يُعاقِب والده على تركه هكذا من دون لقب أب، فذهب إلى لندن، وطرق الباب وطلب أن يقابل هذا الرجل الذي لم يعرفه قَطُّ. فلما جاء الأب، قال له:

- أنا جان بيير.

ثم أدار ظهره ورحل من دون أن يعطي فرصة للآخر لتبرير نفسه. اعترف لي أيضًا، بأن الواقع الذي عاشه من دون أب قد أثر كثيرًا على مجرى واختيارات حياته.

بعد ذلك سافرت إلى فرنسا وسكنت بالفعل عند جاكلين ثييك لمدة تقترب من ثلاثة أشهر تعرفت فيها على إنسانة معطاءة، وكريمة، ومُرحبة، وضاحكة في جميع الأوقات. كانت الحياة في منزلها سهلة ومريحة، ومنحتني غرفة ابنها الذي عاد إلى التجوال في جميع أرجاء الأرض.

في أثناء وجودي بباريس، اتصلت بالصديقة سهير سيد، الطبيبة المصرية التي هاجرت إلى لندن لممارسة مهنتها هناك. فاتفقنا أن تأتي لنتقابل في فرنسا التي لم ترها من قبل. فوجئت بأنها جاءت بصحبة أحد زملائها من الأطباء المصريين المقيمين هناك منذ زمن طويل، قادمين بسيارته الخاصة. لما ركبت معهما، كنت أريد أن يشاهدوا بعض معالم باريس، وعلى الأخص نهر السين، والكباري الأثرية الشامخة التي ينساب تحتها، وأرصفة بائعي الكتب القديمة الكائنة تحت الكباري على ضفاف النهر. لاشعوريًّا، كنت أنا وسهير نطلب منه:

- وحياتك يا أحمد ودِّينا جنب النيل!

إلى أن صاح فينا وهو في قمة الانهيار:

- كفاية بقى، ما تقولوش النيل، أنا عايز أنسى.

بعد هذا الفاصل الدرامي، قررنا أن نُصالحه بأن أخذناه بناء على طلبه إلى حي بيجال المشهور بالراقصات العاريات. جلسنا في إحدى الصالات، وإذ بأخينا يكاد ينفلت من مقعده ليلحق بهؤلاء الراقصات على خشبة المسرح، فاضطررنا لسحبه إلى الخارج لإنهاء هذه السهرة، وتجنب المزيد من الفضائح، ولكننا ظللنا سهير وأنا نضحك على منظره.

في نهاية رحلتهما، حاولت سهير إقناعي بالسفر إلى إنجلترا للسعي إلى العثور على عمل هناك. ذهبت بعد أيام إلى القنصلية البريطانية للحصول على تأشيرة دخول على الرغم من أنني لم أكن متأكدة تمامًا من رغبتي في الذهاب إلى هناك، خاصة أنني لم أشعر براحة كبيرة من الوجود في لندن خلال زيارتي السابقة في أحد أشهر الصيف، تلك المدينة التي يُخيِّم عليها الضباب وتهطل عليها الأمطار بصفة شبه دائمة كما كان قد بدا لي. بعد فترة طويلة من الانتظار، كنت قد تلقيت عرضًا جديدًا من صديقي فيليب، مدير قسم اللغات بالمركز الثقافي الفرنسي، بالعودة إلى عملي كمُعلمة. فلما استُدعيت إلى القنصلية، قابلني القنصل البريطاني بكل أدب وأبلغني بأنه حينما دخل ملفي إلى الكمبيوتر في المقر الرئيسي بلندن استنتج الجهاز أنني أريد الذهاب للعمل، وأن طلبي رُفض لهذا السبب ويمكنني الطعن على هذا الرفض واقترح أن يعطيني قائمة بأسماء ووسائل الاتصال بمحامين بريطانيين للقيام بالإجراءات اللازمة لصالحي، أي الطعن على الامتناع عن منحي تأشيرة للدخول. بكل فخر، أجبته بأنني لا أحتاج إلى هذه القائمة، لأنني عائدة إلى بلدي خلال أيام، والحق أنني كنت بدأت أحِنُّ بشدة إلى مصر وأهل مصر. وكان ذلك في منتصف عام ١٩٧٥.

قبل العودة إلى بلدي عام ١٩٧٥ وضعت لنفسي مهمة القيام بثلاثة أمور أساسية هي: العودة إلى العمل، ولقاء الصديقات والأصدقاء، وحضور حفلة للشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم.

بالنسبة إلى العمل، فقد أنجزتُ هذه المهمة بأقصى سرعة بفضل دعم فيليب لي، وترحيب الزميلات والزميل الذَّكَر الوحيد بي. ودخلت مرة أخرى في جو الفصل والتواصل مع الطالبات والطلاب، وتفعيل منهجية ديناميكية المجموعات التي سبقت منهجية تيسير التدريب بطريقة تشاركية بحيث يقع جميع المشاركين على مسافة واحدة من بعضهم البعض ومع مَن يقوم بتيسير التدريب، وكان هذا يستدعي وضع المتدربين في حلقة نصف دائرية والوقوف في مواجهتهم جميعًا بحيث نستطيع ممارسة لقاء بصري والانتباه إلى كل واحدة أو واحد منهم. كنت أُفضِّل التعامل مع فصول المبتدئين، أي الذين لم يسبق تشويه إدراكهم للغة الفرنسية، مع أن اليوم الأول في كل فصل جديد كان يُمثل تحديًا خاصًّا لي فيما يتعلق بالتغلب على خجلي الأزلي الذي يتنامى مع ترقُّب عيون الجميع لأداء هذه المُعلمة الشابة، وإن كنت قد كبرت ووصلت إلى سن السادسة والعشرين (يعني مش صغيرة قوي). كنت أحاول إخفاء نفسي وراء علبة من المناديل حتى أسترد أنفاسي وأبدأ بتقديم نفسي بالفرنسية (مع ملاحظة أن اسمي غير المألوف كان يثير أحيانًا بعض الدهشة بين الحاضرين)، ثم أبدأ بالفرنسية أيضًا الإشارة إلى كل طالبة وطالب ومطالبتهم بتقديم أسمائهم للمجموعة بالطريقة نفسها التي اتبعتها. فالمنهجية التي تعلمناها في أثناء فترة تدريبنا على الوسائل السمعية والبصرية وما بعدها من خبرة عملية كانت تقوم على مقاربة التعلُّم بالمشاركة، وهو ما اختبرته أيضًا خلال زيارتي الأخيرة للجزائر. أي أن مهمة المُعلم أو المعلمة تقترب أكثر من دور المُيسر أو الميسرة للعملية التعليمية عن توفير التعليم بالمعنى التقليدي للكلمة (أي التلقين الذي تمت ممارسته معنا خلال السنوات المدرسية، وربما ما زال) مع التأكد أن الجميع يُشارك بطريقة متساوية، واقتصار التدخُّل على تعديل بعض الأخطاء في النطق أو في استعمال عبارات لا تتفق مع المعنى المقصود. الميزة الأخرى للعمل مع المبتدئين بهذه المنهجية، هي خلق جو من الثقة المتبادلة من جهة، ولمس التطور درسًا بعد درس من جهة أخرى. وهو ما يضيف شعورًا عميقًا بقيمة إضافتك للآخرين، وبتطور الطفل من الخطوات الأولى في النطق إلى مرحلة أرقى للتعبير. ومع ذلك، أذكر على سبيل الفكاهة أنني في اختبارات نهاية إحدى الدورات التدريبية، سألت بالفرنسية طالبًا:

- أين منديلك؟ (موشوار بالفرنسية).

متوقعة أن يجاوبني أن منديله في جيبه (وكلها كلمات تعلمها في الدورة)، فجاوبني بالعربية مما

أدهشني نظرًا إلى أنه اختبار باللغة الفرنسية:

- مشواري لحد الأوبرا.

وهكذا فالنتيجة ليست إيجابية دائمًا كما نأمل، وكانت هذه أيضًا من الدروس المُستفادة.

صحيح أنني درَّست أيضًا للصفوف المتقدمة، ولكن البهجة في رؤية التقدم لم تكن مماثلة، وإن كانت هناك أوقات عديدة من الإشباع المهني والتواصل الإنساني. أذكر هنا طالبتين مميزتين من المستوى الثالث أو أعلى على ما أتذكر، هما: الدكتورة أماني قنديل النابغة وخبيرة دراسات المجتمع المدني التي علَّمتني كثيرًا فيما بعد من خلال عملي معها واستمرت صداقتنا حتى اليوم، وكاتبة السيناريو الموهوبة والواعية عزة شلبي التي ما زلت أراها أحيانًا في مناسبات عامة تجمعنا باعتبار أن كلتينا تُعتبر من النسويات.

من ضمن المهام الجديدة التي طرأت عليَّ في إطار عملي، كانت المشاركة مع عدد من زميلاتي لتدريب المُعلمين الجُدد. كما كنا صديقتي نادية إدريس وأنا قد قررنا في إطار هذه التجربة تطبيق طريقة جديدة نوعًا ما، اطَّلعنا عليها في إحدى الدورات التربوية الفرنسية حول تعليم الطلاب قراءة وفهم بعض مقاطع الأخبار المُختصَرة من صحف فرنسية، واستيعاب تلك النصوص من خلال التعرف على الكلمات المفتاحية التي تعلموها، وبالتالي فهم المعنى الإجمالي لها والتعبير عنه للتأكد من أن المعنى قد وصل إليهم فعلًا، وخُضنا في هذه التجربة مع بعض الفصول التي نعمل معها، لكنني غير متأكدة من أنها نجحت تمامًا. وأذكر أيضًا أنه كان علينا في إحدى المرات توفير التدريب لمجموعة من الفرنسيين الذين جاءوا في إطار تأديتهم للخدمة العسكرية. ولما كنا - كفريق مُعلمات - ننادي بشروط عمل أفضل، ومنها توثيق عقود العمل وتسجيلنا في نظام التأمينات الاجتماعية، وهي المطالب التي ظلت ترفضها الإدارة، أبلغنا طلابنا الجدد بنيتنا بالتوقف عن توفير التدريب لهم لفترة معينة، فما كان منهم إلا أن تضامنوا معنا بطريقة تلقائية وأعلنوا ذلك لإدارة المركز الثقافي الفرنسي. لقد مرَّت سنوات العمل في هذا المركز كالبرق لأنني أحببت هذه المهنة، وأظن أنه حينما يتعلم أو يعمل الإنسان في مجال يحبه تكون لديه القدرة على إتقانه بطريقة أفضل مقارنة بالاضطرار لتأدية عمل غير مرغوب فيه.

أما مهمة التقاء الأصدقاء، فقد بدأت بصديقاتي ليلى وعصمت، وعلمتُ وأنا في الجزائر أن الأخيرة تزوجت بطريقة الأفلام الدرامية، وطُلقت بطريقة مماثلة. وكان والدي قد حكى لي عند عودتي عن اقتحام والدها لبيتنا بعد زواجها للبحث عنها (وربما لتأديبها أو حتى لقتلها)، ففتح له أبي الواثق من عدم وجودها بالداخل أبواب المنزل ودعاه إلى الدخول والتفتيش، ثم جلس معه ليحاول إعادته إلى الصواب، لا أعلم ما حدث فيما بعد، لكن يبدو أن والدها قد هدأ، وظلت هي ممتنة لوالدتي ووالدي للوقوف معها على الرغم من عدم ارتياحهما أو اقتناعهما بالطريقة التي

تزوجت بها. جلسنا نحن الثلاثة معًا على مدى ساعات نحكي عن أخبارنا، وتطلعاتنا، والأحلام التي تبخرت. كما فرحتا كثيرًا بنبأ عودتي إلى العمل. وكانت ليلى قد التحقت كمُدرسة للغة الفرنسية في كلية فيكتوريا بالمعادي. أما عصمت، فكانت تلتقط بعض الأعمال الصغيرة، وتقضي جزءًا كبيرًا من يومها في النوم العميق، ربما للهروب من واقع لم يكن ورديًّا. من ناحية أخرى علمت من أبوَي بوجود جان بيير في مصر، فاتصلتُ به على الفور، واتفقنا أن نلتقي بعد يومين، وقال لي في أثناء مكالمتنا الهاتفية إنه يريد أن يُعرفني على مجموعة من أصدقائه الجُدد المصريين من خرِّيجي الجامعة اليساريين. طبعًا، أنا وجان بيير كانت لنا لقاءاتنا المنفردة من وقت إلى آخر كي نتكلم براحتنا عن أمورنا الخاصة.

أتتني الفرصة من خلال هؤلاء المعارف الجُدد لتلمُّس الأجواء السائدة في أوساط المثقفين من الشباب، والاستماع إلى استمرار نبرة الإحباط بفعل حل التنظيمات الشيوعية من جهة، وهزيمة يونيو من جهة أخرى. بدأت أقرأ كذلك في القضايا السياسية بطريقة أكثر انتظامًا عما كان من قبل، وأتناقش في تلك الأمور بثقة أكبر. تعودت أيضًا أن أصطحب معي في هذه اللقاءات صديق الطفولة هشام خطَّاب، خاصة أن جان بيير كان قد تعرَّف عليه وعلى والديه في أثناء فترة سفري. بدأت أشعر بأن هناك مجموعات شيوعية أخرى تكونت وأنها تحمل أفكارًا أكثر راديكالية من مجموعات الجيل السابق. ونما هذا الإحساس خاصة بعد انضمام مجموعة الشروق إلى مجموعة أخرى تحت مُسمى الحزب الشيوعي المصري، مما كان يشير ضمنيًّا إلى نية هذا الكيان الأخير احتكار الاسم والساحة، وهو ما يثير بالضرورة حفيظة المجموعات الأخرى التي اعتبرت نفسها أكثر ثورية.

أما عن مهامي النضالية، فلم تتغير كثيرًا بعد العودة إلى مصر عما كان من قبل، وبالتالي لم تكن تُشبعني. وفي هذه الفترة أيضًا، بدأ الكلام عن الانفتاح للمجال السياسي (ربما لمواكبة الانفتاح الاقتصادي)، وخلق منابر ثلاثة هي: اليمين، واليسار، والوسط. ودُعيت لحضور اجتماع تحضيري لمنبر اليسار، ولبَّيتُ الدعوة مما أدى لاحقًا إلى اعتباري عضوة تلقائية في حزب التجمع الذي وُلد من رحم هذا المنبر على الرغم من أنني لم أُبدِ في أي وقت نيتي للحصول على هذه العضوية. ومع ذلك، بدأت أتردد على ١ شارع كريم الدولة حيث كان وما زال مقر هذا الحزب الجديد، وأحضر الندوات المطولة التي يتغرغر خلالها الخطباء بالكلام ما بين شيوعي وناصري وقومي عربي. ولكنني كنت أتعرف على أشخاص جدد، منهم من احترمته كثيرًا ليس بالضرورة لأفكارهم السياسية، ولكن أساسًا لمزاياهم الإنسانية. على سبيل المثال لا الحصر؛ الأساتذة خالد محيي الدين، وحسين عبد الرازق، وعصمت سيف الدولة، وهاني الحسيني وشقيقته عظيمة، وآخرون وأخريات كثيرون، كما تشكلت بيني وبين بعضهم صداقة دامت على مدى السنين.

أما المهمة الثالثة، فعلى ما أذكر أنني قمت بها قبل المهمتين الأولى والثانية، لأنه أتيحت لي

الفرصة بعد عودتي بيومين أن أحضر دعوة لحفل محدود العدد للشيخ إمام. وكان ذلك في بيت شخص فلسطيني لم أره فيما بعد ولكن قيل لي إنه كان زوجًا ثانيًا للملكة دينا التي طُلقت من الملك حسين، عاهل الأردن، ولا أعلم حتى اليوم مدى صحة هذه المعلومة. أحضرت معي جهاز تسجيل من نوعية الكاسيت الذي لم يعُد مُتداولًا وغالبًا لا يتم إنتاجه الآن، وسجلت ليلتها كل الأغاني التي استمعت إليها والتي مثَّلت لي اكتشافًا حقيقيًّا أبهرني. لا أتذكر كل من كان حاضرًا بالضبط، ولكن أتذكر صاحب البيت (حتى إنني لا أتذكر ملامحه أو اسمه) والمرحومة المناضلة الفلاحية شاهندة مقلد التي تبنتني خلال هذه السهرة لما علمت أنني ابنة يوسف درويش. بقيت أيامًا بعد الحفل، أستمع إلى الشرائط التي سجلتها، وحينما لا أستمع إليها يظل صدى الأغاني يلاحقني في أذني. ولما أُذيعت أغنية «يا مصر قومي وشدِّي الحيل، كل اللي تتمنيه عندي» خلال أيام ثورة يناير ٢٠١١، سالت دموعي من التأثُر. لا تعتقدوا أنني كثيرة البكاء، ولكنها كانت لحظة خاصة، مثلما كانت لحظة خاصة عند استماعي للمرة الأولى لأغاني مثل «جيفارا مات» و«رجعوا التلامذة للجد تاني» و«اتجمعوا العشَّاق في سجن القلعة» والأغنيات الأخرى خلال هذه السهرة. ذهبت بعد هذا اليوم إلى لقاءات كثيرة مع الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم، منها ما كان في منازل بعض الأصدقاء والمعارف، وأخرى في مدرجات الجامعة. كما سمعت أكثر عن أخبار القبض عليهما وبقائهما بالسجن لفترات. ومع ذلك سمعت أيضًا أنه حينما كان هذا الثنائي محظورًا، سُئل رياض السنباطي في أثناء حديث إذاعي عن أفضل عوَّاد في مصر، فرد تلقائيًّا هو الشيخ إمام عيسى، كما قيل إن أحد القضاة المُكلَّفين بالتحقيق مع أحمد فؤاد نجم طلب منه الاستماع إلى قصائده. بالفعل، كان أداء الشيخ إمام قويًّا، سواء على العود أو في الألحان التي صممها لأصحاب الأشعار المميزة لنجم وآخرين. استمرت صداقتي للشيخ إمام بالذات سنوات طويلة سوف أحكيها فيما بعد.

من ضمن المعارف الجُدد من خريجي الجامعات، تعرفت على شاب يسكن هو الآخر في حي الدرب الأحمر بالقرب من محل سكن الشيخ إمام - خوش قدم - حينما لا يكون محبوسًا. من جهة أخرى، كانت هناك تلميحات مستترة من طنط انتصار خطَّاب عن أملها في أن أرتبط أنا وهشام، ولكنني لم أكن ميَّالة إلى هذا الخيار لأنني رأيت دومًا هشام أخًا لي. ومع ذلك، كان إحساسي بالوحدة خانقًا بعد طول غربة والدي وبقائي وحدي في بيت باب اللوق إلى درجة أنني ترجيت في فترة والدتي أن تجيء إلى مصر وتعيش معي، ولكنها رفضت أن تترك والدي الذي يحتاج إليها أكثر مني على حد قولها، ولكنني اعتقدت أنها لم تكن تريد أن يخرج من نطاق بصرها. الحب والخوف من فقد الحبيب لصالح امرأة أخرى يؤدي أحيانًا إلى خيارات مُماثلة!

الحب الكبير بين إقبال حاسين ويوسف درويش

في هذه الظروف، كان أحمد سيد سبَّاقًا وعرض عليَّ الزواج. وقصة هذا الزواج غير النموذجي تستحق أن تُحكى. لما قررت الموافقة، جاءني زوج المستقبل ليخبرني أنه اتفق مع شاهدين من الأصدقاء على أن نتزوج يوم الأربعاء في أحد أيام شهر ديسمبر ١٩٧٥. أحد هذين الشاهدين شاب بوهيمي، له شطحات غريبة، ويتحدث بتلقائية قد تثير الريبة لدى المستمعين إليه. ذهبنا يوم الأربعاء إلى مأذون يقع مكتبه في شارع باب باريس الكائن خلف قصر عابدين. كنا نرتدي نحن الأربعة سراويل الجينز، وهي زي غير تقليدي في هذه الفترة لعروسين وشهودهما. فوجئت بأن المأذون يرتدي زيًّا مدنيًّا هو الآخر، وهو ما لم يكن مألوفًا للصورة التي في ذهني حول المأذونين الذين أراهم في الأفلام. بدت الدهشة على الرجل من منظرنا ولكنه سكت، فعليه تأدية عمله. وبدأ يسألنا بعض الأسئلة، فلما سألني لو كان أبي يعلم عن هذا الزواج ولو كان موافقًا عليه، سأله بدوره الشاهد المُشاغِب:

- لو هو جدًّا مش موافق، حتجوزهم ولا لأ؟

فَرَدَّ المأذون بالإيجاب، فصاح الشاهد:

- لماذا إذن تسألها هذا السؤال؟

فأجابه المأذون بأنه هكذا تعلم أنه لا بد عليه طرح هذا السؤال. ثم جاء دور تقديم بطاقاتنا الشخصية للمأذون حتى يُدوِّن بياناتنا، فصاح الشاهد المُشاغِب مرة أخرى:

- أحمد انت بطاقتك مقطوعة، وبطاقتي سليمة حتجوزها أنا.

فتوقف المأذون عن الكتابة وسألنا من هو العريس بالضبط، فلما طمأناه، حاول أن يُكمل عمله، فطلب منا ترديد بعض العبارات وراءه ثم طلب من الجميع قراءة الفاتحة. في أثناء ذلك، بدأ الشاهد المُشكلة في إطلاق زغرودة، فأمسك المأذون برأسه قائلًا:

- يا أخي حتى الفاتحة مش عارف أقرأها معاك.

استكملنا الإجراءات، ولما كان المَهر عبارة عن خمسين جنيهًا، أعلَمَنا المأذون بأن مصاريف الزواج تبلغ اثني عشر جنيهًا ونصف. فعرض عليه الشاهد:

- إيه رأيك تاخد عشرة جنيه وتيجي تتعشى معانا؟

فكاد الرجل أن يطردنا من مكتبه، لكنني أظن أنه لم ينسنا قَطُّ.

بعد زواجنا بفترة قصيرة، كنا عائدين من زيارة لوالد أحمد في حوش قدم، ففكرنا أن نَمُرَّ على الشيخ إمام لنطمئن عليه. فلما دخلنا في حجرته وجدناه يرتعش من شدة الحرارة، ولا أحد معه. فقررنا اصطحابه معنا إلى شقة باب اللوق التي سكنَّا فيها في أثناء سفر أبوَي لنعتني به إلى أن يخف من نزلة شعبية حادة أصيب بها. مع الأدوية، والتغذية الجيدة، والإحساس بالصحبة والرعاية، ظل الشيخ إمام معنا لمدة ثمانية عشر يومًا. اقترحنا عليه في نهايتها تنظيم حفل له قبل عودته إلى الدرب الأحمر، لكنه عبَّر عن تخوفه من عدم القدرة على الغناء ثانية لعدم تعاطيه الحشيش لما يقرب من ثلاثة أسابيع، ولكنه أبدع حقًّا في هذه السهرة ونسي تمامًا المخاوف التي سبق أن عبَّر لنا عنها.

الشيخ إمام في بيتنا بباب اللوق

حفل أحياه الشيخ إمام بعد شفائه في منزل باب اللوق. من اليمين: الشاعر أحمد فؤاد نجم، أنا، محمد على المُصاحب لهذه الفرقة

في بدايات عام ١٩٧٦، علمت أنني حامل. وفي إحدى جلسات الود مع الشيخ إمام قلت له إنني أتمنى أن ألد ابنة أسمِّيها نورة، فلما سألني لِمَ اخترت هذا الاسم بالذات، ذكرته بأغنية له تقول: «نورة بنت عيونها خضرة»، وذلك لأن عيوني خضراء، فاهتم كثيرًا بالأمر وتأكد من أن عيوني خضراء فعلًا، ولم أفهم ما علاقته بالألوان وهو شخص ضرير لم يرَ الألوان من قبل، أو أنها عبارة تخص ذكريات قديمة تتعلق بمرحلة ما قبل إصابته بفقدان البصر في طفولته المُبكرة.

بدأت متابعة الحمل مع طبيب. كما قررت أن ألد ولادة طبيعية على الرغم من نصيحة الطبيب بأن ألد قيصريًّا، كما رفضت أن أعرف جنس الجنين قبل ولادته. فكنت أرغب في معرفة معنى الولادة، والمشاعر المصاحبة لها، وهل هي مؤلمة أم لا؟ وهل يمكن نسيان الآلام بعد عملية الولادة؟ وأسئلة أخرى كثيرة. أخبرني الطبيب بأنني سألد في حدود يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٦، ولكننا ما زلنا لم نعلم جنس الجنين الآتي، وفضَّلنا أن ننتظر المفاجأة. في صيف ١٩٧٦، سافرت أنا وزوجي إلى الجزائر حتى يلتقي بوالدي للمرة الأولى. وكانت فرصة أن ألتقي ببعض من عرفتهم في زيارتي العام السابق، كما تعرفنا على مجموعة من الشباب المصريين الجُدد الذين جاءوا إلى الجزائر للعمل.

أنا في الشهر السادس من الحمل، على شاطئ البحر بالجزائر العاصمة، وبابا يسخر من منظري، عام ١٩٧٦

قبل سفرنا إلى الجزائر، قرَّر زوجي أنه يمكننا ترك شقة يوسف الجندي فترة الإجازة ليقيم فيها نجم والشيخ إمام حتى يستريحا قليلًا. في طريق العودة، رفض المسؤولون في شركة الطيران أن أصعد إلى الطائرة للخوف من أن تنتابني آلام الوضع في أثناء التحليق في الجو، ولكنني أصررتُ للحاق بعملي الذي أوشك أن يبدأ ووقعت لهم على إقرار بأن الأمر على مسؤوليتي. فوجئنا عند وصولنا إلى البيت بأنه في حالة من الفوضى العارمة، وبأن صاحب العقار يسعى إلى طردنا لأن هؤلاء الضيوف أحدثوا إزعاجًا كبيرًا لسكان العمارة. المهم أننا تمكنا من تخطي المشكلة وبقينا في الشقة بعد أن توترتُ جدًّا من الموضوع ومن احتمال تسبُّبي في فقدان شقة أبوَي، فبدأ الجنين يقوم بحركات بهلوانية داخل بطني ثم يظل ساكنًا فترات طويلة حتى إنني خِفت على سلامته.

وصلنا إلى نهايات الحمل بخير على الرغم من كل هذه المغامرات، وبدأت آلام الولادة تزداد بوتائر متلاحقة في حدود الرابعة فجر يوم ٧ ديسمبر، فذهب زوجي ليعثر بصعوبة على سيارة تاكسي، لأن معظم الشوارع كانت خالية في هذا الوقت من الليل ولأن أغلبية سائقي التاكسيات

رفضوا توصيلنا لما علموا أن المطلوب نقلها على وشك الولادة. أخيرًا، تمكن من إقناع صاحب تاكسي بتوصيلنا إلى المستشفى في حي المهندسين. لما وصلنا هناك، طاقم الاستقبال استدعى الممرضة المختصة لتقوم بالكشف على مدى اتساع عُنق الرحم وتحديد توقيت البدء في عملية التوليد. ولكن في الطريق إلى غرفة الكشف، ارتميتُ على الأرض من شدة الألم، فاستدارت باستغراب تبحث عن الوالدة التي كانت خلفها من ثوانٍ، فلما وجدتني على الأرض - وكأنما انتقمت مني - قالت:

- على فكرة، د. سمير مش موجود.

- إزاي؟! هو فين؟

- هو سافر يحج.

- طب مين اللي حيولدني؟

- الدكتور إسماعيل.

- إسماعيل إيه؟

- إسماعيل ياسين.

صِحتُ:

- وكمان إسماعيل ياسين؟!

حان وقت الولادة، فدخلنا حجرة العمليات التي كان يجوب فيها بالتناوب زوجي ووالدتي التي جاءت خصيصًا من الجزائر لحضور الحدث. وكان الأمر كأننا في بهو محطة سكة حديد من كثرة عدد المتجولين فيه. بدأ الطبيب يطلب مني دفع المولود إلى الخارج وأنا في وسط آلام لم أعرفها من قبل ولن أمُرَّ بها ثانية حتى مماتي. فطلب من الممرضة أن تكتفني وتضع كمامة مُخدِّرة على فمي. رفضت بشدة، أساسًا لأنني أريد أن أعايش تجربة الولادة حتى النهاية، ثم بسبب اختناقي من كل ما هو مُغلَق. أخيرًا، حدث شكل من أشكال الانفجار في جسدي، وبدأ رأس الجنين يخرج إلى النور حتى توالت الصرخات. استفسرت من الطبيب عن جنس الطفل، فقال برأس متدلٍّ إنها بنت، لأن الأطباء في هذه الفترة كانوا يقيسون حجم انتصاراتهم المهنية بعدد الذكور الذين يولدون على أيديهم. لا أعلم إن كان ذلك ما زال صحيحًا حتى الآن، ولكني أتمنى العكس تمامًا. فرحت جدًّا بإنجاب طفلة، كما فرح والدها. وكنا اتفقنا على أن نطلق على المولود، إن كان بنتًا، اسم «بسمة»، القريب من اسم باسمة حلاوة زوجة صديقنا الشاعر زين العابدين فؤاد، التي كنا نعرف أنها مريضة للغاية وربما لن تبقى طويلًا وسطنا. بعد عودتي مع ابنتي إلى حجرتي، جاءت ممرضة لتقيس درجة حرارة المولودة، فصاحت:

- يا لهوي! البنت ما فيهاش أي حرارة.

كان جو ديسمبر شديد البرودة، وأنا أرتجف خوفًا على بسمة الصغيرة، فطلبت مني الممرضة أن

أضعها عارية ملاصقة ببطني العاري. بعد أن قمنا بذلك، عادت الحرارة إلى ابنتي، وكنت نسيت تمامًا آلام الولادة. شعرت في أثناء هذا الالتصاق بين جسدينا بأن الطبيب لم يقطع الحبل السري بيننا، وتمنيت أن يبقى قائمًا طوال العمر. لكن الأطفال تكبر، وتصل إلى مرحلة تقرر فيها الإمساك بزمام مصائرها واتخاذ طريقها المُتحرر في الحياة. وهذا ما حدث فيما بعد بالفعل وتسبَّب في انقطاع الحبل السرِّي على الرغم من أحلامي الساذجة. لا أعلم إذا كانت أغلبية الأمهات وربما بعض الآباء لديهم الشعور نفسه، ولكن انقطاع الحبل السرِّي ظل بالنسبة إليَّ عملية مؤلمة. كما فكرت بعد الولادة أن الخروج إلى الدنيا يُسبِّب صدمة لدى المولود أو المولودة الجديدة. ربما صدمة مغادرة الرحم الدافئ للأم إلى الرحم الأوسع للعالم الأكثر برودة - وربما قبحًا - مع فقدان سماع النبضات المُطمئِنة لقلب الأم والتي صاحبت نمو القلب الصغير على مدى تسعة أشهر. ليس لديَّ أي دليل يؤكد صحة ظني، فأنا لا أتذكر لحظة ولادتي، ولا أظن أن الأغلبية العظمى من الناس تتذكر تلك اللحظة، إلا إذا كانت هناك استثناءات لم أسمع عنها.

ابنتي بسمة في سن ثلاثة أشهر

في يناير ١٩٧٧ حدثت هَبَّة جماهيرية عارمة بسبب إصدار قرارات اقتصادية عليا برفع أسعار

بعض السلع الأساسية، وقد اجتاحت هذه الهَبَّة معظم محافظات مصر رفضًا لتلك القرارات المُجحِفة. لم أتمكن مع الأسف من مشاهدتها عن قرب لصغر سن مولودتي وعدم إمكانية تركي لها، ولكنني تابعتها بقدر الإمكان من خلال وسائل الإعلام والأخبار التي تجيئنا من الأصدقاء الذين شاركوا فيها، وعلمت أنه تم القبض على أعداد كبيرة من المواطنين بتهم مُلفَّقة إلى حد كبير. وكان السادات يشير إلى هذه الانتفاضة إلى أنها من صُنع الحرامية، وفي مواضع أخرى إلى أنها عبارة عن مؤامرة خارجية من دون الالتفات إلى مدلول هذه الهَبَّة التي جاءت بتلقائية ومن دون إعداد سابق، خاصة مع الاستفزاز العام الذي صاحب ظهور السيدة الأولى في بداية الأحداث مُرتدية معطفًا من فرو الأستراكان باهظ الثمن بينما أغلبية الشعب تُعاني من ضيق الظروف المعيشية وأحيانًا كثيرة من الجوع.

في ٩ نوفمبر ١٩٧٧، أعلن الرئيس أنور السادات رسميًّا أمام مجلس الشعب المصري عن مبادرته لزيارة إسرائيل لإلقاء خطاب أمام الكنيست الإسرائيلي، وقد تمت هذه الزيارة بالفعل يوم ١٩ نوفمبر من العام نفسه. كنت مُتابعة لمراسم وصول الرئيس وزوجته على التلفزيون وأنا جالسة على طاولة منخفضة قريبة من الجهاز. شعرت بأن قلبي كاد أن يتوقف من هول ما أشاهده وضرب عرض الحائط بكل الظلم الذي تَعرَّض له الشعب الفلسطيني - ولا يزال حتى اليوم - وأيضًا للجرائم التي ارتكبت من جانب الصهاينة في حق الجيش المصري بصفة عامة والجنود المصريين بصفة خاصة.

قبل مرور سنوات، حدث في أحد الشهور الأولى التي وصلت فيها بسمة غالبًا إلى ثلاثة أشهر من عمرها، أن جلس الشيخ إمام بجانبها على الكنبة، وأخذ يتحسس وجهها بأصابعه، فما أن التقطت الصغيرة أحد أصابعه ووضعته في فمها وراحت تمصمص فيه، فقال لي:

- أنا دلوقت اتعرفت على بسمة.

مع عودتي إلى عملي بعد ثلاثة أشهر من إجازة الوضع، وجدت أن مديري وصديقي فيليب قد انتقل إلى عمل آخر في فرنسا، وجاء مكانه رجل طويل بذقن كثيف لم يقل ظُرفًا وإنسانية عنه. لا أتذكر اسمه، لكن صورته ما زالت حية أمام عينَي. فلما عرف ظروفي، اقترح عليَّ أن أُحضر معي ابنتي، ويرعاها هو في أثناء تأدية عملي، وقد كان يقول إنه في أثناء عمل المُدرسين في الفصول ليس لديه ما يمنعه من الاهتمام قليلًا بهموم من يعملون معه. كنت أجده في الاستراحات، بين نهاية كل فصل وبداية الفصل الذي يليه، يُداعب الطفلة وهي تُكركر من الضحك. فعلًا، أتمنى أن أجد في مصر رؤساء عمل يمتلكون هذا القدر من التفهم لظروف موظفيهم وخاصة موظفاتهم، والتعامل معهم ومعهن بمزيد من الإنسانية غير المُكلفة وبالأخص في مجال العمل ذي الطبيعة غير الربحية. لكن يبدو أن تحقيق هذا الأمر سوف يطول.

ثم أخذت صغيرتي تكبر شهرًا بعد شهر، وتتطور لديها عادات العناد حتى إنها أصبحت بعد بلوغ سنة من ولادتها ترفض زجاجة اللبن، وتعيدها إليَّ بكل إصرار مع تلويح رأسها من اليمين إلى اليسار، ولكن لحسن الحظ أنني كنت قد بدأت معها نظامًا غذائيًّا أكثر تنوعًا. من ضمن الوجبات الجديدة، أصبحت تتناول وجبة من الطعام المُصنَّع من الحبوب اسمه سيريلاك، أظن أنه موجود حتى الآن، وربما تم تطوير تركيبته اليوم. لما كانت تترك بعضًا منه في طبقها، يبدأ جان بيير في التهام ما تبقَّى. هكذا كانت علاقتنا ببعض، ليس فقط كأصدقاء، وإنما كتوأم. ثم بدأت اختيارات بسمة الغذائية تنحصر في البطاطس المحمرة، حتى إنه في إحدى إجازاتنا بالجزائر عام ١٩٧٩، ذهبنا إلى أحد الشواطئ التي أصبحت مفتوحة للجمهور بعد الاستقلال، وجلست أنا وبسمة على كراسي في مطعم مقابل للبحر بينما والدها يخوض مباراة لكرة القدم مع أصدقاء مصريين. فلما جاء الجرسون، طلبت منه طبقًا من البطاطس المحمرة لكنه تأخر كثيرًا ثم جاء ليُعلمني أنه ليست لديهم بطاطس. فقد عانت الجزائر من أزمات متعددة خلال فترة ما بعد الاستقلال، منها أزمة المياه، والأزمات الغذائية، ونقص في مواد التنظيف، ولا أتذكر لو طالت هذه الأزمات مجالات أخرى. حاولت هباء إقناعها بأن تأكل أي شيء آخر، فرفضت بكل عناد، وظلت بلا طعام حتى عُدنا إلى بيت أبي وأمي الذي كان فيه - لحسن الحظ - بعض البطاطس المُتبقية.

بسمة «مكلضمة» لأنها ترفض تناول اللبن

قبل عودتنا من الإجازة إلى مصر، سمعنا أخبارًا عن القبض على عديد من المعارف والأصدقاء، والتجهيز لإقامة قضية ضدهم، فتشاورنا مع والدي ومع بعض الناس المُقرَّبين، واتفقنا على أنه من الأفضل ألا يعود والد بسمة مباشرة وإنما ننتظر ما ستأتي به الأحداث القادمة، ونظرًا لأن

أنا «مكلضمة» لأسباب لا أحد يتذكرها

الجزائر كانت قد قطعت رحلات الطيران من وإلى مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد، استدعى الأمر أن نعود بسمة وأنا بواسطة شركة طيران أخرى غير الشركة الوطنية الجزائرية، مما أدَّى إلى بقائنا في مطار روما عدة ساعات إلى حين ركوب الطائرة التالية. في هذه الأثناء، كانت هناك مجموعة من العمال من أحد البلدان الآسيوية التي لا أتذكرها متجهين إلى ليبيا، وقد قيل لهم إنه لا بد من كتابة أسمائهم بالعربية على جوازات السفر حتى يتمكنوا من دخول البلد، فقمت بهذه المهمة التي استغرقت مني بعض الوقت، أما بسمة، فقد تجولت في صالة الترانزيت وبدأت تتعرَّف على روادها، لما انتبهتُ لذلك، رحت أبحث عنها إلى أن وجدتها أمامي ولكنها حافية، سألتها أين حذاؤها فلم ترُد عليَّ، طيب يا ربي، كيف سنواصل بقية الرحلة وهي حافية؟ كررت سؤالي مرات كثيرة حتى أشارت لي أخيرًا إلى إحدى الطفايات الطويلة للسجائر التي كانت قد وضعت عليها الحذاء بكل حرص، لا أدري حتى الآن من أين جاءتها هذه الفكرة، ولو سألتها اليوم فغالبًا لن تتذكر، ولكني اعتقدت أنها كانت تُمارس معي حلقة من حلقات وصلات العناد في إصرارها على عدم الإجابة، ولكن للإنصاف ربما كانت نبرة صوتي حادة نوعًا ما مما أخافها ومنعها من الرد.

كانت أيضًا تعاند في النوم، ويمكن أن تتحدى رغبتها في النوم وتبقى مستيقظة لساعات طويلة على الرغم من نعاسها الواضح في عينيها. كنا في شقة باب اللوق نستقبل أصدقاء كثيرين، كل ليلة أطلب منهم دائمًا خَفض أصواتهم وأنا أحاول إدخال صغيرتي إلى النوم في غرفة مغلقة علينا نحن الاثنتين. بعد ساعات من المحاولات، تخرج بسمة من الغرفة لتُنبئ الحضور بكل فخر بأن ماما نامت. الأمر تغير تمامًا بالنسبة إليها، فهي تستطيع أن تنام الآن في أي ظروف، ولكن الغريب أن حفيدتي ناديا تذكِّرني في ذلك بطريقة شبه متطابقة مع أمها في طفولتها.

من القصص الأخرى التي حدثت مع ابنتي هي أنني أخذتها يومًا قبل دخول المدارس لأشتري لها حذاء، فبعد أن قاسته أخذت تتمرمغ على أرضية المحل صائحة:

- إنت عايزة تسممينى!

- ليه يا بنتي؟

- علشان الجزمة فيها خروم (كانت فتحات صغيرة على شكل زهرة مرسومة على الحذاء) والرمل حيدخل فيها وأموت.

رواد المحل بدأوا ينظرون بعين الريبة إلى هذه الأم الشريرة، فما كان مني إلا أن أخذتها من يدها وغادرنا المحل من دون أن نشتري الحذاء بسبب الفضيحة التي أحدثتها لي ابنتي.

بعد قضاء أربع سنوات من الحياة المشتركة، أنهينا زواجنا، وكان ذلك في فبراير ١٩٨٠. وكنت بحاجة إلى شهود على الطلاق حيث لا يَقبل كثيرون الشهادة في هذه الحالات، وأحتاج أساسًا إلى عقلاء قادرين على إقناع زوجي بأهمية هذا الطلاق لصحتنا النفسية جميعًا؛ ابنتي وهو وأنا. مع الأسف لم تكن العملية سهلة، وقد قام بها صديقا والدي، ولجأت إليهما نظرًا إلى غياب أبي عن مصر، وهما: أونكل حسن صدقي، وأونكل حلمي ياسين. فاستمع أونكل حسن، الوقور الرزين، إلى وجهة نظر زوجي وشكاواه تجاهي لمدة ساعتين صامتًا، أنهاهما بسؤال للوصول إلى خلاصة الحديث:

- إمتى ميعاد الطلاق؟

أما أونكل حلمي، فقد ذكَّر زوجي بأنني ابنة يوسف درويش، وأن لا أحد من عمال شبرا، أو حلوان، أو المحلة سيرضى بأن أتعرَّض لأي مضايقة. أخيرًا، اتفق الشاهدان مع أحمد على موعد الطلاق. فذهبنا جميعًا إلى المأذون نفسه الذي سبق أن زوَّجنا. الرجل انكمش تمامًا أمام إمكانية الطلاق حتى أكدت له أنني أبرأت الزوج من جميع التزاماته، وقد كانت طلقة بائنة. لما عُدت إلى المنزل في باب اللوق، وجدت والدتي التي حضرت إلى مصر خصيصًا لتكون بجانبي في هذه الفترة العصيبة، وكانت واقفة في المطبخ لتُجهِّز الطعام، دخلت غرفة النوم وجلست على السرير مُجهدة نفسيًّا مما حدث في الساعات السابقة. بعدها بدقائق، وجدت أمي أمامي:

- مالك يا حبيبتي؟ بسوم جت لي تجري وتقول لي إلحقي يا تيتة بنتك بتعيط.

على الرغم من بعض الخلافات بيننا، حرصنا طوال السنوات التالية وإلى الآن على أن نحافظ على علاقة متوازنة ومُتحضرة من أجل ابنتنا ومن أجلنا. فأنا ما زلت على علاقة ودية مع طليقي، ومع زوجتيه التاليتين، ومع شقيق ابنتي الذي أعتبره مثل ابني، ومع أي من أهله أو أصدقائه، على الرغم من أن الحفاظ على هذا الوضع لم يكن دائمًا مهمة سهلة. فالطلاق في هذا الوقت كان يُعتبر وصمة عار بالنسبة إلى المرأة، خاصة إذا كانت هي التي طالبت به، وقد انفض من حولي معظم من تعرفت عليهم في إطار زواجي؛ فيبدو أن النساء خشين من اختطافي لأزواجهن بعد أن

أصبحت امرأة بلا رجل، كما جاء أحد الرجال المتزوجين ليعرض عليَّ أن أصاحبه بما أنني أصبحت بلا زوج، والآخر ادَّعى أمام آخرين أنني طُلِّقت بسببه. وكان رد فعلي قاسيًا مع الاثنين. ولكن بقي معي زوج من الأصدقاء، هما هاني الحسيني وزوجته المرحومة ماجدة. أما الباقون، فقررتُ أن أُخرجهم من حياتي، ومن ذهني، ومن مشاعري. الأمر الآخر، أنني عندما قررت طلب الطلاق، جاءني مسؤول حزبي يقول لي:

- الحزب يرفض إغلاق أي بيت شيوعي.

فكان ردي وقحًا على غير عادتي، لأن المعنى الضمني كان استفزازيًّا للغاية بالنسبة إليَّ، فجاءت إجابتي كالصاروخ:

- اللي بينام في السرير جنبه هو أنا مش الحزب.

في شهر مايو ١٩٨٠ قرر أحد كبار المسؤولين في حزب التجمع أن أُمثِّل هذا الحزب في مؤتمر سيُعقد بمدينة كوبنهاجن الدانماركية بمناسبة منتصف عقد المرأة العالمي. وقد قامت هوجة في حزب التجمع، وخاصة في مكتبه النسائي لعدم اختيار شخص آخر غيري، ربما لأنهن اعتبرنني غير كفء للقيام بهذه المهمة، أو لرغبة إحدى العضوات الأخريات في السفر. في النهاية، أنا التي سافرت وكان ينتظرني بالمطار أحد المصريين المقيمين هناك وهو صديق حميم لأحد أصدقائي المُقرَّبين في مصر. استقبلني أحسن استقبال، وأخذني لألتقي بزوجته وأطفاله في ضاحية ليست بعيدة عن العاصمة تطل على بحيرة. في الطريق حكى لي أنه صادف في المطار موظفًا في السفارة المصرية كان في انتظار البنت اللي جاية تُمثل التجمع، وقد سأله إذا كان يعلم شيئًا عن الأمر، فنفى مُستقبِلي تمامًا وأفاده بأنه في المطار لاستقبال إحدى قريباته. ثم أعادني في اليوم التالي إلى مقر المؤتمر كما عرَّفني على أسرة دانماركية قبِلَت أن أسكن معها طوال مدة إقامتي. التقيت في المنتدى الخاص بالمنظمات غير الحكومية بوفود عربية عديدة أذكر منها بصفة خاصة وفدي فلسطين والعراق، وشاهدت على المنصة امرأتين إسرائيليتين، ترتديان الكوفية الفلسطينية وتدافعان عن حق الشعب الفلسطيني في الدولة، والعودة، وحق تقرير المصير. علمت فيما بعد أن السلطات الإسرائيلية قامت بالقبض عليهما بعد العودة من المؤتمر.

أحب أن أشير أيضًا إلى أنني أحببت مدينة كوبنهاجن ورأيت فيها مظاهر حضارية لفتت نظري. منها على سبيل المثال لا الحصر، أنه كان يوجد على جانبي الرصيف ممر خاص لسَير الدراجات التي كانت إحدى وسائل المواصلات الأساسية والمُفضَّلة هناك، وذلك لحماية سائقي هذه الدراجات من حوادث الطريق. قالت لي ابنتي فيما بعد إن هذا النظام موجود في كل أوروبا، ولكن الحق أنني لم أكن قد رأيته من قبل. كما أتذكر من رحلتي أن الصديق المصري وأسرته أخذوني إلى ملاهٍ كبيرة اسمها «التيفولي»، وركبت إحدى الألعاب مع ابنهما، وكنت أصرخ طوال الوقت من خوف

الارتفاعات، بينما الولد الصغير ميِّت على روحه من الضحك وهو جالس بجانب هذه المجنونة.

خلال هذه السنة أيضًا انتقل أبواي من الجزائر التي أمضيا فيها سبع سنوات إلى مدينة براغ حيث عمل أبي في مجلة «السلم والاشتراكية»، وهي المجلة التي كانت تُعبِّر عن الأحزاب الشيوعية والاشتراكية على مستوى العالم. أتذكر عند الخروج من طائرتنا عند زيارتنا الأولى هناك، أن الثلج كان يتساقط كقطع القطن شبه الشفافة، فصاحت ابنتي:

- ماما الناموس!

طبعًا، يتشكل إدراك الأشياء من البيئة المحيطة التي ننمو فيها، ولكن سرعان ما بدأت بسمة تتعامل مع الثلج وتستمتع بالتزحلق عليه. وهكذا توالت زياراتنا أنا وابنتي على هذا المتحف المفتوح الذي تُقدمه عاصمة تشيكوسلوفاكيا المسماة بتشيكيا الآن. فقد عشقنا قلب المدينة بتحفها الفنية المعروضة على هيئة زخارف وتماثيل تعلو المباني، وفي الساحات، والحدائق العامة. كانت ابنتي تحب بصفة خاصة ميدان الساعة (أو هكذا كنا نسميه)، الذي يضم ساعة أثرية ابتكرها فنان من العصور الوسطى قيل إنه قُتل بعد تصميمها حتى لا يقوم بتكرار نفس التصميم في أي مكان آخر. كانت الساعة تدق كل ربع ساعة بواسطة تمثال متحرك متدلٍّ إلى جانبها على هيئة هيكل عظمي يُمثل ملاك الموت وهو الذي يسحب الجرس، وعند إتمام الساعة تنفتح شرَّاعة صغيرة يمر من أمامها تماثيل مُجسَّمة لجميع القديسين، وللسيدة مريم، وللمسيح على صليبه. كان يُمكن لبسمة أن تبقى واقفة أمام هذا المشهد لمدة ساعات طويلة، تُراقب بكل اهتمام هذه الشرَّاعة حتى وهي ما زالت مغلقة.

في بدايات عام ١٩٨١، قررت الانتقال مع بسمة للعيش فترة مع والدتي ووالدي اللذين كنت بحاجة مُلحَّة إلى قربهما. كانت هناك حضانة أمام المبنى الذي يسكنان فيه وقد خصَّصا لنا غرفة نوم في مسكنهما. قمنا بالإجراءات اللازمة لالتحاق ابنتي بالحضانة التي كان يمكننا رؤيتها من شرفة الشقة. الحقيقة أن نظام هذه الحضانة كان أمرًا غير مألوف بالنسبة إليَّ بعد اختبار حضانات الأطفال في مصر التي وجدت فيها أعدادًا كبيرة من الأطفال ينامون وهم مرصوصون جنبًا إلى جنب على أسرَّة لم تُراعَ فيها ضرورات النظافة وربما مورست فيها أنواع من حشو عقول الأطفال بأفكار غير صحيحة، وذلك باستثناء حضانة سيدات الروتاري التي كنت قد وجدتها أخيرًا في حي جاردن سيتي بعد جهد كبير، لكن مع الأسف، قبل شهور قليلة من رحيلنا إلى براغ حيث التحقت ابنتي بالحضانة الجديدة لما يقرب من سنة. في هذه الحضانة المُلهِمة بجميع المقاييس كان اليوم يبدأ في السادسة صباحًا ليسمح للأمهات العاملات بتوصيل أطفالهن قبل التوجه إلى أعمالهن، ويمتد اليوم حتى الخامسة مساء. كنت أصطحب بسمة كل صباح، فأجد المُدرسة ترقص في وسط الفصل والأطفال يرقصون حولها على أنغام موسيقية مُبهجة. أما أولياء الأمور، فممنوع عليهم الدخول

للفصل. في حجرة أخرى كانت هناك أسرَّة صغيرة بعدد الأطفال كي يأخذوا فترة من القيلولة بعد تناول وجبة الغداء التي صُممت بمراعاة قواعد التغذية الصحية للأطفال، ثم يستكملون يومهم في اللعب والرسم. من الأشياء المضحكة لي أنني كنت أنظر إلى لوحة موجودة في الممر المؤدي إلى الفصل الممنوعة من الدخول إليه مُعلَّق عليها رسومات الأطفال، فكانت جميعها تمثل فراشة، ما عدا واحدة قد رُسم عليها سيارة، وفهمت أنها لابنتي التي لم تكن قد استوعبت بعد اللغة التشيكية ولكنها تعلمتها فيما بعد، وكانت تقوم أحيانًا بدور المترجمة لنا، ولكنها مع الأسف نسيتها تمامًا بعد رجوعها إلى مصر. كانت الحضانة تصطحب الأطفال أحيانًا إلى بعض الأماكن الخارجية، مثل السوبر ماركت القريب لتعلُّم كيفية التعامل والسلوك مع الباعة ومع الرواد الآخرين، أو إلى المتحف. وداخل طرقات حديقة الحضانة عُلِّقت إشارات المرور المختلفة لتفيدهم مستقبلًا بكيفية السير بالشوارع ومراعاة قواعد المرور. حينما يبدأ الربيع، وتتحسن درجة الجو، تقوم الحضانة بتشغيل صنابير مرتفعة ترش المياه بطريقة دوَّارة على الأطفال وهم يرتدون ملابس البحر ويجرون حولها. هي ذكريات عزيزة جدًّا نحتفظ بها في قلبينا؛ ابنتي وأنا. كما أتذكر أن بسمة بخصلات شعرها المُموَّج ولونه الداكن الذي يختلف شكله كثيرًا عن معظم الأطفال الآخرين من التشيك، جعل المارة يستوقفونها أحيانًا في الشارع الذي نسكن فيه ويداعبون شعرها كأنه فروة خروف، وحين يعرفون اسمها، ينادون عليها باسم «بسميتشكو»، أما حارسة العقار، لما اعتادت أن تسمع بسمة تُنادي جدتها من الشارع - وفقًا للعادات المصرية - باسم «تيتة»، فقد تخيلت أن هذا هو اسم والدتي، فأصبحت تتوجه إليها بهذا الاسم وإن كانت تكبر أمي بعدة سنوات.

تعرَّفنا هناك أيضًا على مجموعة من الأصدقاء المصريين المقيمين في براغ. كان ضمن هذه المجموعة رجل ظريف ذو شعر أبيض كثيف وطويل نوعًا ما، وكانت بسمة تستمتع بتصفيف هذا الشعر وتحويله إلى جدائل أو ذيل حصان. في يوم وابنتي جالسة على حجره، بدأنا نتحدث عن بعض الأحداث الطائفية الحادثة في مصر، فإذا ببسمة تقول بكل حسم:

- أنا باحب المسلمين بس.

ويبدو أن هذا القول كان نتيجة مرورها ببعض دور الحضانة المُتخلِّفة في مصر، فسألتها:

- ويا ترى بتحبي عمو دانيال؟

فردت بسرعة:

- أيوه بحبه قوي.

ووضعت رأسها على صدره، فعلقت على ردها:

- بس عمو دانيال مسيحي مش مسلم.

أعتقد أنها خجلت من نفسها لأنها بقيت صامتة ولكنها لم تترك حجره، إلا أنها لم تُعبِّر بعدها عن

هذه النوعية من الأفكار، كما أعتقد أنها تعلمت أن حبنا - أو عدم حبنا - للناس لا يتوقف على الدين الذي ينتمون إليه، وإنما يعود إلى خصائصهم الإنسانية.

بعد فترة، قرر والد بسمة أن تعود إلى القاهرة مع بداية العام الدراسي في حضانة ليسيه باب اللوق. فاشترينا لها تذكرة الطائرة ولكن المشكلة بدأت في المطار حينما طالبنا باستدعاء مضيفة لتتولى مصاحبتها حتى تسليمها لأبيها. في هذه اللحظة، رفضت بسمة أن تنطق ولو بكلمة واحدة بالتشيكية، متحججة بأنها مصرية وذاهبة إلى مصر ولن تتحدث غير اللغة العربية. وبدأت تَظهر على وجه المضيفة علامات القلق والميل إلى رفض هذه المهمة. دخلنا في جدل ومحاولة إقناعها بأن البنت تعرف التشيكية وسوف تتواصل معها. في النهاية، استطعنا حل الموضوع وسافرت الابنة بعد عناء طويل.

بعد عودة بسمة إلى مصر بمدة قصيرة، تلاحقت أخبار قرارات اتخذها الرئيس أنور السادات لاعتقال جميع المعارضين لحكمه، وطالت ١٥٣٦ من رموز المعارضة، في ٣ سبتمبر ١٩٨١، منهم وجوه لامعة مثل محمد حسنين هيكل وآخرين كثيرين، فأصبحت أخشى أن يتم القبض على والد ابنتي كذلك. كيف سيكون مصير هذه الطفلة من دون أب هناك، وأنا مضطرة إلى أن أبقى بعيدًا بسبب الشكوك الأمنية الدائرة حولي؟! ثم اغتيل الرئيس المصري في ٦ أكتوبر ١٩٨١، في أثناء الاحتفال بانتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣، بأيدي عناصر متشددة دينيًّا، أي ممن سهَّل السادات نفسه انتشارهم في مواجهة الشيوعيين. لن أخوض في تحليل ما حدث، ولكن الواقع أن الأمور انفرجت قليلًا بعدها وأُفرج عن معتقلي سبتمبر.

مع بقائي شبه الإجباري بجانب أبوَي، حيث عَلِمنا أن هناك مطلبًا باستدعائي عند العودة إلى مصر، قمت ببعض الأعمال الثانوية لأبي، مثل المراجعة اللغوية، وطباعة مراسلاته على الآلة الكاتبة، أي أعمال السكرتارية كالعادة! ثم جاءني قرار بأنه تم تسجيلي في دورة للدراسات الماركسية بموسكو، ولكن الأمر قد تأخر حتى الربع الأول من عام ١٩٨٢ الذي سافرت فيه إلى هذه المدرسة. كانت المدرسة تضم وقت وصولي إليها قرابة الثلاثة آلاف طالب وطالبة من جميع أنحاء العالم، البعض منهم لدورة تستغرق سنة، وآخرون لمدة ستة أشهر، وأخيرًا دورة تمتد إلى ثلاثة أشهر وهي التي كانت من نصيبي. أزعم أنني تعلمت عن الفكر الماركسي أكثر بما لا يُقاس بما تعلَّمته من قراءة مجلدات «رأس المال» بطريقة جافة ولا أحد يشرح لي ما أقرأه. فكنا نقضي أربع ساعات يوميًّا في دروس تراوحت ما بين تاريخ الثورة الروسية، والفلسفة (أي المادية الجدلية والمادية التاريخية)، والاقتصاد السياسي.

نظمت المدرسة بعض الرحلات التعليمية. فأذكر أننا ذهبنا مرة إلى مدينة زاجورسك، وهي عبارة عن مُجمَّع للكنائس يَحِجُّ إليه الناس، فاندهشت كثيرًا عندما رأيت داخل هذه الكنائس أعدادًا غفيرة من المُصلِّين، فلم أكن أدرك أن هناك هذا الكم من المؤمنين في بلد ينعته البعض بالإلحاد.

وكان بقرب مدرستنا سوق أسبوعي - يُقام أيام الأحد - يذهب الطلاب إليه لابتياع ما ينقصهم من الطعام. معظم البائعين كانوا وفقًا لملامحهم من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الآسيوية، وكثير منهم يسألوننا إن كنا مسلمين مثلهم، ويفرحون كثيرًا لما يَعلمون أن بعضنا مسلمون. كما أخذتنا المدرسة في نهاية العام الدراسي إلى مدينة لينينجراد (التي عادت الآن إلى اسمها القديم سان بطرسبرج)، وهي مدينة تختلف كثيرًا عن موسكو. ففي موسكو تشعر بأنك كالنملة بشوارعها بالغة الاتساع التي قد تتضمن ثماني حارات أو أكثر، ومبانيها الأثرية الشاهقة كالكرملين، ومترو الأنفاق الذي يلتهمك في عمقه. أما سان بطرسبرج، فكانت مدينة «مُحندقة»، مبنية على عدد من الجزر تربط بينها كَبارٍ تُفتح في الليالي البيضاء. فنظرًا لأن هذه المدينة تقع في شمال روسيا على مقربة من بحر البلطيق، يبقى فيها الجو مظلمًا طوال أشهر الشتاء والبرد القارس الذي قد ينخفض إلى ثلاثين درجة تحت الصفر أو أكثر، بينما لا يغيب عنها الضوء ليلًا ونهارًا في أشهر الصيف، ولذا سُميت هذه الفترة من العام بـ«الليالي البيضاء». زرنا هناك قصرًا على ضفاف البلطيق كان ينتمي إلى أحد القياصرة، وله حديقة متدرجة حتى شاطئ خليج البلطيق تتوسط هذه السلالم تماثيل من الذهب تبدأ في سكب المياه عندما تدق الساعة الثانية عشرة ظهرًا، فيتضخم شيئًا فشيئًا صوت خرير المياه إلى أن يتحول إلى شبه نغمة موسيقية تؤدي نشيد الاتحاد السوفيتي، أي نشيد الأممية. وكان قد قيل لنا إن القصر جرى تدميره خلال الثورة البلشفية، ولكنه خضع لعملية ترميم شاملة شاهدنا نتائجها في أثناء زيارتنا، ومنها إعادة نسج بعض الأقمشة في مصانع خُصِّصت لأغراض ترميم الآثار والحفاظ عليها كجزء من تراث بلدهم، كما أخذتني يومًا إحدى المترجمات الروسيات المُصاحبة للرحلة إلى مكان داخل المدينة لتُريني سورًا رائع الجمال والذوق الرفيع مصنوعًا من الحديد المُجلفن يحيط بأحد القصور، أعتقد أنه كان إحدى استراحات بطرس الأول الذي سُمِّيت باسمه المدينة، وحكت لي أنه بعد الثورة، كانت روسيا تعاني ديونًا كثيرة، فعرضت أمريكا على الحكومة الروسية شراء هذا السور لقاء تغطية ديونها، فكان الرد القاطع أن لا أحد يبيع تاريخه. من الزيارات الأخرى التي قمنا بها كانت للمدمرة بوتمكين التي شاهدت تمردًا لطاقم ضباط السفينة في عام ١٩٠٥ على الأوضاع السيئة السائدة على ظهر هذه المدمرة، والظلم الذي يتعرضون له، وقد اعتبر البعض أن هذه الأحداث كانت بمثابة الخطوة الأولى نحو الثورة البلشفية في ١٩١٧، من الأمور التي لفتت نظري في أثناء هذه الزيارة أننا شاهدنا قناعًا من الجبس كان يتم وضعه على وجه من سيقوم أحد المثَّالين بعمل تمثال له - وهم غالبًا من القياصرة - ثم رأينا على القناع علامة لدمعة سالت من إحدى العيون الخاوية على القناع، على الأرجح لأن العملية كانت مؤلمة؛ فالتطلُّع إلى الخلود له ثمنه أيضًا.

لا أعلم كيف أصبحت اليوم كل من موسكو وسان بطرسبرج وما إذا كان يقترب شكلهما من هذه الذكريات القديمة التي ربما أصبحت غير دقيقة بحكم الزمن. ولكن، من المهم أن أذكر أن ما

وجدته خلال هذه الرحلة إلى روسيا، وما سمعته من مواطنين هناك اختلف تمامًا عما توقعته. فشعرت بوجود نوع من عدم الرضا العام عن الأوضاع القائمة، وإن كان بصورة مستترة واقتصار التعليق مع ناس يمكن الوثوق فيهم، وسمعت عن حالات من الفساد لم أتمكن من تحديدها لعدم معرفتي باللغة الروسية، وقد عبَّر لي أحد المترجمين إلى اللغة العربية الذي كان قد مارس العمل في أسوان في أثناء بناء السد العالي أن لديه رغبة عارمة للعودة إلى مصر، كما لاحظت انتشار ظاهرة تعاطي الخمور إلى درجة الثمالة حتى إنني تعرضت شخصيًّا إلى هجوم من شاب مخمور من الواضح أنه تناول كمية مهولة من الخمر، حاول جذبي إليه في الشارع فبدأت أصرخ باللغة الإنجليزية ونَعته بالجنون، وهو يمسكني من ذراعي بيد قوية. الحق، أظن الآن أن بعض الشباب الموجودين على الرصيف نجحوا في تخليصي منه، ولكنني لم أدرك ساعتها كيف أمكنني الإفلات منه، فتوجهت جريًا بكل قوتي إلى مقر المدرسة بعد أن كاد قلبي يتوقف من الخوف.

أعتقد اليوم وبعد كل هذه السنوات، ومع التغييرات الكبرى التي حدثت هناك، أن السبب الأساسي في الانقلاب مائة وثمانين درجة عن الأوضاع السابقة يعود إلى عدم إشراك الجمهور الواسع هناك في اتخاذ القرارات أو حتى إلى استطلاع رأيه فيما يخص حياته، وفرض فلسفة الفكر الاشتراكي من دون تبسيط مفاهيمه حتى يستوعبها عامة الناس، أو حتى من دون تطبيقه بطريقة فعلية، وإنما تمت محاولة الفرض من أعلى، خاصة في المرحلة الستالينية حيث تكاثرت معسكرات الاعتقال في سيبيريا لأي صوت مُعارِض، واتسمت تلك المعسكرات بظروف شديدة القسوة، بل وصولًا إلى حد الإبادة أحيانًا. وهو ما قد يُفسر السقوط السريع للاتحاد السوفيتي الذي تبعه سقوط ما عُرِف بالمعسكر الاشتراكي في أوروبا الشرقية. أما الجو داخل المدرسة، فكان أكثر أمانًا ودفئًا، خاصة مع الطالبات والطلاب من أمريكا اللاتينية الذين يُصاحب حماسَهم الثوري، واحتمالية تضحياتهم المستقبلية عند العودة إلى بلدانهم، حبُّ الحياة والغناء والرقص.

كنت أرغب في العودة إلى مصر بأقصى سرعة لاحتراق قلبي على ابنتي، لكن ظل البعض يُحذرني من الذهاب إلى مصر قبل أن يقوم بعض الزملاء بحل مشكلة عودتي، مما أدَّى إلى بقائي في الغربة فترة إضافية. في هذه الأثناء، كانت هناك تحضيرات لإقامة مؤتمر اتحاد النساء الديمقراطي العالمي ببراغ الذي سبق أن كانت مصر تحظى بعضويته بفضل جهود الرعيل الأول من الوجوه النسائية المصرية ومنهن هدى شعراوي وأخريات، ولكن جرى تجميد هذه العضوية بعد زيارة السادات للقدس. جاءني تكليف بالمشاركة في هذا المؤتمر الذي شاركت فيه أيضًا الصديقة فتحية العسَّال كممثلة لحزب التجمع. اجتمعنا معًا في الفندق الذي تُقام فيه فعاليات المؤتمر ويتحمل إقامة المشاركات من وفود جميع الدول الأعضاء في الاتحاد، واتفقنا على توزيع أنفسنا ضمن جلسات الفعالية، والالتقاء مساء لتحديد الإنجازات التي حققناها خلال اليوم، واختيار الجلسات التي سنحضرها في اليوم التالي. بعد جلسة من الجلسات، تقابلنا في بهو الفندق، فوجدنا

أنفسنا مُحاصَرات بمجموعة من الوجوه المُتجهمة غير المألوفة، ارتبنا في أشكالهم وفي طريقة تطويقهم لنا، تبين فيما بعد أنهم ضباط عراقيون. أخذتني فتحية من ذراعي قائلة:

- شوفي، يا نموت مع بعض يا نعيش مع بعض.

أجبت عليها:

- ماشي، لكني أفضل إننا نعيش مع بعض.

ذهبت بعد هذا الحادث إلى الإدارة التشيكية لتنظيم المؤتمر، وحكيت لهم التهديد غير الصريح الذي تعرضنا له، فطمأنوني أنه سيوجد في جميع الجلسات التي سوف نحضرها فرد أمني بزي مدني يقوم بحمايتنا. أما الإنجاز الوحيد الذي حققته فهو النجاح في إعادة عضوية مصر، أو بالأصح المكتب النسائي بحزب التجمع، إلى الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي.

عُدت بالفعل إلى مصر في منتصف عام ١٩٨٢، ولم أجد مكانًا شاغرًا للعمل في المركز الثقافي الفرنسي، فقبلت بوظيفتين متتاليتين لم يُقدما لي كثيرًا من الناحية المهنية. استمر هذا الوضع الوظيفي حتى يناير ١٩٨٤. الوظيفة الأولى كانت في مكتب المحامي شحاتة هارون، وكنت تقربت كثيرًا من أسرته خاصة بصديقتي الغالية نادية هارون إلى أن تُوفيت فجأة منذ سنوات وتركت وراءها فراغًا كبيرًا، كما تعرفت من خلالهم على الأساتذة ألبير آريِّه وزوجته سهير شفيق. أما الوظيفة الثانية، فكانت كسكرتيرة تنفيذية في مكتب للاستيراد وتصدير بعض المنتجات المصرية.

في حدود ١٩٨٢، سمعت عن وجود قسم حر في أكاديمية الباليه بالهرم، وكانت ابنتي قد وصلت إلى سن السادسة، فذهبت إلى الأكاديمية لأستعلم عن شروط التحاقها بهذا القسم. طلبوا مني إحضار ابنتي حتى تجتاز امتحان اللياقة. طبعًا، كنت أسعى إلى تحقيق الحلم الذي لم أتمكن من إنجازه لنفسي. طوال مدة الاختبار، كدت أبكي من التوتر، حتى أبلغوني أنها مقبولة. كنت أكثر حماسًا من طفلتي وأخرج من عملي في موعدي المُحدد حتى أصطحبها على الفور إلى الدرس. ولكنها كادت تصيب مُدربها بالجنون، فكانت ما زالت طفلة صغيرة، ولا تُطيع دائمًا ما يُطلَب منها، بل يجدها المُدرب أحيانًا تداعب شعر الزميلة التي أمامها وتبدو كأنها لم تسمع توجيهاته. عمومًا، هي قررت في الثانية عشرة أن تترك الباليه. وعلى الرغم من شعوري ببعض خيبة الأمل، لم أفرض عليها اختياراتي أطول من ذلك، لما شعرت به من عدم الجدوى وللوصول إلى نتيجة أنني أمام إنسانة كادت تكتمل لديها مقومات الكيان المستقل الذي ينبغي احترامه.

كما أذكر لابنتي أن والدها كان قد قُبض عليه في حدود سنة ١٩٧٩، فذهبت أنا وهي إلى مصلحة السجون لاستخراج إذن بزيارته في سجن طُرة. فلما دخلنا حجرة الضابط المختص بمنح التصاريح، إذ بابنتي تشير إلى صورة على الجدار لأنور السادات وتصيح:

- الرجل ده وحش.

فكاد قلبي أن يتوقف، خفت أن يكون هناك احتمال بعد هذا الكلام أن يتم رفض منحنا إذن الزيارة وأن تُصاب الصغيرة بالإحباط لعدم رؤية والدها، لكن الضابط ابتسم، ولم يتردد في تسليمنا التصريح.

سنوات تغيير المسار المهني والنضالي
وبعض شهور الغربة

١٩٨٤-١٩٩٤

استمرت الوظائف المؤقتة التي مرت عليَّ حتى يناير ١٩٨٤ حينما سمعت عن وظيفة في المكتب الإقليمي لمجلس السكان الدولي. فتقدمت بطلب، وأُجريت مقابلة معي قُبلت بعدها كسكرتيرة للبرامج، وبصفة خاصة برنامج مِنَح الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الذي اهتم بدعم قدرات الباحثين الشباب من المنطقة من خلال منحهم بعض التمويل لاستكمال دراساتهم العليا، بعد التدقيق في مدى صلاحية المقترحات التي يتقدمون بها. كان مديري في بداية التحاقي بهذا العمل باحثًا اجتماعيًّا وإداريًّا أمريكيًّا متمكنًا، ولكن نظرًا لإعاقة أصابته أدت إلى بتر إحدى ساقيه اتسم أسلوبه أحيانًا ببعض التجريح والعنف. أما زوجته التركية، وهي أيضًا باحثة اجتماعية، فقد كانت أقرب بكثير إلى قلبي منه. منذ اليوم الأول لعملي تعرفت على أحد العاملين هناك كان قد سبقني بيومين في الالتحاق بالعمل. ربطت بيني وبين هاني حنا صداقة دامت فوق الثلاثين عامًا، إلى أن ذابت وتفرقنا كل في طريقه.

بعد سنوات، نُقل المدير الأمريكي إلى وظيفة في بلد آخر وعُينت بدلًا منه مديرة لبنانية هي الدكتورة هدى زريق أستاذة الصحة العامة في الجامعة الأمريكية ببيروت، والتي اختلف أسلوبها في التعامل بطريقة جذرية. نعم، كانت حاسمة فيما يتعلق بالأداء المهني، ولكنها تمكنت من بناء علاقة إنسانية مع جميع الزملاء، فكانت تدعونا بطريقة دورية إلى منزلها لنقضي سهرة ظريفة معًا. بعد توليها المنصب قامت بترقيتي كمديرة للبرنامج. في إطار العمل بمجلس السكان خلال الفترة ما بين ١٩٨٤ وبدايات ١٩٩١ تعلمت مجالًا جديدًا عليَّ وهو ما يُسمى بالتنمية. أتيحت لي فرصة القراءة كثيرًا والتعرف على مفاهيم بدأ إطلاقها على المستوى الدولي في حدود الستينيات، ولكنها لم تكن مألوفة بالنسبة إليَّ. صحيح أن كثيرًا من هذه المصطلحات المستعملة خالية من المضمون الفعلي وتفتقر إلى آليات تنفيذها ومعايير قياس فعاليتها. لكن، كانت معرفتها مفيدة عمومًا في ظل هيمنة لغة خطاب جديدة ما زالت سائدة حتى اليوم والتي تحتاج إلى القدرة على التعامل معها. كذلك، أتاحت لي إمكانية صقل وتجويد أدائي المهني وكذلك اكتساب مزيد من الإتقان للغة الإنجليزية. على الرغم من أنني استمتعت بعملي، فقد قررت أن أترك هذه الوظيفة في بدايات ١٩٩١ لما علمت أن مجلس السكان الدولي بدأ يعتمد على منحة مهمة من هيئة المعونة الأمريكية التي لم أثق كثيرًا في حسن نواياها، خاصة أن تغطية هذه الأموال سوف تمتد إلى بعض أنشطة المكتب الإقليمي الذي أعمل فيه. في الوقت نفسه بدأت أبحث عن وظيفة أخرى لأتمكن من سد احتياجات أسرتي الصغيرة، أي ابنتي وأنا في الأساس، وكذلك المساعدة في سد احتياجات والدَي بقدر الإمكان.

كما حدث لي في طفولتي، اضطرت بسمة إلى أن تعود من المدرسة إلى المنزل بمفردها، فكان موعد انتهاء الدراسة هو الثانية ظهرًا، وموعد خروجي من العمل الثالثة، وربما يمتد إلى أكثر من ذلك إذا اقتضت ظروف العمل. فكنت أضع مفتاح الشقة في سلسلة مُعلقة بعنقها لتتمكن من دخول المنزل قبلي. في يوم، اتصلت بي في المكتب ودار بيننا هذا الحوار:

- ماما، لوح الزجاج اللي فوق ترابيزة السفرة اتكسر.

- يا مصيبتي! انت جرى لك حاجة؟ اتعورتي؟

- لأ يا ماما مفيش حاجة.

- هو اتكسر إزاي؟

- اتكسر وأنا باكوي عليه هدوم العروسة.

اندهشتُ ثم صمتُّ قليلًا وكدت أن أضحك، ثم قلت:

- طب يا حبيبتي خدي بالك وما تقربيش من ترابيزة السفرة لحد ما أرجع.

الحادثة الأخرى أنني في أثناء رجوعي من عملي لآخذ ابنتي إلى درس الباليه، وجدتها واقفة عند مدخل الجراج الموجود تحت العمارة التي نسكن فيها، وهي تبكي، استغربت من وجودها بالشارع ومن منظرها المُنهار، فلما سألتها عمَّ حدث قالت إن هناك رجلًا حاول أن يُقبلها ووعدها بإحضار الشوكولاتة لها، غالبًا لاستكمال ما كان ينوي القيام به، بالطبع، جنَّ جنوني أمام حالة التحرش تلك مع طفلة صغيرة لا تعرف كيف تحمي نفسها، وتذكرت أنني لما كنت أتعرض في نهايات سنوات المراهقة إلى مثل هذه الممارسات، اعتدت أن أسحب ورائي المتحرش حتى أصل إلى الحي الذي كنت أسكن فيه ويقوم جدعان الحي بتخليصي منه ومعاقبته إذا لزم الأمر، وهو ما كان يحدث بالفعل، في هذه المرة، لما وجدته أمام محل البقالة الكائن بالقرب من العمارة غالبًا لابتياع الشوكولاتة التي وعدها بها، بدأت في مهاجمته وضربه بحجم إمكانياتي المحدودة، فتكونت دائرة من المشاهدين من أهل الحي حولي من دون أي تدخُّل من جانبهم، حتى هرب الشخص، أدركت فيما بعد أن عهد الشهامة قد ولَّى وأننا أصبحنا في عهد مختلف.

في أثناء الفترة التي قضيتها في مجلس السكان، سمعت من خلال أبي - الشغوف دائمًا بمعرفة كل ما هو جديد - عن مجموعة نسائية تشكلت في حدود ١٩٨٤ باسم «المرأة الجديدة» نسبة إلى عنوان كتاب قاسم أمين الذي كان يُعتبر في هذه الفترة نصيرًا للنساء. وعرض عليَّ والدي شراء إحدى مطبوعاتهن للمساهمة في دعم هذه المجلة. وقد دفعت بالفعل مبلغًا متواضعًا، ولكنني لم أهتم كثيرًا بمضمون المجلة، فقد كنت ما زلت أكثر ميلًا إلى الأمور ذات الطابع السياسي العام على الرغم من كل خيبة الأمل التي أصابتني في هذا المجال. جاءتني بعد فترة إحدى معارف أبي لتُحدثني عن تفاصيل المجموعة ومحاولة جذبي إليها.

في أوائل عام ١٩٨٦، عاد والداي من براغ للاستقرار ثانية في مصر، بعد رجوعهما سافر

والدي في نفس العام إلى أمريكا للمرة الأولى، وكان الغرض من هذه الرحلة زيارة أشقائه الذين ما زالوا على قيد الحياة بعد أن هاجروا إلى هناك جميعًا خلال الستينيات، كما لحقت بهم بعدها والدتهم نوننا درويش وظلت هناك حتى توفيت في ديسمبر ١٩٧٧ عن عمر واحد وتسعين عامًا. ومع الأسف كان والدي قد فقد أي وسيلة اتصال بأخي مجاهد على الرغم من أنه حاول مراسلته على العنوان الذي كان لديه ولكن جاءه رد من هيئة البريد السويسرية أن سكان هذا العقار قد انتقلوا إلى مكان آخر غير معلوم لديهم.

خلال فترة سفره، رنَّ الجرس في منزلنا، ففتحت الباب ووجدت أمامي مجاهد، وزوجته آن ليز، وابنتهما جويل، وابنهما سامي (شابين جميلين أفتخر بأنني عمتهما). قررنا ألا نُخبر أبي بهذا النبأ حتى تكون مفاجأة جميلة له ساعة عودته الوشيكة. علمت من مجاهد أنه قد جاء إلى مصر بناء على إلحاح أولاده للتعرف على جذورهم. ابنتي بسمة فرحت أيضًا بأولاد أخي، وهي التي كانت ترفض حتى هذا الوقت التحدث باللغة الفرنسية التي تتعلمها في المدرسة بحجة أنها مصرية كما حدث سابقًا في مطار براغ، فقد قررت أخيرًا ممارستها لإمكانية التواصل مع أولاد خالها. كذلك اتفقنا مع مجاهد وزوجته أن تقضي بسمة فترة عندهما خلال إجازة الصيف، وهو ما ساهم في إحداث تقدم كبير في إتقانها للغة الفرنسية. بعد هذه الزيارة الأولى، جاء مجاهد وأولاده أكثر من مرة إلى مصر، وخاصة ابنته جويل. وبالمناسبة، سُميت هذه الأخيرة نسبة إلى اسم والدي حيث إن المرادف لاسم يوسف بالفرنسية هو «جوزيف»، وكثيرون يختصرونه في «جو». أما جويل، فقد أسمت أحد أولادها التوأم «نايل» نسبة إلى عمتها نولة مع فارق طفيف في معنى الاسمين.

في حدود ١٩٨٨، اتخذت قرارًا حاسمًا بترك أي تنظيم أو عمل سياسي. تواكب مع هذا القرار المُعلَن محاولات للضغط عليَّ للتراجع، ولكنني صمدت، فلم أعد قادرة على تحمل ذلك، وكنت بحاجة إلى الجلوس مع نفسي لتحديد خطواتي القادمة. لم يخطر ببالي إطلاقًا ما حدث فيما بعد. فقد طلبت إحدى عضوات مجموعة المرأة الجديدة مقابلتي، وهي العزيزة عزة كامل، والتقينا في منزل باب اللوق، فعرَّفتني بنفسها، وقالت إنهن يُنظمن لقاء موسعًا سيضم نساء من خارج المجموعة للاسترشاد بآرائهن حول مستقبل المجموعة، وألقت ببعض الأسماء المعروفة المدعوة لحضور اللقاء، ووجهت إليَّ الدعوة للمشاركة. قلت لنفسي إنه لا ضرر من هذا، وتوجهت إلى الموعد في أحد البيوت بالمهندسين. لم أكن على دراية سابقة بالتفاصيل الكاملة للمجموعة، ولكن ما شعرت به من هذه الجلسة هو أن هناك خلافًا كبيرًا يقسم المجموعة إلى مجموعتين فصار يرتفع ويحتد الصوت من الجانبين، واتضح أن الصراع يتعلق بمدى قبول أو رفض فكرة الحصول على تمويل من مصادر خارجية. الواقع أنني لم أكن قد كوَّنت بعد وجهة نظر متكاملة حول هذا الموضوع، ولكني كنت أرى أنه لا يجب تناول المسألة ككتلة مُصمتة، أي إما بالقبول الكامل أو بالرفض الكامل. فمصادر التمويل المحلي لم تكن متاحة لهذه النوعية من الأنشطة، أي أنشطة دفاعية أو

حقوقية، خاصة تلك التي تتبنَّى توجهًا نسويًّا. ولا يمكن التفكير في استمرار نشاط المجموعة استنادًا إلى بعض التبرعات الضئيلة هنا وهناك، هذا إذا كانت هناك نية جادة لإنجاز أنشطة فعلية. أما فيما يتعلق بالبحث عن مصادر خارجية، فكان رأيي أن ذلك يتطلب وضع معايير محددة تسمح بالاختيار فيما بين البدائل المطروحة بحيث لا تؤثر الاختيارات على استقلالية المجموعة ولا تتعارض مع توجهاتها سواء الوطنية، أو النسوية، أو العامة. النتيجة النهائية لهذا الاجتماع بالنسبة إليَّ هي أنني أصبحت من دون أن أدري (بوضع اليد) عضوة في هذه المجموعة التي انقسمت فعليًّا فيما بعد.

في العام نفسه، أخذتُ بسمة في رحلة إلى إنجلترا وفرنسا. خلال هذه الرحلة التقت بسمة للمرة الأولى بخالتي سيلين وزوجها ألن، وزرت أنا وهي بعض معالم لندن، ومنها المتحف البريطاني الذي أصررت أن تشاهد فيه ابنتي حجر رشيد الأصلي، وبعض الآثار المصرية الأخرى المعروضة فيه، مثل عدد من المومياوات الفرعونية. لما جئنا لنقف أمام حجر رشيد، كانت هناك رحلة مدرسية تزوره وتحجب عنا رؤيته ولا تقبل أي من مرافقات هذه الرحلة ترك أي مجال لنا للمشاهدة عن قرب. فما كان مني إلا أن قلت لهن:

- على فكرة، هذا الحجر أنتم سرقتموه من بلادنا، فمن حقنا - على أقل تقدير - أن نشاهده براحتنا.

لا أتذكر ماذا حدث بالضبط بعد كلامي لكن أغلب الظن أنهم ابتعدوا قليلًا حتى نراه ثم رجعوا حوله لاستكمال درسهم.

أما الرحلة الثانية، فكانت إلى فرنسا التي تزورها بسمة للمرة الأولى. فلما وصلنا في اليوم الثاني إلى محطة قطار مهمة، اسمها محطة سان لازار، استدارت ابنتي نحوي لتقول:

- الناس هنا قلالات الأدب.

سألتها لماذا تقول ذلك، فأشارت إلى شاب وفتاة منغمسين في قُبلة عميقة، فحاولت أن أشرح لها أن التقاليد في مصر غير التقاليد هنا، وأن هذا يُعتبر عاديًّا في بلادهم ولا يراه الناس قلة أدب. ولكنها أصرَّت على وجهة نظرها التي ربما غيَّرتها بعد سنوات من السفر إلى الخارج وبعد بقائها لعدة سنوات أخرى في الغربة، ومع ذلك عليَّ الاعتراف بأنني لم أحبذ طوال حياتي عَرض المشاعر العاطفية على الملأ، وأشعر كأنها عملية استعراضية.

خلال وجودنا في باريس، حاولت الاتصال بصديقي جان بيير، لكن الذي ردَّ على مكالمتي قال إنه غير موجود، فلما طلبت منه أن يُخبره بأن صديقته نولة من مصر موجودة في باريس وتريد التواصل معه، أطلق جان بيير صيحته الضاحكة التي أعرفها جيدًا، فكان هو الذي يتنكر لعدم رغبته في الرد على أي شخص لا يعرفه، ولما علم أن بسمة موجودة معي، ازداد حماسه. فهو لم يرها منذ أن كان عمرها أقل من سنتين وربطت بينهما صلة اقتسام الطعام. المهم أننا اتفقنا على

اللقاء في اليوم التالي، وأخذَنا إلى أحد الملاهي الكبرى التي سبقت ديزني لاند في باريس، وجرَّب الطفل الكبير ومعه الطفلة الأصغر جميع الألعاب الموجودة في المكان، أما أنا فكنت أراقبهما عن بُعد لخوفي من الألعاب التي تتطلب الصعود إلى ارتفاعات. أظن أن بسمة استمتعت بهذا اليوم. بعد ذلك، أخذَنا صديقي إلى مقهى كان على ما أتذكر في الشانزليزيه، وتناول الطفلان بعض الحلويات، بينما طلبت لنفسي كوبًا من البيرة. ولكن في أثناء سيرنا جنبًا إلى جنب قبل الوصول إلى المقهى، وبعيدًا عن آذان بسمة، اعترف لي بأنه مصاب بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز). كانت صدمة إليَّ ليس للدلالة التي نُسبت لهذا المرض في ذلك الحين، ولكن لخطورته على حياة الإنسان الذي أحبه كأخي أو ربما مثله.

كان عام ١٩٩٠ مؤلمًا، فقد تُوفي فيه صديقان عزيزان: جان بيير ثييك، وهشام خطَّاب وهما الاثنان في سن الحادية والأربعين. الأول بسبب المرض الذي حدَّثني عنه، والثاني مُصابًا بذبحة صدرية تاركًا زوجة وابنًا صغيرًا. أخوان لي يرحلان في الوقت نفسه تقريبًا.

بعد تَركي مجلس السكان الدولي، وجدت وظيفة كمُدربة إدارية وسكرتيرة تنفيذية في إحدى شركات البترول بليبيا في بدايات عام ١٩٩١، وتحديدًا في مرسى البريقة بخليج سرت، وهي المنطقة التي كثيرًا ما تذكرتها في أثناء الاشتباكات العنيفة التي حدثت بها خلال السنوات الأخيرة والتي آلمتني بصفة شخصية. كان النظام المعمول به - غالبًا مثل شركات البترول الأخرى - هو البقاء في موقع العمل لمدة ثلاثة أشهر متواصلة ثم القيام برحلة سفر مدفوعة إلى بلدي لمدة خمسة عشر يومًا، وبعدها العودة إلى عملي مرورًا بمدينة بني غازي. تعرفت هناك على زميلات وزملاء من جنسيات متعددة، ولكن بصفة خاصة من أيرلندا والفليبين لأنهم كانوا يمثلون حجمًا مهمًّا من العمالة وساعدوني في تحمل المعيشة داخل أسوار مجمع النفط. كنا مجموعة من سبع مصريات، وضعونا كل اثنتين في مسكن مشترك وسريعًا ما بدأت تدب الخلافات داخل كل منزل كعادة المصريين في الغربة، إلى أن طردت إدارة الشركة بعضهن ممن تسببن في أشكال متنوعة من الفضائح منها على سبيل المثال: رفض إحدى المصريات استمرار الإقامة في مسكن مشترك مع زميلة مسيحية، بينما أفادني بعد ترحيلهن مدير الموارد البشرية بالشركة أنهم لا يهتمون في ليبيا بهذه النوعية من الاعتبارات العنصرية التي نهتم بها نحن المصريون، أما الحالة الأخرى، فكانت بسبب إقامة إحدى الزميلات المصريات علاقة غرامية مع أحد المديرين وقيام زميلة ثالثة بالإبلاغ عنها، مما تسبَّب في طرد الاثنتين معًا. وهكذا بقيت ثلاث منا فقط وهو ما سمح لي بالحصول أخيرًا على مسكن منفرد بعيدًا عن كل أشكال النميمة وحياكة المؤامرات الدنيئة.

أنا في المسكن المنفرد بمرسى البريقة بليبيا

في أثناء وجودي بليبيا، كانت بسمة مقيمة مع والدَي (اللذين عادا من الغُربة إلى مصر عام ١٩٨٦) في بيتهما بباب اللوق، بالقرب من مدرستها. وكنت مطمئنة عليها تمامًا من هذا الترتيب. كما تمكنتُ من دعوتها لقضاء بعض الوقت معي في أشهر الصيف إذ أصبح سكني بمفردي يسمح بذلك. شاطئ البحر هناك امتداد للساحل الشمالي بمصر، فكنت أنظر إلى البحر وأفكر أنها المياه نفسها التي تجري هنا وهناك، إنه الحنين للوطن. لم أذهب قَطُّ في زيارة إلى طرابلس، ولكنني سمعت أنها مدينة جميلة، ولكن يبدو أنه تم تدمير أجزاء منها في أثناء الأحداث الدامية التي دارت منذ سنوات قريبة هناك. كنا نذهب أحيانًا أيام الإجازة الأسبوعية إلى مدينة بني غازي القريبة، والناس في هذا الجانب من ليبيا أقرب إلى المصريين، وكثيرون منهم متزوجون بنساء من الإسكندرية. أتذكر ضاحكة أنني اتصلت بأهلي قبل عودتي النهائية وسألت أبي لو كان يريد أن أشتري له شيئًا من ليبيا، فطلب مني الكتاب الأخضر، وهو الكتاب العجيب الذي ألَّفه، أو كلَّف بتأليفه، رئيس الدولة الليبية آنذاك. فلما ذهبنا في إحدى رحلاتنا إلى بني غازي، بحثتُ عن مكتبة وعندما وجدت واحدة، دخلنا إلى المحل وطلبت الكتاب الأخضر، فإذا بالبائع الذي غالبًا كان صاحب المكتبة، يرحب بنا ترحيبًا شديدًا ويدعونا بإصرار إلى الجلوس وتناول كوب من الشاي. أخيرًا، اشترينا الكتاب وخرجنا من المحل. من الأغلب أن لا أحد كان يشتري هذا الكتاب الذي يُوزَّع مجانًا على من يريد ومن لا يريد، فاعتقد الرجل أننا إما بُلهاء أو جهلاء. ومع اقتراب فرض الحصار على ليبيا بقرار من الأمم المتحدة، عقدتُ العزم على العودة بدوري إلى مصر في نهاية

فبراير ١٩٩٢ حاملة بكل فخر الكتاب الأخضر لأهديه إلى أبي حتى يساهم في تعميق معلوماته الثقافية والسياسية!

في يوم من أيام ١٩٩٢، رنَّ جرس الباب في شقة يوسف الجندي، فوجدت أمامي جاكلين ثيبك والدة صديقي الحبيب جان بيير الذي كنت علمت بوفاته. كانت جاكلين كعادتها مليئة بالحياة والقوة على الرغم من كل الحزن الذي طالها من موت ابنها. حكت لي أنها كانت قررت منذ فترة ترك فرنسا لإفساح المجال أمام جان بيير للاستمتاع بحياته متخلصًا من الشعور بوصاية أو أي تدخل في شؤونه الخاصة. فذهبت إلى الصين لتدريس اللغة الفرنسية، ولما سمعت أن جان بيير يحتضر، عادت مباشرة إلى فرنسا حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فور وصولها، وقالت إنه ربما ظل منتظرًا حتى يتأكد من وصولها حتى يرحل. كما قالت إنها جاءت خصيصًا إلى مصر لتراني لأنها تعلم مدى الارتباط بيني وبينه، وأهدتني نسخة من الكتاب الذي جمعت فيه بعض مقالاته المنشورة في جريدة لوموند الفرنسية وأصدرته جاكلين بعدما اختفى الابن، كما أهدتني آخر كتاب كان يقرأه ابنها قبل وفاته. قضينا في فترة وجودها أيامًا جميلة، نتذكر ونضحك معًا على تفصيلة تُذكِّرنا بأيام إقامتي عندها في فرنسا. وأحكي لها عن الرحلة التي التقى فيها جان بيير ببسمة بعد أن كبرت، وتحكي لي عن تجربتها في الصين. لا أدري كيف ولماذا انقطع التواصل بيننا فيما بعد سفرها. ولكنني حاولت في رحلة لاحقة إلى باريس الاتصال بها من أجل الترتيب للقاء جيد، ولكن هاتفها لم يرد.

بعدما عدت من ليبيا، التقيت ثانية بمجموعة المرأة الجديدة التي كانت أقرب إلى وجهة نظري عمَّا كنت شاهدته من تطرف وجمود في مواقف المجموعة الأخرى التي سرعان ما اتخذت لنفسها اسمًا جديدًا والتي يبدو أنها اندثرت اليوم، فلم يعُد أحد يسمع أي أخبار عنها. بدأنا حينذاك التفكير في ضوابط الحصول على تمويل خارجي، وفي اتخاذ شكل قانوني، وفي تطوير مقترحات مشروعات، أي بدأنا ندخل في مرحلة المأسسة.

في هذه الأثناء، كنت قد وجدت وظيفة عرضتها عليَّ زميلة عزيزة تعرفت عليها أيام العمل في المكتب الإقليمي لمجلس السكان الدولي، فطلبت مني أن أصاحبها في رحلة تأسيس مركز للمرأة العربية للتدريب والبحوث. بدأنا بالعمل معًا في القاهرة في استضافة المجلس العربي للطفولة والتنمية - وكنت قد نجحت في ضم صديقي هاني إلى فريق العمل - حتى يتحدد مكان مقر هذا المركز بدعم ورعاية سمو الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود الذي كان قد تزعَّم حركة الأمراء الذين انتفضوا عام ١٩٥٨ المعروفة باسم «مجموعة الأمراء الأحرار». وهي المجموعة التي طالبت بإنشاء حكم دستوري برلماني في البلاد، وإبعاد أسرة آل سعود الحاكمة عن الحكم، والمساواة بين النساء والرجال. مشروع مركز المرأة العربية يقع ضمن مشروعات تنموية أخرى كان يرعاها هذا الأمير، منها على سبيل المثال لا الحصر: المجلس العربي للطفولة والتنمية، والشبكة العربية للمنظمات الأهلية، والجامعة العربية المفتوحة، إلخ.

قرر مجلس أمناء الكيان الجديد أن يكون مقره تونس العاصمة، وبالتالي، كان علينا السفر جميعًا للعمل هناك. قبل يوم من السفر وفي أثناء ترتيب جميع أوضاعنا في مصر، فوجئت أنا وهاني أن مديرة المركز قد استقالت فجأة، فكان عليَّ السفر وحدي إلى تونس نحو المجهول في يوليو ١٩٩٣ على أن يلحقني هاني بعدها بفترة وجيزة. انتظرني في المطار أحد موظفي الوزارة التونسية لشؤون المرأة، والذي ظل يسعى إلى مراقبتنا ومراقبة ما نفعله ونقوله طوال مدة إقامتنا إلى درجة أنه عيَّن مسؤولًا عن العناية بحديقة مقر المركز ليُبلغه على الفور بأي مستجدات من جانبنا، وقد اكتشفنا ذلك حينما سمعنا بالمصادفة تسجيلًا لمكالمة دارت بين الرجلين، وفُضحت المسألة بسبب خلل في أنظمة الإرسال التي كانت ما زالت بدائية في تونس. بعد أيام، وصل هاني ثم تلته الدكتورة نادية الشيخ والتي أصبحت فيما بعد صديقة مُقربة، وعُينت مؤخرًا أول عميدة لكلية الآداب والعلوم في الجامعة الأمريكية ببيروت. نادية الشيخ دخلت في حالة إحباط عميقة لما علمت باستقالة مديرة المركز، وظهر هذا الإحباط على هيئة نوبات من النوم غالبًا كوسيلة للهروب والإنكار. فأذكر أننا أخذناها بعد يوم أو يومين من وصولها إلى مدينة الحمَّامات لمشاهدة عرض مسرحي في الهواء الطلق من أجل الترفيه عنها، فإذا بها تستلقي على إحدى عتبات المدرج المحيط بالمسرح وتدخل في نوم عميق حتى نهاية العرض. كنت قد أخذتُ أيضًا بسمة معي ونجحت في إلحاقها بمدرسة الجالية الأردنية بتونس، وهي المدرسة التي حصلت منها على الثانوية العامة. في البداية كانت الدراسة صعبة عليها لأنها اضطرت إلى أن تدرس المواد التي تعلمتها من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية، ولكنها نجحت في التغلُّب على هذا العائق وبعد حصولها على الثانوية العامة عادت إلى مصر ودخلت قسم إنجليزي بكلية الآداب جامعة القاهرة. وبفضل صديقات تونسيات وبوجه خاص العزيزة الدكتورة حفيظة شقير، أستاذة القانون بالجامعة التونسية وإحدى النسويات التونسيات، تعرفنا خلال إقامتنا على جمال هذا البلد الذي يُطلَق عليه «تونس الخضراء»، وهي فعلًا خضراء.

أذكر من هذه الفترة عدة أمور: أنني عُينتُ مديرة إدارية ومالية لمركز المرأة العربية للتدريب والبحوث (مركز كوثر)، وواجهتنا مشاكل أمام الحصول على تصريح بفتح حساب بالبنك يسمح لنا بالإنفاق على الموظفين الموجودين، وعلى تأسيس المركز من أثاث ومُعدات، وعلى النفقات الجارية. فتوجهت إلى أحد البنوك الوطنية وطلبت مقابلة مديرة الفرع، وتحدثت معها، وأبلغتها بأحوالنا وأن اتفاقية الأمير طلال مع الحكومة التونسية لم تُبرم بعد. هذه السيدة من أكثر النماذج المتميزة بسلوكها شديد التفتح والإنسانية والبُعد عن البيروقراطية التي قابلتها في أماكن أخرى خلال حياتي، فقررت أن تفتح لنا حسابًا على مسؤوليتها إلى أن يأتيها التصريح الرسمي بذلك. وأظل ممتنة لها وإن كان التواصل قد انقطع بيننا منذ سنوات مع الأسف لأسباب لوجستية متعلقة بضعف الشبكات الإلكترونية هنا وهناك.

الذكرى الثانية خاصة بدليلة، عاملة النظافة في المركز، التي كانت تساعدني أيضًا أيام إجازاتها في الأعمال المنزلية ثم تلتها شقيقتها زينة حينما ازدادت الأعباء الواقعة على الأولى مع تزايد عدد الموظفات والموظفين في المركز. بعد اتساع حجم العمالة من التونسيات والتونسيين، سمعت دليلة إحداهن تسخر من حديثي عن تحضير الأرز بالشعرية، فكيف يمكن تخيل إعداد أصناف من الطعام بخلط أكثر من نوع من المُعجنات؟ وهن بالتأكيد لم يسبق لهن السماع عن «الكُشري». فدخلت دليلة في دفاع مجيد عن هذا الأرز الذي تذوقته في أثناء وجودها في منزلي، ولكن لها مواقف أخرى أكثر جمالًا.

كنا استأجرنا منزلًا من ثلاثة مستويات في حي اسمه «المنزه السادس»؛ الأرضي به المطبخ وقاعة المعيشة، والأول به حجرة نوم وحمَّام لي، والثاني به حجرة نوم وحمَّام لبسمة، بالإضافة إلى حديقة صغيرة، ومُسطَّح في البدروم أسفل المبنى لحفظ بعض الأشياء فيه. نظرًا لأننا لم نمتلك تلفونات محمولة في هذه الفترة، كنا نذهب إلى مكتب قريب لإجراء المكالمات الدولية، وهناك رأينا قطًّا صغيرًا تخيلنا أنه أنثى، فأخذناه معنا في المنزل وأسميناه توتي، ولكننا اكتشفنا بعد حين أنه ذكر، إلا أن اسمه بقي كما هو. بمناسبة توتي، كان والد بسمة وشقيقها الصغير كريم قد جاءا ليمضيا رحلة قصيرة في تونس، وفي مرة سألني كريم:

- هو توتي مش بيحبني ليه؟

استغربت من ذلك وسألته بدوري:

- ليه بتقول كده يا كريم، هو عضَّك أو حاجة؟

فقال:

- لأ، لكنه كل ما بيبص لي بيفتح بقه.

ضحكت كثيرًا أنا وبسمة لأن القط كان يفتح فمه لمجرد أن يتثاءب. فيما بعد، قرر توتي أن يرتبط بقطة صغيرة أسميناها «جوجا»، وكان الذكر يحرص على حراسة باب الحديقة المُطل على المدخل حتى تدخل حبيبته وتتناول بعض الطعام، الحقيقة أن الحيوانات أكثر إنسانية من البشر في أحيان عديدة.

رجوعًا إلى جدعنة دليلة، كانت بسمة قد ألحَّت أن يكون لها كلب أيضًا، فذهبنا يومًا من أيام الأحد إلى سوق يبيع أشياء كثيرة بما في ذلك أنواع متنوعة من الحيوانات الأليفة واشترينا جروًا صغيرًا ومعه توأمه الذي أخذناه للعيش مع صديقي هاني، فأبقينا معنا الكلب الذي اختارته بسمة وأسمته «بوبسي». ليست لديَّ أي خبرة في تربية الكلاب على الرغم من أنني أحبها، ومع أن بسمة كانت قد وعدتني بمساعدتي في تربية هذا الكلب تربية سليمة، فقد اقتصرت مساعدتها على حمل بوبسي طوال الوقت إلى أن أصبح حجمه كالخروف الصغير. فشلت جميع محاولاتي في

تعليمه عدم نشر كل ما في أحشائه داخل المنزل، وبالطبع لم تساعدني ابنتي كثيرًا في ذلك. سمعت من أحد الأصدقاء أنه حينما يتبول بعشوائية في أي مكان على سبيل المثال، يجب استعمال ورقة خفيفة مبرومة وخبط مؤخرته بحنان. لما فعلت هذا ظل يوميًّا يتبول عليَّ في أثناء نومي عند الفجر، وواضح أنه كان نوعًا من العقاب وتعبيرًا عن غضبه مني. بعد حين، لم أعد أطيق ذلك، فسألت دليلة إن كانت تعرف مكانًا آمنًا للكلب يمكننا إرساله إليه، فقالت إن أهلها يمتلكون بيتًا صغيرًا في قرية ليست بعيدة من تونس العاصمة اسمها «وادي الليل». بقي بوبسي هناك لما يقرب من سنة، فلما اقترب موعد عودة بسمة إلى مصر، طلبت مني الذهاب هناك لتوديع بوبسي. وجدنا بيتًا صغيرًا أمامه حوش ترابي واسع، وفي نهاية الحوش بوبسي مربوط في أحد الأعمدة. جرت بسمة إلى الكلب، وإذ به يقوم على ساقيه الخلفيتين ويحتضنها. كان المشهد مؤثرًا للغاية، الدموع تملأ عيوننا جميعًا لرؤية كل هذا الوفاء، وبالطبع سامحتُه عن كل الليالي التي وجدت فيها نفسي في البلل مضطرة لتغيير فرش السرير والاستحمام وقت الفجر.

اعتدت أيضًا أنا وهاني أن نذهب أيام الأحد إلى سوق تونس المركزي، وهو سوق واسع يقع في طرف شارع الحبيب بورقيبة، وهو غالبًا أهم شارع في مدينة تونس العاصمة. هذا السوق كان يتضمن أقسامًا مُحددة للخضراوات والفواكه، واللحوم، والطيور، ومُنتجات البحر، وكعادتي كنت أعشق التجول في طرقاته، وفي يوم وجدت كومًا من الليمون الصغير مثل الليمون الذي أُفضِّله في مصر، فبدأت أتحدث مع البائع وقلت له إنني من بلد يُنتج هذه النوعية من الليمون، فسألني ماذا يسمونه عندنا، وقلت له إن اسمه ليمون بنزهير، فطلب مني أن أكتب له هذا الاسم على قطعة كرتون ليضعها كيافطة على بضاعته، ربما تلفت نظر مزيد من الزبائن. أما أنا، فقد اشتريت يومها كيلو من هذا الليمون.

بعد قليل من رجوع بسمة إلى مصر، عدت بدوري واستأنفت عملي مع مجموعة المرأة الجديدة التي تحمست لها. كان ذلك في أكتوبر ١٩٩٤. تناقشنا كثيرًا وكان اختيارنا أن الشكل القانوني الأنسب هو شركة مدنية غير تجارية سُميت «مركز دراسات المرأة الجديدة» التي قمنا بإشهارها باسم أربع زميلات كنت واحدة منهن، مع الأسف العميق توفيت اثنتان بعد الإصابة بالسرطان. عملنا منذ ١٩٩٤ بهذا الاسم، وهي أيضًا السنة الأولى التي حصلنا فيها على تمويل من منظمة هولندية غاية في الاحترام اسمها «نوفيب». وهذا معناه أن المجموعة الأصلية التي بدأت في ١٩٨٤ نشطت بطريقة تطوعية حتى عام ١٩٩٤. ولكن تظل هذه النوعية من العمل محدودة النطاق، فمن الطبيعي أن من يُقدم الجهد التطوعي لا يمكن أن يُكرس يومه كاملًا لهذا النشاط، إذ على الإنسان توفير وسائل أخرى لسد احتياجات حياته واحتياجات أسرته اليومية. كانت الزميلات في أثناء فترة غيابي قد خُضن عديدًا من التجارب، منها حضور إحدى الزميلات المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان المنعقد في فيينا عام ١٩٩٣، والذي تضمن إعلانه وبرنامج عمله دعم إنشاء آلية

جديدة هي المقرر أو المقررة الخاصة المعنية بمسألة العنف ضد النساء. ثم المشاركة كمجموعة متجانسة في أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة عام ١٩٩٤. وكان للمشاركة في هذا المؤتمر الأخير صدى خاص في إبراز مجموعة مركز دراسات المرأة الجديدة، وجذب عناصر شابة واعدة إليها، أذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر: راجية عمران، وإيمان عبد الواحد، وشيرين أبو النجا، وهند واصف ولاحقًا شقيقتها نادية واصف، وأخريات. مما أدى إلى تدفق دم جديد يملأه الحماس لإحداث تغيير في أوضاع النساء.

أنا مع ابنتي الروحية راجية عمران

في إطار إثارة موضوع العنف على المستويين المحلي والدولي، قمنا بالتفكير في إجراء نوع من المسح الميداني العشوائي حول إدراك النساء لهذا العنف الواقع عليهن. وكانت المرة الأولى التي يتم فيها تناول هذه القضية بطريقة شاملة. فقبل ذلك، تناولت بعض الرائدات النسويات مثل الأستاذات ماري أسعد، وعزيزة حسين، والدكتورة نوال السعداوي موضوع ختان الإناث. لكن هذا البحث سعى إلى كشف كل من أبعاد العنف الجسدي، والجنسي، والنفسي، أي جميع النواحي التي كانت ما زالت من الموضوعات المسكوت عنها ويتم اعتبار الخوض فيها من الأمور التي لا تليق. بالطبع تعرضنا بعد إتمام العينة الميدانية وتحليلها، وعرضها على جمهور أوسع محليًّا، لهجوم شديد بزعم أننا نُطبق أجندة أجنبية، وأن ما نتحدث عنه غير موجود في بلدنا. ومع ذلك يبدو أن

القدرة على النفس الطويل، والإيمان العميق بقضيتنا قد أثمر بعد سنوات قاربت على الثلاثين أو أكثر، فأصبح الجميع يتحدثون اليوم في مصر حول هذه الظاهرة، حتى إن الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء قدَّم مؤخرًا إحصائيات دامغة في هذا المجال.

بقيت في تونس لمدة ما يقرب من سنة ونصف من يوليو ١٩٩٣ حتى أكتوبر ١٩٩٤ عدت بعدها للحاق بابنتي التي التحقت بالجامعة في مصر، ولا مجال لأن تبقى معي في تونس أكثر من ذلك. كانت إحدى الصديقات بالمرأة الجديدة، الدكتورة عايدة سيف الدولة، الطبيبة النفسية، والناشطة النسوية والحقوقية، قد وجدت لي وظيفة عرضتها عليَّ بمجرد وصولي. تعلقت هذه الوظيفة بمشروع خاص بالأنشطة التحضيرية استعدادًا للمؤتمر العالمي الرابع للمرأة المُحدد عقده في مدينة بكين بالصين خلال خريف عام ١٩٩٥. وكانت السفارتان الدانماركية والهولندية بالقاهرة قد بادرتا بإنشاء ما سُمي بصندوق بكين لدعم المنظمات غير الحكومية المصرية في إطار الأنشطة التحضيرية للمؤتمر، خاصة بعد أن كانت قد سقطت منطقتنا من حساب المنظمات الدولية في مجال دعم تلك الأنشطة. كما كلَّفت السفارتان مكتب مستشاري التخطيط والتحليل الاجتماعي والإداري (شركة سباك) بإدارة هذا المشروع لمدة سنة. ونظرًا للحاجة إلى وجود منسقة أو منسق لهذا المشروع يدير النواحي الإدارية والفنية، ويربط بين جوانبه المختلفة تحت إشراف لجنة استشارية لمتابعة جميع التطورات وإبداء الرأي، فقد تقرر أن أتولى هذا المنصب بعد مقابلة ناجحة مع رئيسة شركة سباك، الدكتورة سارة لوزا. وقد تضمنت المهام التي قمت بها خلال هذه السنة التواصل مع قائمة تزيد على ٣٥٠ منظمة مصرية غير حكومية وإعداد قاعدة بيانات لها، ونشر معلومات حول الصندوق، ومساعدة ٤٠ منظمة غير حكومية في بلورة وتطوير ٢٨ مقترحًا لمشروعات تمت بدعم من الصندوق. الخبرة المهمة لي كانت في السفر إلى العديد من محافظات مصر التي لم يسبق لي التوجه إليها من قبل، منها: المنيا، وأسيوط (التي لم أزرها فعليًّا في أثناء رحلاتي إلى الواحات)، والعريش، والبحيرة، والشرقية، والدقهلية، وبني سويف بالإضافة إلى الإسكندرية، والأقصر، وأسوان، والإسماعيلية، والقاهرة الكبرى لمتابعة تنفيذ المشروعات، ودعم تطوير أنشطة المنظمات غير الحكومية فيها إلى الأفضل، مما أتاح لي فرصة التعرف على مجموعة متنوعة من منظمات المجتمع المدني - خاصة القاعدية منها - والحصول على معلومات أكثر دقة عن أحوال هذا القطاع المهم بالنسبة إلى جميع بلدان العالم. أما الخبرة الأخرى التي لا تقل أهمية، فكانت في الاحتكاك المباشر بأحوال المصريات من خلفيات متنوعة، وهو ما يصب في صلب اهتماماتي النسوية، مع تعميق قدرتي على التفريق بين ما يؤدي فعليًّا إلى تنمية إمكانيات وصول النساء إلى الموارد والتحكم فيها وفي مصائر حياتهن، أي إلى تمكينهن، وبين ما يتسبب لهن في مزيد من التبعية، وكان ذلك من خلال فرز مشروعات الأنشطة المُقترحة، ومناقشة أصحابها للتطوير في اتجاه القضايا التي كانت قد وضعتها الأمم المتحدة لعرضها ومناقشتها خلال المؤتمر، ثم متابعتها

ميدانيًّا لضمان سَيرها في الطريق السليم. كذلك قمت بتنظيم اجتماعات اللجنة الاستشارية التي ضمَّت نخبة من النسويات أذكر منهن المرحومتين تهاني الجبالي وعايدة جندي وأخريات، مع إعداد محاضر الاجتماعات ثم إصدار نشرة كل ثلاثة أشهر تتضمن أخبار الصندوق باللغتين العربية والإنجليزية. وأخيرًا ترتيب مشاركة الوفود في الاجتماعات التحضيرية لمؤتمر بكين، كما نجحنا في تشكيل مجموعة من أربع عضوات نشطات من مركز دراسات المرأة الجديدة للمشاركة في فعاليات المؤتمر نفسه. وقد سافرن بالفعل، وقمن بعمل مهم، خاصة في ظل الحصار الذي سعى بعض الممثلين الرسميين المصريين إلى فرضه عليهن. ففي يوم تقديمهن لشهادة حول إحدى ضحايا ختان الإناث، جرت محاولة اتهامهن بالترويج لأجندة أجنبية، بينما الجميع يعلم مدى انتشار هذه الظاهرة، ولكن سياسة النعامة التي تدفن رأسها في الرمال لم تُفلح. ونجحن في التأثير على أعداد من منظمات المجتمع المدني، خاصة تلك المنتمية إلى بلدان الجنوب والتي ربما تعاني من أوضاع مماثلة، سواء من حيث القمع بصفة عامة، والأوضاع المتدنية للنساء بصفة خاصة. كل ذلك علَّمني كثيرًا على المستوى النضالي ومثَّل إضافة ثمينة لأدائي المهني.

بالتوازي مع قرب نهايات مهمتي في صندوق بكين، عملت كمستشارة لجزء من الوقت في الفترة المسائية خلال شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٥ مع دار نشر نور للكتابات النسوية، والتي أغلقت أبوابها فيما بعد بكل أسف. وكانت المهمة تتعلق بتنظيم أول معرض لكتاب المرأة العربية والذي عُقد في مركز الهناجر بالقاهرة في نهايات شهر نوفمبر. بعد الانتهاء من هذه المهمة، عرضت عليَّ إدارة الدار استكمال مسيرتي معهم كمساعدة للمديرة التنفيذية، مما تطلب مزيدًا من المهام الإدارية والمالية التي لم تكن بقدر الاستمتاع الذي شعرت به في أثناء التحضير للمعرض، وهي الفترة التي سمحت لي بالتعرف على كاتبات وكُتَّاب من بلدان عربية متعددة، وقراءة بعض مؤلفاتهم، والمشاركة في تجهيز عدد المجلة الخاص بالمعرض، وإعداد ملخصات لمداخلات الباحثين، أي ما كان يُغذِّي فعليًّا توجهي النسوي. فبدأت بعد ذلك بتكريس مزيد من وقتي وخبراتي للمرأة الجديدة، ومنها توفير تفاصيل جميع العلاقات التي عقدتها خلال سنوات عملي، والمساهمة في كتابة مقترحات المشروعات والتقارير، وفي تنظيم ورش العمل، وأحيانًا التحدث باسم المرأة الجديدة في فعاليات متنوعة.

بالتوازي مع ذلك، كلَّفني مكتب الأمير طلال بتنظيم اجتماع مجلس أمناء لمنظمة دولية غير ربحية تحمل اسم «منتور» تعمل على وقاية الشباب والأطفال (خاصة أطفال الشوارع) من تعاطي المواد المخدرة. بينما كان الاجتماع سينعقد لمدة يومين فقط بالقاهرة، استغرقت مهمتي سبعة أشهر. فمجلس الأمناء هذا كان يضم شخصيات مهمة إلى جانب صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز، أذكر منهم ملكة السويد، وأمير لوكسمبورج، وبعض أصحاب المصارف الكبرى في سويسرا وبلدان أخرى، إلى جانب أساتذة أكاديميين يُدرِّسون في جامعات غربية مرموقة. فبالإضافة إلى جميع المسؤوليات الإدارية من حجز الفنادق، والاتفاق على قوائم الطعام المناسبة لتجنُّب إصابة الضيوف بأي مشاكل صحية، واختيار وشراء الهدايا للضيوف من أعضاء مجلس الأمناء، وتنظيم الزيارات الترفيهية والتعليمية لهم في مجال اهتمامهم، وتنظيم عشاء عمل ضم ٢٥٠ شخصية مصرية وعربية وأجنبية للتعريف بهذه المؤسسة في مصر، كانت هناك المهمة الدقيقة وربما الأكثر حساسية في تأمين الحماية الأمنية لهؤلاء الضيوف. وهو ما تم بطريقة ممتازة بالتنسيق مع جهاز الحراسات الخاصة التابع لوزارة الداخلية ومع وزارة الخارجية المصرية.

وسط كل هذه الزحمة، وأنا أُجهِّز أموري في أحد مكاتب المجلس العربي للطفولة والتنمية الذي استضاف التحضير للحدث وصولًا إلى عقد جلسات مجلس الأمناء به، أصبت في أثناء العمل بنوبة ألم غير مُحتملة ناحية البطن ولكنني لم أتمكن من تحديد مكانها بدقة. صرت أتلوى على الأرض من شدة الألم إلى أن وجدني مدير المجلس في هذه الحالة، فنقلني فورًا إلى أحد المستشفيات الذي

يتعاملون معه. بعد إجراء السونار والألم ما زال مستمرًّا، أعلن مدير المستشفى أن السونار لم يبين أي شيء وإن ده غالبًا هيستريا ستات. لسوء حظه أنه وجَّه هذه الملحوظة للصديقة عايدة سيف الدولة التي هبَّت كالأسد في وجهه ووبخته على هذا القول. فقرر المستشفى إجراء منظار، تبين بعد ظهور نتيجته وجود قرحة منفجرة في الاثني عشر وغرق الأمعاء في الصديد. انتابت المستشفى حالة من الهلع لأن الوضع كان خطيرًا، فاستدعوا طبيبًا جراحًا متخصصًا في الكبد والجهاز الهضمي الذي أنقذني من موت مُحقق، إنه الدكتور عمرو حلمي، وزير الصحة السابق الذي أعادني من مكان بعيد كدت أختفي فيه يوم ١٦ أغسطس ١٩٩٦، وسأظل طيلة حياتي ممتنة له. استدعت هذه الوعكة الصحية بقائي في المنزل لمدة أسبوع، اضطررت بعد هذه الفترة إلى الذهاب إلى العمل من أجل استكمال مهمتي مدفوعة بإحساسي بالمسؤولية المهنية. أما لقاء مجلس أمناء منظمة منتور فقد لاقى نجاحًا كبيرًا، وكرَّمني أعضاؤه بعد رحيلهم من مصر بإرسال باقة من الزهور إلى منزلي مصحوبة بكلمة شكر رقيقة، مما أزال فيما بعد ذكرى جزء مهم من الآلام التي مررتُ بها. الأمر الوحيد الذي ظل يؤلمني هو تذكُّر وجه ابنتي عند دخولها إلى غرفتي بالمستشفى بعد إجراء الجراحة وعينيها المليئتين بالدموع والخوف.

بمجرد انتهاء هذه المهمة الصعبة والتي شاهدت إنجازها، التقطتني الدكتورة أماني قنديل، الباحثة النابغة وخبيرة دراسات المجتمع المدني في البلدان العربية، لمساعدتها في التحضير للمؤتمر الثاني للمنظمات غير الحكومية العربية والذي تقرر أن يتم بالقاهرة في مايو ١٩٩٧. تطلبت هذه المهمة جهودًا مماثلة لتلك التي بُذلت مع المهمة السابقة، ولكنها على نطاق أوسع بما لا يُقاس، حيث بلغ عدد الحضور في هذا المؤتمر ما يزيد على ألف ومائتي مشارك ومشاركة من أغلبية الدول العربية إلى جانب بعض الضيوف الأجانب. كما تضمن التحضير للمؤتمر مباشرة عملية إعداد الأوراق البحثية التي تم تكليف بعض الباحثين بإعدادها لتقديمها خلال الجلسات المختلفة وبالتالي المتابعة مع هؤلاء، وتأمين عملية التدقيق اللغوي، وضمان طباعة أوراقهم في الوقت المناسب، والمشاركة في إعداد الموازنات، وإدخال البيانات، وتحليل نتائج استجواب تم بعد انتهاء المؤتمر لتقييم الأداء، هذا بالإضافة إلى متابعة جميع التجهيزات اللوجستية المتعلقة بإقامة المشاركين.

واحدة من مستشارات الأمير طلال كنت أعرفها من قبل منذ أيام مركز المرأة العربية في تونس، كانت كثيرة التدخل بالتعديل على جدول أعمال هذا المؤتمر الذي بدأ يتخذ تنظيمه طابعًا عشوائيًّا بسبب كثرة التعديلات التي يتم إدخالها والتي كانت غير مُحددة بدقة بالنسبة إليَّ كمسؤولة على المستوى التنفيذي. وفي يوم، جاءت بأفكار جديدة تمامًا، فسألتها بكل هدوء وأدب إن كانت تنوي ابتكار ما هو مُستحدث، فإذا بها تدخل في ثورة عارمة وتصرخ في وجهي، مما أجبرني على اللجوء إلى دورة المياه والاختباء فيها حتى لا ترى دموع الإهانة في عينَي. لما خرجت، وجدتها غادرت المكان بعد أن أخرجت شحنتها من الغضب لاعتراضي المهذب على أسلوبها في العمل.

فقدَّمتُ على الفور استقالتي التي حاول كل من مستشار الأمير طلال، الأستاذ مدحت سراج الدين، ومديرتي الدكتورة أماني قنديل إثنائي عنها، لكنني كنت مصممة على ذلك، وأعلمتهما أنني سأغادر بمجرد الانتهاء من المؤتمر. قبل مرور فترة، علمنا بوجود الأمير طلال بمقر المجلس العربي للطفولة والتنمية واستدعاني أنا والدكتورة أماني إلى مكتبه. ظننت أنه يريد الوقوف على أخبار آخر التجهيزات للمؤتمر والتي حكتها له مديرتي. ثم سألنا الأمير:

- مفيش حاجة تانية عايزين تقولوها لي؟

فهززت رأسي. أما الدكتورة أماني، فقالت:

- أصل فيه الدكتورة...

فقاطعها الأمير ووجَّه سؤاله لي:

- عايز أعرف منك إيه اللي حصل؟

حكيت باختصار، ثم قلت له إنني لا أقبل أن يعاملني أحد بهذه الطريقة.
انتفض الرجل واقفًا ومَدَّ يده:

- أنا آسف، آسف جدًّا.

ثم قال:

- غير مقبول أن يرتفع صوت أحد في وجه شخص آخر، حتى لو كان صوت زوج تجاه زوجته داخل غرفتهما الخاصة.

طبعًا، أحرجني هذا الموقف إحراجًا شديدًا، ولم أتخيل قَطُّ أن يتعامل أمير بكل هذا القدر من العدل. وبالتالي صرت مضطرة إلى قبول اعتذاره ومواصلة العمل (حتى وإن لم أكن بصفة خاصة من المتعاطفين مع الملكية).

كنت بطبيعة الحال مقيمة بالفندق المُضيف في أثناء انعقاد المؤتمر لمتابعة جميع التفاصيل المتعلقة به عن قرب. وفي فجر أول أيام المؤتمر، سمعت طرقًا قويًّا على باب حجرتي، فلما فتحت الباب وجدت بسمة وشقيق خطيبها يُعلماني أن الخطيب قد تُوفي في حادث سيارة. بسمة كانت منهارة، وأنا في حالة صدمة عنيفة. فكرت قليلًا ثم سألتهما أين ومتى سيُقام العزاء. كنت أعلم كم من المهم أن أكون بجانب ابنتي في هذه اللحظات الصعبة، ولكنني كنت مُدركة أيضًا للمسؤولية المهنية الثقيلة الواقعة على كاهلي، فقررت أن أذهب للعزاء في مساء أول أيام المؤتمر بدلًا من تَرك كل شيء على الفور. أعتقد أن ابنتي لم تسامحني قَطُّ على ذلك.

خلال المؤتمر تعرفت على الفنانة عزة فهمي، ملكة المشغولات الفضية، وكانت قد انتبهت لبعض ما كنت أرتدي منها، وسألتني عن مصدرها، منها على ما أذكر منتجات من صناعتها كنت اشتريتها من محلها السابق بالمهندسين. في أثناء انعقاد المؤتمر، قررت عزة فهمي أن تدعو

مجموعة من منظمي المؤتمر والمشاركين بالأبحاث، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذة شهيدة الباز، وبالطبع مديرتي الدكتورة أماني قنديل. وكانت هذه الدعوة في منزلها بمنطقة الحرَّانية وسط الحقول، وقد أبهرني البيت بطرازه العربي الأنيق، ونافورته التي توسطت البهو، وحسن ضيافة هذه السيدة التي قَدَّمت لنا كل ما لذ وطاب إلى جانب كلمات الترحيب وأسلوبها الكريم في العناية بالضيوف. لا أقابل هذه الفنانة حاليًّا كثيرًا، لكننا بقينا على علاقة جيدة حتى الآن على الرغم من البعد.

بعد انتهاء المؤتمر، عُينت مديرة برامج بالشبكة العربية للمنظمات الأهلية التي كان قد تغيَّر اسمها السابق من لجنة إلى شبكة. وبقيت في هذه الوظيفة حتى مايو ٢٠٠٢. فقد تم تشكيل مجلس للأمناء في أثناء مؤتمر ١٩٩٧، ثم تخلل السنوات التالية التحضير للمؤتمر الثالث ليُعقد هذه المرة في بيروت التي سافرت إليها أكثر من عشر مرات خلال هذه الفترة لمتابعة التجهيزات التحضيرية. والواقع أن هذه المدينة قد اختطفت قلبي، وكنت أحب الجلوس في أوقات الراحة على مقهى بشارع الحمرا ومتابعة المارة من اللبنانيات واللبنانيين، والاستماع إلى لهجتهم الموسيقية وإلى تعبيراتهم الرقيقة مثل: «تكرم عينك». كما اكتشفت مكتبة أنطوان التي أصبحت أشتري منها كتب أمين معلوف التي التهمت معظمها، وكنت أُفضِّل قراءتها باللغة الفرنسية، وهي اللغة الأصلية التي كتبها بها.

في إحدى زياراتنا الأخيرة لبيروت، كان على مجلس الأمناء مقابلة رئيس الوزراء اللبناني حينذاك السيد رفيق الحريري في القصر الرئاسي لإتمام الاتفاقات النهائية معه حول المؤتمر ودعوته لإلقاء كلمة افتتاحية به. ولم يُبلغني أحد بضرورة حضوري معهم، ثم فجأة قيل لي إن عليَّ الذهاب معهم، وقد توترت من هذا الأمر خاصة أنني لم أكن جاهزة لهذا اللقاء سواء في طريقة ملبسي أو في معرفة المطلوب مني أو جدوى وجودي. ذهبنا إلى القصر الرئاسي واستقبلنا رفيق الحريري في قاعة كبيرة بها مقاعد مريحة مرصوصة على هيئة حرف «L»، فجلستُ على طرف أحد ضلوع الحرف ورئيس الوزراء على طرف الضلع المقابل. والحضور لا يتوقف عن توجيه المديح بالتوالي إلى الرجل. من حدة توتري، انتابتني نوبة من السعال لم أتمكن من توقيفها، والكل ينظر إليَّ بعين اللوم، فما كان من رئيس الوزراء إلا أن قام من مقعده وتناول كوبًا من المياه أمامه وقدمه إليَّ. كدت ساعتها أن أبتلع لساني من الخجل. بعد ما غادرنا المكان، هنَّأني الجميع على الشرف الكبير الذي حظيت به، لكن الأهم بالنسبة إليَّ لم يكن أنها لفتة صادرة عن رئيس الوزراء، وإنما لأنها كانت لفتة إنسانية من إنسان إلى إنسان يكاد أن يختنق أمامه.

في اليوم الأخير من أيام المؤتمر دعوت هاني إلى مطعم في منطقة الروشة ببيروت، تناولنا فيه أكلة سمك من أجمل وأسهل الأكلات التي تعودت فيما بعد على إعادة تجهيزها وتقديمها للأصدقاء الأعزاء الذين يأتون لزيارتي، وعلى الرغم من أن وصف الأكلات ليس من صميم هذه الذكريات،

فإنني أقدمها هدية لمن يود أن يُجربها:

نغسل شرائح السمك بالماء سواء من نوع قشر البياض، أو القاروص، وفي أسوأ الحالات البُلطي. وننقعها في خليط من عصير الليمون، والكَمُّون، والثوم المفروم حتى يفقد أي زفارة محتملة. يُفضَّل هنا استعمال شرائح السمك النظيفة والخالية من الشوك والقشر ثم نضعها في قاع طبق للفرن. بالتوازي، نكون فرَمنا كمية كبيرة من الكزبرة الخضراء بعد الغسيل جيدًا للتخلص من أي شوائب ترابية أو أخرى تكون عالقة بها. في وعاء منفصل به قليل من الزيت (ويُفضَّل زيت الزيتون)، نقوم بتحمير شرائح من الثوم حتى يصبح لونها ذهبيًّا وشفافًا (مع الحرص على عدم احتراقها)، ثم نضيف إليها كمية الكزبرة المفرومة والتي سوف تنكمش كثيرًا بعد النضج على النار وإفراز السوائل التي تحتوي عليها، ومعها ملح وكَمُّون وشوية شطة ناشفة. حينما تذبل الكزبرة، نضيف إليها كمية لا بأس بها من عصير الليمون، ثم نفردها على وجه السمك وإلى الفرن حيث لن تستغرق وقتًا طويلًا. ممكن كمان - لما الإمكانيات تسمح بذلك - نكون قد حمَّرنا في الزيت بعض الصنوبر، ونرشه على الوجه. طبعًا، نُقدِّم إلى جانب هذه الصينية أرز السمك الذي لن أربككم بشرح طريقة إعداده. زي ما أنتم شايفين، مفيش أسهل من كده، ولكنها أكلة مبتكرة تخرج عن المألوف، وإن كان أحد الأصدقاء قد أشار إلى قيام أهل المناطق الساحلية في مصر بإعداد السمك بنفس الطريقة، ولكن للأمانة لم أذقه شخصيًّا هكذا إلا في بيروت.

في بدايات الألفية الثانية، جاءت ابنة أخي جويل في زيارة لنا بالقاهرة، وكانت مكتئبة قليلًا لأنها لم تجد حتى الآن رجل حياتها، فطمأنتها أن ذلك سيحدث يومًا ما بكل تأكيد من دون أي ترتيبات سابقة. حاولت أن ألهيها عن همومها، وقمت بتعريفها على أحد الأصدقاء، وأخذتهما يومًا بصحبة ابنتي إلى سقارة لزيارة الهرم المُدرَّج هناك، وفوجئت بأن مسؤول الآثار عن الموقع هو هُليِّل غالي، أحد الأصدقاء القدامى، فسمح لنا بزيارة مقبرة للأبقار على ما أظن. ظلت ابنة أخي وفقًا لذكرياتي خمسة عشر يومًا ثم عادت إلى سويسرا، وسافرت بعدها إلى إيطاليا لتمضية عدة أيام هناك. في قطار العودة، قابلت شابًّا من أصول لبنانية، يعيش مع أسرته في فرنسا، واسمه سامر درويش، وقد تصاحبا فترة ثم قررا الزواج. المفارقة هنا هي أن لقب درويش نكتبه في أسرتنا الصغيرة بالطريقة الفرنسية «Darwiche»، أما مجاهد، فقد قرر بعد سفره إلى سويسرا كتابته بالطريقة الإنجليزية «Darwish»، ربما لأنها اللغة السائدة في عالم الأعمال، أو لدواعي الشياكة. عمومًا، سامر وأسرته يكتبون لقبهم بنفس طريقتنا الفرنسية. فبعد أن كان لقب جويل بالطريقة الإنجليزية، عاد ثانية إلى أصله بالطريقة الفرنسية، حيث إن الزوجات في الغرب يتخذن لقب أزواجهن. ولما سألت مجاهد مؤخرًا للتأكد من المعلومة بأي طريقة تكتب جويل لقبها، كان رده مقتضبًا:

- بطريقة زوجها وجدها!

مع انتهاء المؤتمر الثالث بنجاح، كنت قد استنفدت قدرتي على الاستمرار، وقررت أن أبدأ في عام ٢٠٠٣ الاعتماد على العمل كمترجمة حرة. العمل الحر له فوائده، ولكن له عيوبه أيضًا. فهو من ناحية يسمح بأن يكون الإنسان مدير نفسه، أي لا يتحكم فيه أحد، وهذه الميزة قدَّرتها على مدى سنوات، وهو من ناحية أخرى غير مأمون ويتوقف على طلب الآخرين لخدماتك، وعلى العرض والطلب في السوق، وعلى أسلوبك في العمل الذي قد لا يُعجب كثيرين، وبالتالي فهو مغامرة يجب أن يحسب من يقرر الدخول فيها مخاطرها ومحاسنها. عمومًا، استمررت في هذه المغامرة التي لم أخشَها يومًا من الأيام.

صدر عام ٢٠٠٣ قانون جديد لتنظيم عمل المنظمات غير الحكومية في مصر، وبعد مداولات مطولة فيما بين عضوات مركز دراسات المرأة الجديدة، والنظر في الجوانب الإيجابية والسلبية التي قد تترتب على هذا القرار، انتهينا إلى التقدم بملف ترشيحنا للحصول على صفة المؤسسة غير الحكومية، المسماة في القانون بالمؤسسة الأهلية. كان هذا القانون ينص على أنه إن لم يرد اعتراض على التسجيل في ظرف ستين يومًا من تقديم الطلب، يُعتبر التسجيل مقبولًا. كانت مجموعة الزميلات قد رشحتني لمنصب أول رئيسة لمجلس الأمناء، وهو ما ورد في الطلب مع ترشيحات بقية عضوات المجلس اللاتي بلغن في المرة الأولى لتشكيل مجلس الأمناء على ما أذكر ثلاث عضوات فقط بمن فيهن الرئيسة، ثم وصل عددهن فيما بعد إلى خمس عضوات. ذهبت لحضور مؤتمر في بيروت، مطمئنة تمامًا إلى أنه لم يرِد أي اعتراض بعد انقضاء تسعة وخمسين يومًا. ولكن بعد ثلاثة أيام وصلني فاكس من زميلاتي يفيد بوصول خطاب من وزارة الشؤون الاجتماعية (التي أصبح اسمها فيما بعد وزارة التضامن الاجتماعي) يتضمن الاعتذار عن التسجيل لاعتراض الجهات الأمنية. أصدرت حينذاك زميلاتي الموجودات في مصر بيانًا حول المسألة وقمن بإرساله إليَّ، فبادرتُ بجمع توقيعات الحاضرين والحاضرات في بيروت على البيان. أصبح الخطاب المُرسَل لنا من وزارة الشؤون الاجتماعية أداة مهمة في يدنا وفي يد محامينا لرفع قضية مستعجلة تعترض على قرار الامتناع عن التسجيل. قمنا بحشد جميع القوى المحلية والخارجية الممكنة للتضامن معنا، وهو ما تم بالفعل. ففي اليوم الأول للنظر في دعوانا أمام المحكمة الإدارية العليا، فوجئت هيئة المحكمة بأنه عندما تمت المناداة باسم مؤسسة المرأة الجديدة، وجدت هذه الهيئة جموع الحاضرين في القاعة المليئة تتقدم نحوها. أعتقد أن هذا المنظر كان له تأثير إيجابي على القرار الذي صدر فيما بعد. فمظاهر التضامن لها قوة لا يمكن إغفالها، وإن كنت افتقدتها إلى حد كبير في صفوف منظمتنا، فكثيرًا ما طالبتُ أنا وعدد قليل من زميلاتي الأخريات مثل زميلتي وصديقتي الدكتورة آمال عبد الهادي، بالتضامن مع حالات أخرى من الانتهاكات الواقعة على النساء على مستوى العالم على غرار ما حدث معنا وأشكال أخرى من التعنُّت والقهر إزاءهن، ولكننا ما زلنا نؤذن في مالطة. عمومًا، صدر حكم بأحقيتنا في التسجيل خلال شهر ديسمبر

٢٠٠٣، خاصة أن القانون لم ينص حينذاك على حق الجهات الأمنية في التدخل، بينما قنَّن القانون الجديد الصادر مؤخرًا هذا الحق الذي أزعم أنه تبنته إحدى مسودات القوانين التي تم طرحها أيام حكم الإخوان المسلمين، ونُسخ في القانون الحالي الذي ينظم العمل الأهلي تحت رقم ١٤٩ لسنة ٢٠١٩ الذي جاء تاليًا للقانون رقم ٧٠ لعام ٢٠١٧. ما بين ديسمبر ٢٠٠٣ وعلى ما أذكر أبريل أو مايو ٢٠٠٤ لم نتمكن من تنفيذ الحكم الصادر لصالحنا، إلى أن علمنا بطريقة غير رسمية أن مستشار رئيس الجمهورية للسياسات، الدكتور أسامة الباز، قد اتصل بالوزارة ليسألهم من هؤلاء المسمون بالمرأة الجديدة وأنه يصله يوميًّا عشرات الخطابات المُنددة بالامتناع عن التسجيل والمُطالِبة بتنفيذ الحكم الصادر من المحكمة. فحصلنا بعد هذه المكالمة على قرار التسجيل وهكذا أصبحت المجموعة مُشهرة بموجب شكل قانوني جديد. لم نتوقف لحظة ما عن العمل خلال كل هذه الشهور لإيماننا العميق بأحقية النساء في الحصول على المساواة، والمعاملة الكريمة، واعتبار حقوقهن جزءًا أصيلًا لا يمكن فصله عن حقوق الإنسان.

في هذه الفترة، أصبح ضمن أولوياتي أيضًا الاهتمام بابنتي وبوالدتي ووالدي، ثم بذل جميع الجهود الممكنة لتأمين الاستدامة لمؤسسة المرأة الجديدة، والمساهمة في تكوين جيل جديد من النسويات المصريات. كان هذا هو التطلع الكبير الذي تقاسمته المجموعة التي أصبحت مُشهرة. وكان حرصنا المستمر هو الالتزام بنصوص القانون، حتى وإن لم نكن نؤمن بجميعها كالتدخلات المُبالغ فيها في الموافقة على المِنح، والتأخير الشديد في مَنح الموافقات مما عرَّض المؤسسة أكثر من مرة إلى انكماش القدرة على إنجاز ما التزمنا به تجاه أنفسنا أولًا، ثم تجاه الفئات التي استهدفناها، أي النساء بصفة عامة وعلى رأسها النساء المُهمشات. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزميلات العاملات في مؤسسة المرأة الجديدة قد ارتضين طواعية أن تنخفض مرتباتهن في أكثر من مرحلة إلى النصف وأحيانًا إلى نسبة أقل، وهو موقف - إن كان يدُل على شيء - يشير إلى عمق ارتباط زميلاتنا الشابات بالمنظمة، وحرصهن على مواصلة المسيرة اللاتي أصبحن مؤمنات بأهميتها. ولما كان هناك هامش ضئيل من حرية التحرك والتعبير، فقد اهتمت بعض أجهزة الإعلام بتجربتنا، وبدأت تدعونا في بعض البرامج التلفزيونية أو الأحاديث الصحفية. وهو ما أضاف زخمًا محدودًا وساهم في إبراز صورتنا إلى حدٍّ ما. كنت - وما زلت - أكره الإدلاء بآراء شفهية أو مرئية أمام الإعلام، ولكن من حسن الحظ وجود زميلات أخريات لديهن القدرة على القيام بهذه المهمة باقتدار. شعرت أكثر من مرة بأن هناك التواء لما يُقال، فعلى سبيل المثال، دُعيت مرة إلى برنامج تلفزيوني قيل لي إنه لعرض الدراسة التي قمنا بها فيما يتعلق بإدراك النساء للعنف الواقع عليهن، وفوجئت أن هناك ضيوفًا آخرين يسخرون من أفكارنا، بل إن المذيعة نفسها بدأت تتحدث عن حادثة امرأة قتلت زوجها وقطَّعت جسده إلى أجزاء ووضعتها في أكياس قمامة، في إشارة مستترة إلى أن هذا ما يمكن أن تدعو إليه النسويات، إذ كانت هذه الصفة مرادفة للسُّبَّة في

هذه الفترة. انزعجت كثيرًا من هذا الأسلوب في اختصار نضالنا إلى تلك الحدود الضيقة غير الموضوعية، وغير الحقيقية. لكن زميلاتي هدأن من روعي وقمن بتشجيعي على خوض التجربة مرة أخرى. مع اكتساب مزيد من الخبرات، أصبحت أصمد بطريقة أفضل أمام تلك النوعية من الاتهامات إلى أن فجَّرت قنبلة في برنامج آخر، مُعلنة أنني شخصيًّا تعرضت للعنف. وجاءت تعليقات المشاهدات والمشاهدين إيجابية بصفة عامة. ولكنني أشعر بتوجس حتى الآن من التحدث إلى الإعلام. ربما التجربة الأكثر طمأنينة بالنسبة إليَّ كانت عرض آرائي كتابة من خلال بعض المقالات التي كان لي الحظ في نشرها في عدد من الجرائد، وبصفة خاصة تلك التي نشرتها ما بين يوليو ٢٠٠٧ إلى مارس ٢٠٠٩ في جريدة البديل وهي السنة التي أغلقت فيها هذه الجريدة أبوابها، فلم يعُد هناك رأي بديل بكل أسف، وإن وُجدت بعض المحاولات الحريصة هنا أو هناك، فإنها غير معنية كثيرًا بقضايا النساء.

في نهايات عام ١٩٩٩، تعرَّض والدي لحادث أدَّى إلى تغيير كبير في مجرى وأسلوب حياته. فقد كان معتادًا في إطار حرصه الدائم على ممارسة الرياضة أن يسير يوميًّا في الصباح الباكر من بيتنا في باب اللوق إلى ميدان التحرير، فكوبري قصر النيل الذي كان يرى في الاتجاه المقابل الأديب نجيب محفوظ متوجهًا إلى وسط المدينة، ثم يدور من جانب مبنى الأوبرا، ويعود بجوار مبنى نقابة ومستشفى المعلمين إلى منزله. في أحد هذه الأيام، كنت أعمل من منزلي، فتلقيت اتصالًا هاتفيًّا ثم سمعت صوت أبي يُطالبني بإحضار مبلغ من النقود لأنه موجود بمستشفى المعلمين. ذهبت هناك على الفور وأنا غير مستوعبة تمامًا لما حدث تحديدًا، فقد تكلم عن حادثة، ولكنه لم يدخل في التفاصيل. لما وصلت، وجدته راقدًا في غرفة وشرح لي أن ونش الشرطة قد اصطدم به من الخلف، فوجد نفسه طائرًا في الهواء ثم وقع على الأرض. بعد قليل جاء طبيب أخصائي عظام وكان تشخيصه أن هناك كسرًا في مفصل الفخذ، وأنه يُفضَّل نقل أبي إلى مستشفى آخر لأن هذا المستشفى غير مُجهز بالإمكانيات اللازمة. وبالفعل، كنت أرى القطط تتجول في الغرف بكل حرية ضمن أمور أخرى غير مطمئنة تمامًا، لا أدري إن كانت الأحوال قد تغيرت الآن في هذا المستشفى فلم أدخله ثانية منذ ذلك اليوم. عمومًا، نقلته إلى مستشفى آخر، وتم إجراء عملية وضع شرائح له. في هذه الأثناء كانت والدتي ما زالت في انتظاره بالمنزل وهي لا تعلم ما حدث. طلبتُ من صديقي هاني أن يذهب إليها ويأتي بها إلى المستشفى الجديد. أعتقد أن هذه الحادثة التي أصابت والدي من العوامل المهمة التي عجَّلت بوفاة والدتي وإن لم تكن السبب الوحيد. بعد إفاقة والدي من الجراحة، دخل الطبيب، وشرح له أمامي نظامًا جديدًا في حياته، فلا يجوز ثني الرجل إلا بزوايا محددة، أو الانحناء إلى أسفل، أو ممارسة السير بأسلوب رياضي، وتوجيهات أخرى كثيرة. فبدأت مرحلة جديدة في حياة هذا الرجل الذي كان لا يزال ينبض شبابًا، فأصبح عاجزًا من نواحٍ عدة، وانحنى عموده الفقري، وتقلص طول جسده، وأخذ ينعى حظه كثيرًا. حاولت

أن أساعد والدتي ووالدي بقدر المستطاع. واستمررت في زياراتي اليومية لهما، وتداول الحديث معهما، وحكي ما يحدث حولهما، واصطحابهما أحيانًا إلى أماكن أخرى للترفيه عنهما. الحقيقة أن من ساعدتني كثيرًا في هذه الفترة هي الصديقة العزيزة وزميلتي في مؤسسة المرأة الجديدة، الدكتورة نادية عبد الوهاب أخصائية طب المسنين.

بعد شهر تقريبًا، اكتشفنا أن والدتي مصابة بالسرطان في القولون، وهي المرة الأولى التي رأيتُ فيها أبي يبكي. كانت والدتي قد دخلت في مرحلة خرف الشيخوخة. ربما كان ذلك لصالحها، لأنها لم تُدرك خطورة حالتها. أما أنا فكانت لديَّ حالة من الإنكار ولا أريد تصديق الواقع. كنت قد وفرت لهما سيدتين تُراعيان بالتناوب أمور المنزل واحتياجاتهما الشخصية. في يوم، وأنا عائدة من العمل، قررتُ أن أذهب إلى معمل لإجراء بعض التحاليل الطبية التي أحتاج إليها. في الطريق، رنَّ الهاتف المحمول، وسمعت إحدى السيدتين تُطالبني بالتوجه سريعًا إلى المنزل لأن حالة أمي سيئة. جريت حتى البيت وأنا لا أريد أن أُصدِّق. فقالت لي هذه السيدة إن والدتي قد توفيت وإنها لم تُخبر أبي بعد. رفضت تصديق ما تقول وأنا كنت بالأمس أُهنئها بعيد ميلادها التاسع والثمانين. صحيح أنها لم تكن مدركة لما حولها، لكن من الأمور التي أحزنتني بعمق، أنها في الأول من أبريل عام ٢٠٠٠، أي قبل وفاتها بيوم، ابتسمت وعلى وجهها تعبير وكأنها تبتسم مجاملة لشخص غريب من دون أن تنطق بأي كلمة تشير إلى أنها تعرفت عليَّ. اكتأبت كثيرًا من وفاتها، وحاولت ابنتي أن تُخرجني من هذه الحالة وأن تُقنعني بترك ملابس الحداد، ولكنني لم أقصد ارتداءها، فقد كانت يدي تختار هذه الملابس من دون تفكير.

أخيرًا، اقترحت بسمة أن نذهب معًا في رحلة لبراغ. وبالفعل سافرنا في صيف ٢٠٠٠ فلما خرجنا فجرًا من المطار، حكمت عليَّ أن نذهب مباشرة إلى الفندق لنترك حقائبنا، ثم نتوجه إلى ميدان الساعة. في الميدان أخذت بسمة تبكي، ربما من تدفق الذكريات، أو لأنها أفرغت طاقة البكاء التي ظلت مكتومة أمامي. بعد زيارة الساعة، والاستماع إلى دقاتها ومشاهدة الشرَّاعة وهي تنفتح، عدنا إلى الفندق ثم نزلنا ثانية لنتنزه في المدينة التي أحببناها كثيرًا. ذهبنا إلى كوبري الملك شارل الذي يعد أول كوبري جرى بناؤه في أوروبا وتباركنا بتميمة ذهبية موضوعة على أحد جدران الكوبري، وإلى الكاتدرائية الكبيرة ذات الطراز القوطي، وفي يوم آخر، توجهنا إلى الحي الذي سكنَّا فيه، ووجدنا حضانة بسمة، لكن كل الأمور كانت قد تغيرت، فقد أدخلت بعض التحسينات على الحضانة لإضفاء الطابع الحديث عليها، وإن لم تكن جميلة كالأول من وجهة نظري، أما المبنى الذي عشنا فيه، فبدت حوائطه الخارجية أكثر اتساخًا من ذي قبل، وبطبيعة الحال لم نقابل شخصًا نعرفه. فلم يعد هناك داعٍ للبقاء طويلًا.

ساعة صفاء مع بسمة بعد العودة من براغ

كما سبق أن أشرت، قررت بدءًا من مايو ٢٠٠٢ أن أتحول إلى مترجمة حرة بداية من عام ٢٠٠٣. وهو ما تطلب القبول بجميع الأعمال المعروضة عليَّ حتى إن لم تكن ضمن نطاق اهتماماتي. كما أن هناك فترات من الركود التي لا تسمح فيها كرامة النفس بالبحث عن فرص عمل، أو التذلل من أجلها. وهكذا يصبح الأمر إما العمل من دون هوادة طوال الوقت، أو ترقُّب ما سيأتي به الغد وتغذية الذات بالأمل لتفادي الغرق. عمومًا، مرت هذه السنوات بشبه أمان وما زلت أقوم ببعض أعمال الترجمة البسيطة نظرًا لانتشار وسائل الترجمة الإلكترونية التي تُغني كثيرين عن اللجوء إلى مترجمين بأجر، ومع ذلك، لا أميل شخصيًّا إلى الاعتماد حصريًّا على الترجمة الإلكترونية التي قد تُفقد روح النص الأصلي؛ فالترجمة في رأيي لا تقل أهمية عن التأليف، وهي عبارة عن إعادة كتابة نص ليتلاءم مع المفاهيم والمعلومات التي يمتلكها الجمهور المُتلقي، وبالتالي، تتطلب الترجمة من لغة إلى أخرى معرفة عميقة بلغة وثقافة النص الأصلي بالتوازي مع إدراك كبير لطريقة التعبير المطلوبة لوصول المعنى الصادق والأمين للقراء. هذا لا يمنع - بطبيعة الحال - السعي إلى البحث على الإنترنت عن بيانات قد تكون واردة في النص الأصلي ولا يعلمها القراء المحليون لتوثيقها أو شرحها للمُتلقين، وكذلك عند مطالبة الشبكة الإلكترونية بترجمة كلمات أو مقاطع جُمَل، من المهم التأكُد من مدى أدائها للمعنى الأصلي؛ ففي كثير من اللغات، تشير الكلمة الواحدة إلى أكثر من معنى، ويجب النظر إلى البدائل المطروحة في إطارها الدقيق والاختيار فيما بينها. خلاصة القول إن العنصر البشري لا يقل أهمية عن الوسائل المُمَيكنة إن لم يكن يتفوق عليها.

سنوات الهموم الشخصية
واختمار الغضب العام

٢٠٠٥ـ٢٠١٠

شاهدت خلال هذه السنوات تصاعدًا ملحوظًا للقلق العام على مستوى البلد من الانتهاكات الموجهة ضد المواطنين، خاصة أولئك الذين يتجرأون على التعبير وانتقاد ما يحدث. فأذكر وقفة الصحفيات على سلالم نقابة الصحفيين ضد محاولات توريث الحكم في ٢٥ مايو عام ٢٠٠٥، ومحاصرتهن بنساء ورجال من البلطجية، والهجوم على المتظاهرات وانتهاك حرمتهن مما أدَّى لاحقًا إلى وفاة إحداهن من القهر. كما تكررت حالة الطوارئ التي كانت قد وصلت إلى أكثر من ثلاثين سنة شبه متصلة.

خلال كل السنوات التالية لوفاة والدتي استمررت في الزيارة اليومية لوالدي، مع تغيير بعض من نظم الحياة في باب اللوق، فبدلًا من سيدتين تعتنيان بنظافة ومتطلبات المنزل، استبدلت بهما سيدة واحدة وشابين يتناوبان العناية بأبي على مدار اليوم. فكان والدي بحاجة إلى اهتمام خاص بعد الحادثة التي تعرَّض لها والتي أصبحت تُكبل حركته إلى درجة كبيرة. وكان يستغرق عمل هذين الشابين مناوبتين يوميًّا كل واحدة منهما اثنتا عشرة ساعة. أذكر أنني حينما كنت أذهب بعد عملي كل يوم لتسلية أبي، ومعرفة شكاواه، وحل المشاكل المنزلية إن حدثت، أن هذه الفترة اتسمت بأسلوبين مميزين في علاقتي به: الأسلوب الأول تضمَّن في معظم الأيام تَركي وحدي في الصالة - تقريبًا بعد وصولي بدقائق - ودخوله إلى غرفته للقيلولة، وعندما يبدأ نفاد صبري وأستعد للرحيل، وكأنما اشتم هذا الضجر، يخرج إليَّ منتعشًا ومستعدًّا لقضاء الوقت معي. وقد تكرر هذا مرات عديدة، وصاحب هذا الأسلوب إصابته بوعكات صحية - قد تكون مُتخيَّلة - لما كنت أسافر أيامًا معدودة لقضاء بعض الوقت مع ابنتي التي كانت تصور مسلسلًا في الغردقة. وأعتقد أنه كان يريد الاطمئنان إلى مجرد وجودي بجانبه حتى لو كان يقضي بعضًا من هذا الوقت في النوم ظهرًا، أو اكتشافي - بعد اضطراري إلى تَرك كل شيء للرجوع إليه مسرعة وقَطع رحلتي - أن ما حل به ليست به خطورة، خاصة أنني كنت حريصة على تأمين عدد من الناس والأصدقاء، وبصفة خاصة الطبيب والصديق العزيز د. محمد وشاحي الذي لازمه سنوات طويلة، واعتنى به أفضل عناية؛ طبيًّا ومعنويًّا، وهم جميعًا ممن بقوا حوله قادرين على مساعدته إن لزم الأمر، ومنهم أيضًا صديقي هاني الذي لم يبخل بوقته وجهوده تجاهه حتى وفاته. أعترف بصدق بأن هذه التصرفات كانت تُزعجني أحيانًا، لكنني كنت أقلق عليه في معظم الأحيان وأتفهم إحساسه الطفولي بالاحتياج إلى كتف يستند إليها.

الأمر الآخر الذي أزعجني أكثر هو التوجس المتنامي لديه بأن المساعدين له في حياته اليومية يسعون إلى سرقته. وبعد الاضطرار إلى إنهاء خدمة أكثر من أحد بحجج واهية لم تُقنع هؤلاء

وتشمموا الشك في أمانتهم، وهو ما آلمني كثيرًا، وقفت معه وقفة في هذا الموضوع، وقلت له إنني لا أستطيع أن أطعن في كرامة الناس أكثر من ذلك، فانفعل انفعالًا شديدًا ضدي، واتهمني بمحاباة هؤلاء على حساب سلامته، ودارت مناقشة حادة بيننا، ففضَّلت ترك البيت والذهاب في طريق طويل بسيارتي حتى تهدأ أعصابي. لكنه اتصل بي بعد قليل وطلب مني العودة بسرعة كالطفل الصغير. وهو ما فعلته ولم أندم يومًا على تلبية هذا الطلب. أتمنى فقط ألا تصل نفسي يومًا من الأيام إلى هذه الحالة الذهنية من الشك فيمن حولي.

ومع ذلك، بقي البيت ملتقى لأصدقاء كثيرين له من مختلف الأجيال. فقد كان دائم التطلع لمعرفة المزيد واعتاد أن يقول لي ولآخرين إنه سوف يموت وهو يتعلم. كان له صديق اسمه جاك حاسون من اليهود الذين اضطر أهلهم إلى مغادرة مصر مبكرًا، وكان مقيمًا في فرنسا، واهتم بجمع تراث اليهود في مصر، وحرَّر كتابًا أعدَّ مادته عدد من المتخصصين اليهود، ونُشر باللغة الفرنسية بعنوان «تاريخ يهود النيل». يتناول الكتاب حياة وظروف اليهود في مصر منذ أيام الفراعنة حتى عام ١٩٦٧. في أثناء إحدى زياراته لمصر أهدى جاك حاسون نسخة من الكتاب لأبي الذي لم يهتم كثيرًا بالموضوع في حينه، ولكن بعد أن لاحظ والدي الفضول المتزايد في مصر بقصة اليهود بسبب دعوته لبرامج تلفزيونية وأحاديث صحفية متعددة للإدلاء برأيه حول هذه المسألة، أخذ ينظر بعين مختلفة إلى الكتاب إلى أن قرر أن يُترجمه، لعله يُفيد بعض المهتمين. استمر في هذه الترجمة بضعة أشهر ما بين ٢٠٠٥ وجزء من ٢٠٠٦، ولما انتهى منها كتب مقدمة المُترجِم التي يُعبِّر فيها عن وجهة نظره بطريقة موضوعية. هذه المقدمة مؤرَّخة في مايو ٢٠٠٦ وتُوفي أبي في ٧ يونيو من العام نفسه، أي يمكن اعتبار هذه المقدمة بمثابة الوصية الأخيرة في حياته، والتي يوضح فيها خطأ الخلط بين اليهودية والصهيونية، ويقدم نماذج ليهود على مستوى العالم كانت لهم وقفات شديدة اللهجة ضد الجرائم التي ارتُكبت في حق الشعب الفلسطيني، كما يؤكد على حق الأقليات في سماع صوتها وإعطائها ما تستحقه من حقوق. بالطبع، موت هذا الرجل الذي كان يتمنى أن يعيش مائة سنة إضافية فوق الخمس والتسعين والنصف كان صدمة كبيرة لي استقبلتها بالإنكار نفسه الذي انتابني عند وفاة أمي. ولم نتأقلم بعد أنا وعديد من الأصدقاء مع فكرة الموت بعد الوفاة المفاجئة لأحمد عبد الله رزة، الباحث والناشط الاجتماعي والزعيم الطلابي السابق، قبلها بيومين.

في صباح السابع من يونيو، اتصل بي مرافق والدي ليقول إنه مُتعَب ويشكو من ألم في صدره، فطلبت منه الاتصال بطبيبه المُعالِج لكي يأتي وأخبرته أنني آتية في الطريق إليه. لما وصلت، كان الطبيب قد حضر وشخَّص وجود مياه على الرئة، فطلب سيارة إسعاف لنقله إلى المستشفى، ولكن كل شيء كان قد انتهى قبل وصول الإسعاف. والواقع أنني أعتبر شهر يونيو شهرًا حزينًا بكل المقاييس، فقبل سنوات كان قد تُوفي المخرج المبدع والصديق رضوان الكاشف، تلاه في ٢٠٠٦ أحمد عبد الله رزة، ثم يوسف درويش، ثم أحمد نبيل الهلالي محامي المظلومين والغني عن

التعريف. وفي عام ٢٠٢٣ مات أيضًا المناضل السياسي جورج إسحق، أحد مؤسسي حركة «كفاية»، وكانت المناضلة الفلاحية شاهندة مقلد قد توفيت هي الأخرى سنة ٢٠١٦ في نفس هذا الشهر، ولا أدري كم من آخرين تركونا خلال هذا الشهر المنحوس.

في الأيام الأخيرة من عمره (والتي لم يدرك أنها كذلك)، علم والدي بنبأ إصابة نبيل الهلالي بوعكة خطيرة ودخوله إلى العناية المُركزة بأحد المستشفيات، فقررت أنا وبسمة أن نزوره لننقل إليه كلمات أبي بأنه لا بد أن يقاوم ويبقى من أجل الجميع. ذهبنا لزيارته وابتسم ابتسامة خفيفة عندما نقلنا له هذه الرسالة. وكان هناك اتفاق بين الجميع بإخفاء وفاة أبي عليه كي لا تسوء حالته. ولكن أحدهم أبلغه بها، ربما بالخطأ أو لعدم معرفة هذا الاتفاق، فذهبت مرة ثانية إليه لتعزيته ومواساته. بعد أيام قليلة تركنا هو الآخر.

يوسف درويش وأحمد نبيل الهلالي بالإسكندرية في نهايات الثمانينيات

كانت إحدى معارف أبي قد توسطت لدى دار الشروق لنشر الكتاب المُترجَم وحصلت على موافقة شفهية مبدئية من ناحيتهم على ذلك. ولكن حينما وقعت مسودة الترجمة بين أيديهم، وجدوا كثيرًا من الأخطاء المطبعية، ومن الجمل غير المكتملة ربما بسبب عدم استيعاب الشاب الذي كان كلفه والدي بطباعة النسخة على الكمبيوتر لخط أبي الذي كان قد أصبح صعب القراءة، وربما أيضًا لأن أبي لم يكن مُركزًا تمامًا فيما يكتبه بحكم السِّن. المهم أن صديقة والدي طلبت مني معالجة هذا الأمر. فقضيتُ ما يقرب من ثلاثة أشهر في مراجعة شاملة للمسودة، ومقارنتها كليًّا بالنص الفرنسي الذي كنت قد حصلت على نسخة منه حينذاك. لما انتهيت من هذه المهمة، سلَّمت العمل إلى دار النشر ودققوه لغويًّا، ثم طلبوا مني الحصول على موافقة للنشر من ورثة جاك حاسون، وكان من حسن حظي أن ساعدني أحد الأصدقاء الفرنسيين في العثور على وسيلة اتصال بأرملته التي راسلتها فردت عليَّ كتابيًّا بالموافقة التي سلمتُها إلى دار النشر مع نسخة من الكتاب بالفرنسية. وكنا قد اتفقنا على أن تحمل صفحة الغلاف الصورة نفسها الموجودة على النسخة الفرنسية، وهذا ما تم. نُشرت هذه الترجمة على طبعتين، كل واحدة من ألفي نسخة، وقد اندهشت كثيرًا حينما ذهبت لأشتري نسخة بدلًا من النسخة الوحيدة الموجودة لديَّ والتي استعارها أحد مني من دون أن يردها لي أن الطبعتين قد نفدتا تمامًا. فهل يعني هذا أن هناك كثيرين يسعون إلى التخلص من التصورات النمطية التي طالما قُدِّمت للجمهور المصري والعربي حول اليهودي البخيل ذي الأنف المعقوف والصهيوني بطبيعة الحال، وأصبحوا يبحثون عن حقائق أخرى؟ أعتبر شخصيًّا أن أهم ما يُظهره الكتاب أنه لا يمكن أن نتحدث عن اليهودي في المُطلَق، وإنما عن اليهود بكل اختلافاتهم الاجتماعية، والتعليمية، والطبقية، والمهنية، والجغرافية، وانتماءاتهم العقائدية، وتوجهاتهم الفكرية. فعلى سبيل المثال، اليهود الذين كانوا يعيشون في حارة اليهود اختلفوا كثيرًا عن أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، وربما اقتربوا أكثر في عقلياتهم، وسلوكهم، وتقاليدهم من جيرانهم الذين يتبعون أديانًا أخرى. كما لاحظت من مراجعتي وقراءتي للكتاب أن الباعة المتجولين من اليهود الذين كانوا يجوبون القرى لبيع منتجاتهم، عندما لا يجدون معبدًا يهوديًّا للصلاة، يدخلون إلى مسجد القرية لتأدية طقوسهم الدينية. وهذا المنطق يشير إلى أهمية الابتعاد عن التنميط واعتبار البشر كتلة متجانسة واحدة. وهو ما ينطبق على الجميع، وأخص هنا الحديث الذي يختصر جموع النساء، بتنويعاتهن، وتبايناتهن، وتطلعاتهن، إلخ في مصطلح المرأة.

بناء على خطاب موجَّه إليَّ أنا وبسمة وجدناه بعد وفاته، أوصانا والدي بإهداء جزء من كتبه المتعلقة بالحركة العمالية إلى دار الخدمات النقابية والعمالية والتي كان قد وضعها على أرفف خاصة منفصلة عن بقية كتبه، وإهداء الباقي إلى مكتبة الإسكندرية. فقمنا بالمهمة الأولى، وبعدها اتصلت من خلال الباحث ووزير الثقافة السابق، الصديق العزيز الدكتور عماد أبو غازي، بمكتبة الإسكندرية لإنجاز الجزء الثاني من الوصية. وقد تطلَّب ذلك استخراج أختام تحمل عبارة «هذا

الكتاب إهداء من مكتبة يوسف درويش» ووَضع الختم على جميع الكتب التي بلغت ما يزيد على أربعة آلاف كتاب. استغرقت هذه المهمة بعض الوقت، ولما أنهيناها، طلبنا من المكتبة إرسال مَن يأتي من عندهم لفرز الكتب التي يعتبرونها مفيدة ثم نقلها إلى الإسكندرية. وهو ما تم بالفعل واختار الخبيران المُكلَّفان بهذه المهمة ألفين وخمسمائة كتاب على ما علمنا منهم، ثم وصلَنا خطاب شكر من المكتبة على هذا الإهداء.

بعد الانتهاء من مسؤولية متابعة إصدار الكتاب، وتوزيع محتويات مكتبة والدي، اقترحت عليَّ بسمة، على غرار ما حدث وقت وفاة والدتي، أن نقوم برحلة قصيرة إلى فرنسا في بدايات ٢٠٠٧. وهي الرحلة التي سعيت خلالها إلى العثور على جاكلين ثييك ولكنني لم أفلح. أمضينا بعض الوقت في باريس، وتجولنا في شوارعها، كما انتهزت ابنتي هذه الفرصة لشراء بعض الملابس اللازمة استعدادًا لفيلمها القادم، وزرنا بعض أصدقاء والدي الموجودين هناك، ثم عدنا إلى القاهرة لإكمال مشوار الحياة.

كان أخي قد أرسل إليَّ قُرب نهايات شهر مايو ٢٠٠٦ رسالة إلكترونية يقول فيها إنني قد وفرت اهتمامًا كبيرًا بوالدنا وأنفقت كثيرًا على راحته، وإنه يريد أن يساهم معي في تحمل تلك النفقات. كان ردي حادًّا إلى حدٍّ ما على ما يبدو، وقلت له إن الفلوس ليست لها قيمة، لكن كل ما أطلبه منه هو الاتصال - ولو مرة شهريًّا - بأبينا. الظاهر أن ردي قد أزعجه ولم يعُد يتواصل معي لفترة بعدها. ولكن لِحظِّه أن سامي ابن مجاهد وحفيد أبي أنجب طفلًا جديدًا، اتصل مجاهد بأبي لينبئه بالخبر، وربما بعد أن فكر قليلًا في نصيحتي له، وجاء هذا الاتصال قبل أيام معدودة من وفاة أبي. سعيدة لأن أخي فعل ذلك حتى لا يشعر بأي تأنيب للضمير فيما بعد. أما بسمة، فكانت دائمة الانشغال بعملها، فظلت فترة تؤخر لهذا السبب زيارتها لجدو العزيز الذي يسأل كثيرًا عنها ويتمنى رؤيتها. كان عليها السفر إلى مهرجان للأفلام في المغرب، فجاءت قبل سفرها لتزوره وفرح جدًّا بها. يوم وفاته، اتصلتُ على الفور ببسمة في المغرب وبمجاهد الذي لم يكن موجودًا بمنزله في سويسرا لكنني أخبرت زوجته بالأمر وطلبت منها إخبار مجاهد. أما بسمة، فعلى الرغم من أنها لم تعتد الاستيقاظ مبكرًا، فقد ردت على اتصالي على الفور وكأنها شعرت عن بعد بما حدث، وطالبت جميع صديقاتها المُقرَّبات بالوقوف بجانبي، خاصة في أثناء الجنازة والخارجة والدفن، وهي من أصعب خبرات الفراق، ثم وصلت سريعًا إلى القاهرة لتشاركني وكل أحبائه العزاء. كان بعض أصدقاء ومحبي والدي قد تولوا تنظيم عملية العزاء، وعلى الرغم من أنني كنت قد ألححت أن يكون مختلطًا بين النساء والرجال، فلم يمتثلوا إلى طلبي. فقررنا بسمة وأنا أن نقف في الخارج على باب القاعة لتلقي التعزية بأنفسنا. والغريب أن حاول بعض الرجال أن يُزاحمونا ويبعدونا عن مكاننا، لكننا صمدنا. إنها النظرة الذكورية التقليدية المعتادة للنساء التي تعتبر أن أدوارهن ليست بجانب الرجال وإنما خلفهم.

* * *

في عام ٢٠٠٣، علمنا أن القوات الأمريكية على وشك اجتياح العراق، وكان هناك نداء - وارد من طلاب الجامعة الأمريكية على ما أظن - لقيام مظاهرة عارمة ضد هذا الحدث الخطير في تاريخ المنطقة، وذلك في ميدان التحرير، فقررت الانضمام إليها على الرغم من اليقين بوجود آلاف من قوات الأمن المركزي لمنع الناس من التظاهر. نزلت ومعي بعض الأصدقاء إلى الميدان القريب من بيتنا، وبعد قليل امتلأ الميدان بشباب إلى أن انفرط الجمع الهائل من المتظاهرين في جميع الاتجاهات، وكان وجود عدد كبير من طلاب الجامعة الأمريكية أمرًا لافتًا للنظر. حدثت مناوشات هنا وهناك، واضطر الكوردون المحيط بنا إلى فتح الصفوف تحت ضغط المتظاهرين، وذهب المتظاهرون ينادون باستقلال العراق في كل مكان. لم تُفلح القوى البوليسية هذه المرة في كبح جماح الجماهير المُستفزَّة.

في عام ٢٠٠٦، قامت مظاهرة أخرى في ميدان التحرير للتنديد باقتحام القوات الإسرائيلية للبنان. وأعتقد أنها كانت بدايات حركة «كفاية» التي شارك فيها بقوة أقطابها الأساسيون. وكنت موجودة فيها، ولكن أزعجتني يومها بعض الصور والهتافات التي رأيتها وسمعتها هناك. مثل هتاف: «خيبر خيبر يا يهود» وصورة لمُلصق به السيد نصر الله مجاورًا لإرنستو تشي جيفارا، وكأنهما يدافعان عن القضية نفسها، أو كأن تعبير «اليهودي» مرادف بالضرورة للصهيوني.

في عام ٢٠٠٩، عُرضت عليَّ وظيفة مديرة مشروع لمدة سنة يُنفَّذ في خمس محافظات منها القاهرة والسويس (في الوجه البحري) والمنيا، وقنا، وأسوان (في الوجه القبلي). كانت أيضًا تجربة مهنية مفيدة حيث استهدف المشروع دعم المجتمعات المحلية في هذه المواقع لتنظيم نفسها على هيئة مجموعات محلية معنية بقضايا تهم مجتمعاتها المحيطة بعد استطلاع رأي أعضاء تلك المجتمعات، بحيث تصبح قادرة على التفاوض حول تذليل العقبات وحل المشاكل المطروحة مع صانعي القرارات. وقد تطلب ذلك توفير سلسلة من التدريبات المُكثفة لهذه المجموعات ولأعضاء المجالس المحلية، والمساعدة في تطوير خطط عمل المجموعات، وتذليل العقبات أمام نشاطها، وإطلاق الحملات، وعقد المؤتمرات والندوات. وبالتالي، كان عليَّ الإشراف على العملية الكاملة من خلال المتابعة المكتبية والميدانية على حد سواء، بما في ذلك السفر الدوري إلى المواقع المختلفة. والواقع أن أجمل ما حدث لي كانت فرصة إجراء أكثر من زيارة إلى مدينة قنا التي لم أعرفها من قبل، ولم أعرف طبيعتها الأخَّاذة، ونيلها الخلاب، وأهلها الحميمين. حمادة القناوي هو إحدى قصص قنا، كتبت يومًا مقالًا حول هذا الشاب، وكان المقال قبل الأخير الذي نشرته في جريدة البديل قبل الإغلاق، وفيه قلت:

> سافرت منذ أيام في رحلة عمل إلى قنا التي كنت أزورها للمرة الأولى، وفيها وجدت ما خالف توقعاتي، فعلى الرغم من علمي بأن المحافظ السابق كان قد طوَّر كثيرًا في المدينة،

لم أتخيل أن أجد مكانًا بهذه النظافة وهذا التنسيق. صحيح أنني عرفت أنه نظرًا لأن التطور جاء فوقيًّا ومفروضًا على السكان، فقد اختلفت الأمور إلى حدٍّ ما بعد نقل هذا المحافظ، ولم تعد الزهور تملأ أحواض الزرع في الشوارع كما كان الأمر قبلًا، كما قلَّت درجة النظافة فيها نسبيًّا. ولكن هذا لا يقلل من الواقع المضيء الذي وجدته هناك. لم يتسع الوقت لي لأرى الأحياء الخلفية ومدى تأثرها بهذه الطفرة، أو أزور القرى المحيطة بالمدينة، ولكن قيل لي إن الوجه الحضاري الذي شاهدته لا ينطبق على المحافظة بأكملها.
حمادة، هو قصة أخرى من قصص قنا، هو سائق تاكسي ركبنا معه بالمصادفة، فاتفق معه زميلي على توصيلي إلى مطار الأقصر بعد انتهاء مهمتي. جاء حمادة قبل الموعد الذي بيننا بربع ساعة، ولم أتوقع هذا منه، خاصة أن هذه النوعية من الانضباط أصبحت شبه منعدمة على مستوى المجتمع ككل، ثم انطلقنا إلى الطريق الجميل الذي يصل ما بين قنا والأقصر، وهو الطريق الذي تمتد على جانبي الترعة التي نمر بجانبها حقول لزراعات متعددة لم أتمكن من تحديدها جميعًا، وعلى حافة الطريق زُرعت كميات هائلة من شجيرات الجهنمية تجتمع فيها كل الألوان الرائعة، وهو المنظر الذي يريح العين والقلب معًا.
دار بيننا حديث لم يتوقف طوال الطريق. حكى لي حمادة عن أهل قنا الطيبين، وكيف يجهزون الطعام لأهالي القرى التي يحاصرها الأمن، حتى تصل الحال إلى انضمام الضباط والعساكر إلى المستفيدين من هذا الكرم. وتحدث عن المستشفى العام لقنا الذي يأتي إليه المرضى من المدن والقرى المحيطة وصولًا إلى الغردقة. ومع ذلك، فهو خالٍ من مصل السعار. وتساءل حمادة عن أسباب الفساد، وأكَّد قناعته بأنه لا يوجد أي دين على الأرض - حتى الأديان غير السماوية - يقبل بالفساد أو بالظلم.
في الطريق اقتربنا من مجموعة أطفال، فإذا بهم يرشوننا بالمياه التي تناثرت على وجه حمادة، فأخذ يضحك ويقول إن هذا شكل من أشكال الترحيب، وراح يشير إلى الأراضي الزراعية الممتدة ووصفها بالمعابد، ثم استغرب لأن هناك من ينظر إلى الآثار والتماثيل الفرعونية باعتبارها من الأمور الحرام لأنها تنتمي إلى الوثنية. أما هو، فإنه يفتخر بالانتماء إلى بلد صنع كل هذه الحضارة العظيمة، وهو يحب مصر ولا يريد أن يغادرها، ولكنه فوق كل شيء يحب قنا، بل يعشقها، ويريد للبلد أن يصحو وينهض من كبوته، فهو مليء بالخير، ولكن إلى أين يذهب هذا الخير؟ دفعني هذا القول إلى أن أردد له بعض أشعار قصيدة «يا مصر قومي وشدي الحيل، كل اللي تتمنيه عندي»، وقد فرح بها كثيرًا.
عند مطار الأقصر ودَّعني ابن مصر الأصيل بابتسامة عريضة، وغادرت الصعيد الذي شعرت فيه بكل أمان.

* * *

عاودت نشاطي المعتاد في الترجمة بعد الانتهاء من المشروع السابق حتى عرض عليَّ الأصدقاء في مركز دعم التنمية القيام بدور المستشارة لديهم لشؤون المتابعة والتقييم فقمت به خلال الفترة من سبتمبر ٢٠١١ حتى مايو ٢٠١٦. وتضمن هذا الدور متابعة أنشطة المنظمة وتقييمها وإبداء المقترحات لتطويرها، ومراجعة مقترحات المشروعات، وترجمة وتحرير التقارير الفنية، واقتراح إعادة هيكلة بعض الأنشطة الجارية، وإجراء زيارات ميدانية لقياس أثر أنشطة المركز. كانت فترة شهدت عديدًا من فرص التواصل مع مجموعات شبابية واعدة، ومساعدتها في بلورة أفكارها، وتحديد أهدافها المستقبلية. ولكن حدث أن اضطر المركز إلى إنهاء نشاطه خلال العام الأخير من عملي فيه.

* * *

شاهدتُ أيضًا خلال الفترة فيما بين ٢٠٠٥ وبدايات ٢٠١١ تكاثر حالات التحرش الجنسي بالفتيات والنساء، وخاصة في فترات الأعياد والمناسبات العامة. كما حدث تزايد غير مسبوق في الأحداث الطائفية، أو ربما غدت جميعها أوضح ظهورًا من ذي قبل بحكم الدور الذي لعبته وسائل التواصل الاجتماعي، وجعلت ما يحدث في أي مكان على المستوى العالمي أو المحلي يصبح في متناول الناس بعد ساعات، وأحيانًا بعد دقائق من حدوثه. ومع ذلك، لم أتمكن من حصر عدد هذه الحالات التي لم أجد لها سوى بعض البيانات المتناثرة النابعة من منظمات ومبادرات المجتمع المدني والتي لا تسمح بإحصائها بطريقة كاملة، كذلك لعبت بعض الحركات الاجتماعية مثل «كفاية» التي بدأت تبرز على الساحة أكثر من ذي قبل في حدود ٢٠٠٨ كمُحفِّز للتعبير عن الاستياء الموجود بين الناس، خاصة مع الشائعات المتنامية حول النية في توريث الحكم بالتوازي مع تردِّي الأوضاع العامة فيما بين انتشار الفساد الذي وصل إلى حد تهديد السلامة الصحية لجموع المواطنين وإصابتهم بأمراض مثل السرطان، وخاصة مَن هم أقل دخلًا وقدرة على الإنفاق لتأمين العلاج، وبين تردِّي الخدمات العامة مثل التعليم الذي أصبح لا يرقى بأي شكل من الأشكال سواء إلى مقتضيات العصر أو إلى كفالة حياة لائقة وكريمة لمَن يحظون بفرصة الحصول على قدر منه، وخناق الحريات العامة والخاصة، وانتهاك أجساد النساء لإسكات أي صوت مُعارِض، بما في ذلك أصوات الرجال أنفسهم (كما حدث على سبيل المثال لا الحصر على سلالم نقابة الصحفيين عام ٢٠٠٥). فبدأت تتكاثر المظاهر الاحتجاجية فيما بين صرخات الخطر التي أطلَقَها بعض الإعلاميين الشرفاء، وتعدُّد الاعتصامات، والمظاهرات الاحتجاجية التي شاركتُ شخصيًّا في كثير منها ونحن محاصرون بأعداد مهولة من أفراد الأمن فاقت في جميع الأحوال العدد الفعلي للمتظاهرين إلا في حالات استثنائية نجح فيها المتظاهرون والمتظاهرات في كسر هذا الحصار. أما القوات الأمنية التي تطوق هذه الوقفات فقد تبدو للمُشاهِد الخارجي أن الأمر يتعلق بمظاهرة

ضخمة، بينما الأغلبية تتكون من ذوي العصي والأوامر الحديدية بمنع المتظاهرين من الانتشار خارج الدائرة الضيقة المفروضة علينا. أذكر هنا المظاهرة ضد اجتياح لبنان، والمظاهرة ضد اجتياح القوات الأمريكية للعراق والتي لم تتمكن القوات الأمنية من كبحها، وانطلق المتظاهرون في جميع أرجاء ميدان التحرير وما بعدها، ومظاهرات التضامن مع الهيئات القضائية ضد التدخلات في عملها والتي كاد أن يُقبض خلالها على ابنتي الروحية العزيزة راجية عمران، والتي انطلقتُ شخصيًّا لحمايتها كإناث الحيوانات التي تحمي أطفالها.

* * *

من المواقف المؤثرة لي أيضًا أنه في عام ٢٠٠٨ أُغلق عدد من فروع دار الخدمات النقابية والعمالية بالشمع الأحمر والتهديد بإغلاق هذه المنظمة نهائيًّا. وبما أن والدي كان أحد المُحفزين لفكرة إنشاء هذه الدار التي ساعد كثيرًا في تأسيسها، وأنه اعتبر الصديق العزيز كمال عباس، مُنسِّق الدار، ابنًا له، وأنني شخصيًّا آمنت - وما زلت - بأن التغيير الفعلي لن يأتي إلا مع مشاركة فعَّالة وجذرية للعمال، فقد تضامنتُ بصفتي الشخصية مع هذه الدار، سواء بزيارتهم بعد الإغلاق، أو عند النظر في الدعوى التي أقامتها أمام المحكمة الإدارية العليا للطعن في الإجراءات التي جرت ضدهم. كنت واقفة قبل نظر الطعون في البهو الكبير لمبنى مجلس الدولة، ولأنني لم أعرف أحدًا من الموجودين حولي انزويت في ركن بمفردي. كانت هناك مجموعات متعددة من العمال قادمة من مواقع متنوعة للتضامن، ورأيت إحدى هذه المجموعات تنظر إليَّ من بعيد، ثم توجه أحدهم نحوي وقال لي:

- جئت أحييكِ باسم مجموعتي بصفتك ابنة يوسف درويش محامي العمال.

بدأت الدموع تسيل على وجهي من فرط التأثر لتذكُّر هؤلاء العمال لوالدي ليس فقط بعد سنوات من وفاته، لكن أيضًا بعد سنوات من الكف عن مزاولته المهنة. فقال مُحدِّثي:

- إحنا مش بنقول لك ده علشان تعيطي ولكن علشان تفرحي.

في هذه السنوات، كانت الأرصفة المحيطة بمبنى مجلس الشعب لا تخلو من اعتصامات وحركات احتجاجية عمالية وأخرى. وفي أحد اللقاءات مع شخصية برز اسمها قبيل ٢٥ يناير وجدتها تتدد بأسلوب أبوي بخمول الشعب الذي ينتظر - حسب قوله - من يقوم بتخليصه من دون إبداء أي مجهود في التحرك بنفسه، أجبت عليه - مُستفزَّة من قوله - مؤكدة أنه بالقطع لم يمر يومًا بشارع القصر العيني ليرى هذه الوقفات على الجهات المجاورة مع أطياف اجتماعية متنوعة وعلى الرصيف الملاصق لمبنى مجلس الشعب الذي امتلأ بالعمال المعتصمين. وقد اعتبرت هذا القول للشخصية الكبيرة نابعًا من المواقف الفوقية التي تفصل نفسها عن اقتسام هموم الجموع وتعتبر نفسها أنها المُنقذ الوحيد الذي يرى ويفهم كل شيء في حين لا يمتلك العامة هذه القدرة أو لا

يريدون بذل المجهود، بينما ما حدث فيما بعد يشير إلى العكس تمامًا.

في الثاني من أكتوبر عام ٢٠١٠ كانت الذكرى المائة لمولد أبي، فقررت تنظيم احتفالية له بهذه المناسبة، خاصة أنني كنت أتحفظ على الطريقة التي تم بها تأبينه بعد وفاته مباشرة؛ فقد تضمن التأبين الذي كان قد نظَّمه البعض حينذاك كلًّا من والدي والأستاذ أحمد نبيل الهلالي، وقد أدركت في حينها أن أبي لن يأخذ حظه في تكريمه. أما ما أثارني أكثر فهو أن أحد المنظمين طلب مني أن ألقي كلمة باسم المنظمات النسوية، وعلى الرغم من اعتزازي بانتمائي ومواقفي النسوية سواء على المستويين الخاص أو العام، فقد اعترضت بشدة وقلت إنني لا يمكن أن ألقي كلمة إلا بصفتي ابنة المناضل يوسف درويش.

توجهت في خريف ٢٠١٠ إلى الصديق جمال فهمي في نقابة الصحفيين لاستطلاع إمكانية إقامة الاحتفالية هناك. رحَّب جمال بالفكرة، وحضر عديد من أصدقاء وأحباب يوسف درويش، وأعرب كثيرون عن رغبتهم في إلقاء كلمة. من ضمن من جاءوا خصيصًا من الخارج للحضور كان أخي مجاهد وزوجته آن ليز وابنتهما جويل وزوجها سامر. ومن الكلمات الفكاهية التي قيلت بهذه المناسبة كلمة مجاهد الذي لم يتطرق إلى أي من ذكريات النضال، والسجون، والثقافة، والآراء، والعطاء، والالتزام كما فعل المتحدثون الآخرون، بل حكى أنه كلما يقوم بحلاقة ذقنه يتذكر أن والده أوصاه باستعمال الشبَّة التي تؤخر نمو الشعر، ولذلك فهو ما زال يستعملها حتى اليوم.

* * *

خرج علينا نداء للقيام بالثورة على الأوضاع المتردية ليكون موعد هذه الثورة هو يوم ٢٥ يناير ٢٠١١. وجاء نتيجة للكتابات التي نُشرت على صفحة فيسبوك «كلنا خالد سعيد» وكذلك الدعوة من بعض صفحات التواصل الاجتماعي للتخلص من نظام مبارك، وحالة الفساد المنتشرة في البلاد، وسوء معاملة الشرطة. كثيرون تهكموا أو لم يصدقوا جدية هذا النداء متحججين بأنهم لم يسمعوا عن ثورة قامت في موعد مُحدد ومُعلن سابقًا. ولكن، بعد النجاح الساحق غير المُتوقع لهذا النداء الذي أطلقه بعض الشباب المتحمسين للتغيير، بدأ النظر إلى الأمر بطريقة مختلفة بين جموع الناس، ومنهم بالطبع مَن ينحازون إلى حقوق الفئات المُهمَّشة، فالتجاوب بدأ يتغير في الاتجاه الإيجابي. وقد تلا هذا اليوم نداء آخر للتظاهر يوم الجمعة ٢٨ يناير. اتصلت بي ابنتي التي كانت في رحلة خارجية حينذاك - وهي التي لم تفقه يومًا في الأمور السياسية ولم تتورط في أي عمل عام، بل كثيرًا ما كانت تسخر مني - وطلبت مني ألا أجازف وحدي بسلامتي وإنما أنتظر عودتها من سفرها حتى نذهب معًا إلى الميدان. الواقع أنني لم أنتظرها، والتحقت بمظاهرة متجهة من ميدان سفنكس إلى قلب المدينة، رافعين شعار «سلمية... سلمية» في مواجهة الأعداد الأمنية

الضخمة وقياداتها التي وقفت أمامنا على امتداد المسيرة ولكنها لم تتدخل وقتها. عند الوصول قرب مطلع كوبري ١٥ مايو، بدأت تظهر فوقه أعداد كبيرة من العساكر التي تُلقي علينا القنابل المُسيلة للدموع، فبدأ الجميع يركض في طرقات جانبية، والبعض يُوزع وسائل للحماية من هذه الغازات مثل الكوكاكولا والبصل (وهي الخبرات التي تعلموها من ثورة تونس)، حتى وصلنا إلى كورنيش النيل ناحية العجوزة، فجاء شاب بجانبي ونصحني بألا أجازف بتعريض نفسي للأذى، فالشباب موجودون هنا للقيام بالثورة. في البداية، رفضت عرضه، ولكن بعد أن تبين لي أن الموضوع يحتاج إلى سرعة الهروب من الهجوم وإلى الابتعاد عن كوبري قصر النيل الذي ظهر انطلاق الغازات المُسيلة للدموع منه، فكرت أنه لا داعي أن أمثِّل عبئًا إضافيًّا على هؤلاء الشباب الذين رأيتهم يفيضون بالحماس فيضطر أحدهم إلى أن يبطئ حركته بسببي. قررت جديًّا العودة إلى مكان انتظار سيارتي. في طريق العودة سيرًا، شاهدت بعض السيارات بها رجال ونساء يمدُّون المتظاهرات والمتظاهرين بما يمكن أن يقيهم من أضرار الغازات المُسيلة للدموع. ركبت سيارتي واتجهت نحو مسكني في ٦ أكتوبر الذي عشت فيه بطريقة مؤقتة منذ بدايات ٢٠٠٧ حتى أقترب من مكان إقامة ابنتي.

في صباح اليوم التالي، وبعد الاطلاع على كل ما توفر من أخبار على مدى جزء كبير من الليل حول الموقف، وصلت ابنتي من سفرها، وقررنا التوجه معًا إلى ميدان التحرير، وكنت قد شاهدت الليلة السابقة منظر المتظاهرين الذين اقتحموا الكوبري وأجبروا قوات الأمن بكل بسالة على التراجع. بعد دخولنا فيه بقليل، بدأت طائرات تُحلِّق على مستويات منخفضة فوق الميدان، فصاحت ابنتي الطيبة:

- إنهم يحيوننا.

فقلت لها:

- يا عبيطة، إنهم يحاولون إرهابنا.

رحنا وجئنا من الميدان يوميًّا، إلى أن جاء يوم ٢ فبراير الذي توجهنا فيه إلى الميدان كل واحدة من ناحيتها، وكنت قد ركنت سيارتي في أحد الجراجات القريبة نوعًا ما. التقيت هناك بالصديقة الغالية هالة شكر الله، وبعد البقاء لفترة في الميدان، قررنا الذهاب إلى منزل أحد الأصدقاء القريبين منه لأخذ بعض الراحة. بعد وقت قصير سمعنا أصوات طلقات رصاص، نظرنا من نافذة مُطلة على شارع جانبي ووجدنا شابًّا مُلقى على الأسفلت وحوله من يحاول إنقاذه. فنزلنا سريعًا إلى الشارع بعد أن علمنا بوجود مستشفى ميداني في مكان قريب، فجمَّعنا من بائع متجول ما أمكننا من زجاجات مياه وعصائر وبسكويت، وذهبنا لنقدمه إلى المصابين الذين ملأوا أرضية هذا المستشفى. في هذه الأثناء، كانت ابنتي اتصلت بي وقالت إن هناك حركة غريبة في الميدان، ومن الأفضل أن

نلتقي معًا لنجد مكانًا يؤوينا إلى حين هدوء الأمور. في الطريق للتوجه إلى شقة قيل إنها تستقبل الهاربين من الهجوم، حكت ابنتي لنا أنها رأت أحصنة وجِمالًا يركبها رجال بسيوف يضربون بها كل من في طريقهم، ويُحدثون إصابات جسيمة في كثيرين. لما وصلنا إلى الشقة، وجدت هناك عشرات الناس المُكدَّسين على الأرض يشاهدون التلفزيون لعلهم يجدون أي أمل فيما يحصلون عليه من أخبار. ولم أفهم ما الذي ينتظرونه للخلاص من هذا الوضع، وبما أنني لا أطيق الأماكن المغلقة، ولا رائحة الجماهير المُكدَّسة لحمًا بجوار لحم، ولا أفهم ما ينتظره الجمهور الموجود، فضَّلت أن أخرج إلى الشرفة المطلة على ميدان التحرير وأحاول تخمين ما يحدث حولنا. أول ما استرعى انتباهي كانت إضاءات خضراء في السماء بأجهزة الليزر ولم أفهم وقتها من الذي يُطلقها. ثم بانخفاض العيون إلى أسفل، وعلى الرغم من عتمة الميدان، تبينت مشاهد من الكر والفر، وأناس يسقطون، وطوب يتقاذف من الناحيتين. كانت ليلة لا يعلم بها إلا الله، لم أمر بمثلها في حياتي على الرغم من كل ما مررت به من قبل. فهي كانت أطول ليلة عشتها على الإطلاق.

قضينا الليلة في هذا المكان، ثم تركناه في حدود السادسة صباح اليوم التالي، لكنني لم أتمكن من الوصول إلى سيارتي إلا بعدها بثلاثة أيام لمَّا زال قليلًا الحصار المفروض على الميدان. عندما ذهبت أخيرًا لأستردها، كان يظن المسؤولون عن الجراج أنني ضمن الجرحى أو المتوفين في الميدان. وصلت أنا وابنتي في وقت مبكر بمجمع دريم لاند حيث تسكن كل منا من ناحيتها. بعد الاستحمام والاسترخاء قليلًا قررنا العودة إلى الميدان كما ينجذب الذباب للعسل، مع أنه بدأ يتحول إلى عسل مُرٍّ. ومع ذلك، استمررنا في الذهاب إلى الميدان يوميًّا. يوم نزل الجيش للميدان، ارتفع شعار «الجيش والشعب إيد واحدة»، وأخذ البعض يلتقطون الصور التذكارية مع العساكر والدبابات معتقدين أن الخلاص يأتي من هذه الجهة. وربما كان الأجدر الاحتفاظ طوال الوقت بشعار: «عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية».

من المهم أن أذكر هنا أن نضال عمال مصر، وقيامهم بإضرابات متتالية شبيهة بالعصيان المدني يشهد على أنهم ممَّن عجَّلوا بما سُمي بتنحية مبارك وسقوط نظامه. وهذا ما يدحض حديث البعض أن الشعب لا يريد أن يتحرك، وأنه يعتمد على جهود من يسمون أنفسهم بالقيادات. ومن دون أن أدخل فيما حدث لهذه الثورة التي أبهرت العالم، ورفعت سقف الآمال والطموحات، فإن من قامت بها فعليًّا هي الطبقات الكادحة صاحبة المصلحة الأساسية في التغيير، وذلك على امتداد مصر، من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها، وبصفة خاصة في مدينة السويس التي سقط فيها عديد من الشهداء. أما من قفزوا على ثمارها، فهم آخرون وربما يحين اليوم الذي يقوم فيه البعض بتحليل عميق وتقييم حقيقي لما حدث. وهو أمر شديد الأهمية لا بد من إنجازه بهدف الاستفادة من الدروس.

أما جميع عضوات المرأة الجديدة اللاتي تبعثرن بطريقة عشوائية وغير منسقة فيما بينهن في

الميدان، فقد عُدن إلى الالتقاء سريعًا بعد فض المولد الذي كان قد تلته فوضى عارمة إبان تنازل مبارك عن العرش. ففي الساعة نفسها التي سمعنا فيها عن هذا التنحي عدنا ثانية إلى الميدان حيث تعرَّضنا لأشكال مهينة من التحرش الجنسي التي لم يكن لها مكان خلال الأيام السابقة. وقد تعرَّضت شخصيًّا لحصار مخيف من مجموعة من الشباب حسبتهم في البداية ممن تمت الإشارة إليهم بحزب الكنبة ولكن سريعًا ما أدركت أنهم من البلطجية المأجورين الذين يسعون إلى ترهيبنا كي نكف عن الإيمان بأنه كانت هناك ثورة يومًا من الأيام.

دعت المرأة الجديدة مجموعة من المنظمات النسائية ذات التوجهات القريبة، وذلك يوم ١٣ فبراير ٢٠١٢ للتباحث حول كيفية إدراج قضايا النساء على جدول أعمال القوى الثورية، وتمخض عن هذا الاجتماع الإعلان عما سُمي بتحالف المنظمات النسوية المصرية. وظنًّا - أو سذاجة - منا قررنا مع أخريات الاحتفال للمرة الأولى بيوم المرأة العالمي (٨ مارس من كل عام) بميدان التحرير، وقد كانت النتيجة مؤسفة، فتربَّصت بنا أعداد غفيرة من السلفيين للحط من شأننا، إضافة إلى ملاحقتنا جسديًّا. ومع الأسف كان هذا الاحتفال شديد الإحباط لجميع من شاركن فيه من القوى المدنية. لكنني عرفت من قراءاتي ومن لقاءات مع نماذج أخرى لثورات كبرى أن أول من توضع أحواله جانبًا بعد الثورات هن النساء بحجة أن جميع الأمور سوف تُصلح بعد انتصار الثورة، والتاريخ يقول إن هذا الزعم ليس صحيحًا وإن نَيل حقوق النساء يحتاج إلى جهود من نوع مختلف ليس الآن مجال الخوض فيها بتعمُّق، ولكن تجدر الإشارة إلى أن النظرة السائدة تختصر كثيرًا النساء في أدوارهن كزوجات، وأمهات، وبنات، وشقيقات، من دون الالتفات إلى أنهن يقمن بأدوار أخرى لا تقل أهمية، بل إنها تُقلِّص عطاءهن في التبعية للرجال، بينما تفيد الإحصاءات الرسمية أن نسبة كبيرة من أُسَر مصر قد تتعدى ٢٥٪ تعولها نساء، بل إن جزءًا مهمًّا من الناتج القومي يأتي من عمل النساء الذي يظل غير مرئي وغير مدفوع الأجر، سواء في الأعباء الأسرية التي تتولى النساء فيها أغلبية المسؤوليات الرعائية بل ينظر إليه على أنه من الأمور المفروغ منها، أو مشاركتهن في الأعمال الزراعية، أو في أعمال الخدمة المنزلية مما يحرمهن من أي حماية اجتماعية، وفي مجالات أخرى كثيرة ما زالت تشهد فجوة كبيرة في الحقوق والواجبات بين الجنسين. كل ذلك من أوضاع غير عادلة تعيشها جموع النساء، وخاصة المنتميات إلى أكثر الفئات تهميشًا وفقرًا. يتطلب ذلك بإيجاز شديد بذل الجهود في اتجاهين متوازيين؛ الاتجاه الأول يرمي إلى تغيير المنظومة التشريعية التي تحمل فلسفة تمييزية تُفرق فيما بين حقوق الرجال والنساء، وهو ما يتطلب أيضًا التفعيل الفعلي لمواد القوانين التي هناك أمل في إصلاحها من خلال وضع وتنفيذ عدد من الآليات التي تضمن حصول النساء ولو على قدر محدود من حقوقهن، وخضوع تلك الآليات لتفعيل مبادئ المحاسبية الحقيقية. أما الاتجاه الثاني، وهو الأصعب إنجازًا، فهو السعي إلى تغيير الثقافة المجتمعية السائدة التي تتجلى في ممارسات حياتية شخصية واجتماعية متعددة؛ وهذا معناه

ضمن عناصر أخرى، بداية استبدال الخطابات السائدة على الأصعدة المتنوعة، ومنها: الخطاب الذي يبثه النظام التعليمي، والنظام الإعلامي، والسياسات الصحية والخدمية الأخرى، وتبني خطابات تُعلِي من قيمة النساء بصفتهن مواطنات كاملات الأهلية، وإبراز إسهاماتهن الحقيقية على جميع الأصعدة. هذه هي بعض الأفكار السريعة التي لن أطيل فيها ولكنها قد تفتح مجالات أخرى للتفكير.

عمومًا، لما تم الإعلان عن استفتاء حول بيان ١٩ مارس، وكان موضوعه إدخال بعض التعديلات الدستورية، فهمت سريعًا أن الموجة الصاعدة هي لتيار الإخوان المسلمين، فاللجنة التي كُلِّفت بإعداد هذه التعديلات لم تضم أي عضو أو عضوة مسيحية، كما لم يكن فيها أي امرأة، وفي المقابل ضمت عناصر عديدة من الإخوان المسلمين والمتعاطفين معهم، والمواد المطروحة للاستفتاء لم تتوجه للمواطنة والمواطن أو للمصرية مع المصري، وإنما لغتها اقتصرت على استعمال المُذكر. وحدث جدل حول الموضوع مع قوى حقوقية أخرى انقسمت فيها وجهات النظر بين مؤيد ومعادٍ للتصويت بـ«نعم». وكنت من فريق الآخرين الذي لم يضم كثيرًا من المتشابكين حول الموضوع. أدركت أننا نحن النساء سنكون على رأس الضحايا لو انتصر الرأي الآخر، لكنه انتصر بالفعل، وبدأت مخاوفي تتفاقم، إلى أن جاء حكم الإخوان بكل تسرُّعه - الذي أعتبره غبيًّا - للاستيلاء على مقاليد السلطة، بل لتشكيل سلطة ثانية موازية. وربما يكون هذا الهدف الأخير هو الذي أجَّج مشاعري المعادية تجاههم، إضافةً إلى مشاهدتي في أحد الأيام تحت منزلي - بعد احتلالهم لمنطقة ميدان نهضة مصر وما حولها - مجموعة مُسلحة تجري حاملة البنادق الرشَّاشة في الشارع الذي أقيم فيه ربما لترهيب أهل الشارع والشوارع المحيطة، فضلًا عن أنهم لم ينتهجوا نهجًا يختلف كلية عن الأنظمة السابقة، ولم ينحازوا قَطُّ إلى حقوق الشعب من عمال وفلاحين وطبقات تتدهور أحوالها يومًا بعد يوم نحو الإفقار، كما أنهم تقدموا بمقترحات لقوانين مُجحِفة حول المجتمع المدني والحق في التظاهر، تم استنساخ أجزاء كبيرة منها فيما بعد. فلم أرَ فيهم يومًا وجهًا ثوريًّا بالمعنى الذي أفهمه، وإنما وجهًا آخر لعملة واحدة.

* * *

في بدايات عام ٢٠١٢ ذهبت لزيارة بعض أولاد الأعمام من المقيمين بأمريكا، وكانوا جميعًا متعطشين إلى سماع أخبار مصر والثورة. كثيرون من أولاد أعمامي يُفضِّلون التحدث باللغة العربية، ومعظم أطفالهم يفهمون كثيرًا مما يقال، خاصة الشتائم التي يوجهها إليهم أهاليهم على سبيل المُداعبة. وعمومًا يجترون بعض ذكريات طفولتهم في مصر. حينما حضرت بنات عمتي لمصر حرصن على زيارة البيت الذي سكنوا فيه ولقاء الصديقات والأصدقاء القدامى في النادي الذي كان يجمعهم في شبابهم. ولكنهم جميعًا اهتموا في هذه الزيارة بمعرفة أخبار الميدان، وما تم فيه من فعاليات. الحال نفسها بالنسبة إلى أخي الذي يظل في كل مكالمة هاتفية يسألني عن أحوالنا،

وما يجري من مستجدات في البلد، ومن الواضح أنه يتابع أخبار مصر بطريقة دقيقة. وأذكر أنه قال لي ذات مرة إنه لو كان والدنا على قيد الحياة وقت الثورة لأصر أن ينزل الميدان حتى لو تطلب ذلك استعمال كرسي متحرك، أقول الآن إن من حسن حظه أنه لم يكن موجودًا بعد ذلك.

في اليوم السابق لرحلة عودتي إلى مصر اكتشفت أن لديَّ ورمًا صغيرًا في الثدي، فقررت أن أذهب إلى طبيب من أصدقائي في بلدي لاستطلاع الأمر. ولكن ما إن عدت، حتى اكتشفت أن ابنتي قد تعرَّضت في الاحتفال الأول بثورة ٢٥ يناير إلى تحرش جنسي شرس من عدد من المتظاهرين كاد يصل إلى حدود لا يمكن تصورها لولا تدخل أحد المارة من معارفها الذي دفعها إلى سيارة أجرة وأوصلها عند مسكنها. علمت فيما بعد أن هذه الحالة تكررت يومها مع عديد من المتظاهرات السافرات، وأخبرني أحد الأصدقاء أنهم أحصوا ما لا يقل عن ٢٥ حالة في القاهرة وحدها. كانت ابنتي تستعد في هذه الفترة للزواج، فامتنعت عن إبلاغها بموضوع الورم. انشغلت هي بشأن زواجها، وذهبت أنا مع صديقتي هالة شكر الله إلى الطبيب لأستمع إلى نصيحته. فقرر أنني يجب أن أقوم على الفور بعمل فحص بالتصوير الإشعاعي للثدي، وتبين من هذا الإجراء أنني أُصبت فعلًا بالسرطان، فأمرني صديقي الطبيب بالتوجه من دون تأخير إلى جراح متخصص في هذه النوعية من العمليات. زرت بالفعل الطبيب المُقترَح والذي أكَّد الإصابة، وطلبت منه ألا يُجري الجراحة إلا غداة زواج ابنتي التي لا أريد أن أفسد فرحتها، ولذلك لا أريدها أن تعلم شيئًا إلا بعد قيامي من العملية وعودتي لمنزلي. استغرب هذا الطبيب، وحدَّثني عن المضاعفات التي يمكن حدوثها - ومنها تضخم الورم - بسبب تأجيل الجراحة لمدة أسبوعين تقريبًا، ولكنني صممت على رأيي. إلا أنني أبلغت هالة بالموضوع، وشيماء العوضي، إحدى الصديقات الحميمات لبسمة، وصديقة لي في المرأة الجديدة هي دلال صلاح، واستحلفت الثلاث ألا ينطقن لأحد بكلمة إلى أن أُخبر بسمة بنفسي.

حضرتُ فرح بسمة مساء يوم ١٥ فبراير ٢٠١٢، ثم عدت إلى المنزل مهمومة بالحزن الذي قد يصيبها إذا جرى لي سوء، فظللت طوال الليل غير قادرة على النوم للحظة واحدة. حقيقة لم ولا أخشى الموت، ولكنني أخشى البهدلة، وأخشى فوق كل شيء التسبب في حزن ابنتي. دخلت إلى حجرة العمليات صباح اليوم التالي، وجرت العملية بنجاح مع بعض المشاكل الثانوية التي تبدو طبيعية في هذه الحالات. بقيت صديقاتي الثلاث معي إلى أن حان وقت انتهاء الزيارات، ثم حاولتُ النوم بين أصوات الممرضات اللاتي يتبادلن الحديث عبر الممر الطويل الذي تصطف فيه حجرات المرضى. نمت قليلًا، لكن لا بأس.

في اليوم التالي تم التصريح لي بمغادرة المستشفى، وعُدت إلى منزلي مع هالة وشيماء، وجهَّزت لي هالة بعض الطعام، ثم اتصلت ببسمة مهنئة بزواجها، وطالبة أن تأتي قليلًا لأُقبل العروسة الجديدة. قررت هالة وشيماء الرحيل قبل أن تجيء بسمة لتركنا وحدنا، وربما لعدم الوقوع في

حرج تأنيب ابنتي لهما بسبب إخفاء حالتي عنها.

لما وصلت بسمة، كنت جالسة على كنبة في الصالة، فأخذتها في حضني وقبَّلتها، وحكيت لها، فبدأت تبكي، ابتسمت وقلت لها:

- ما تقلقيش يا حبيبتي، أنا بخير زي ما انت شايفة وكله حيبقى تمام.

* * *

أؤمن بأن استمرار الأمل في غد أفضل هو الذي يُعيننا على التعامل بما تأتي به إلينا الحياة، وهو ما يجعلني أستدعي تلك الأبيات الرائعة لناظم حكمت شاعر تركيا العظيم (١٩٠٢-١٩٦٣) الذي على الرغم من بقائه سنوات طويلة بالسجن ومعاناته من القهر ظل يقاوم هذه الظروف بالأمل الذي بثَّه حوله لأجيال متتالية من المناضلين على مستوى العالم من أجل العدالة والحياة والإنسانية:

أجمل الأيام

تلك التي لم نعشها بعد

أجمل البحار

تلك التي لم نبحر بها بعد

أجمل الأطفال

هم الذين لم يولدوا بعد

أجمل الزهور

تلك التي لم تتفتح بعد

أجمل الكلمات

تلك التي لم أقلها بعد

أجمل القصائد

تلك التي لم أكتبها بعد

وأجمل ما أريد أن أقوله لك

ما لم أقله بعد.

... وأجمل الذكريات ستأتي حتمًا.

أنا في صورتي الحالية في الرابعة والسبعين من العمر

سبتمبر ٢٠٢٣

ملاحق

جريدة البديل، ٢٣ يوليو ٢٠٠٧

بعد قليل من وصول الضباط الأحرار إلى السلطة، تبين بصورة واضحة أن هناك اتجاهًا قويًّا لمصادرة العمل العام وتحجيم حرية التنظيم في مصر، وقد انطبق الأمر سواء على الأحزاب السياسية بجميع ألوانها وتوجهاتها، أو ما يُسمى بالعمل الأهلي ومبادرات المجتمع المدني. وهو ما امتد - من ضمن ما أصاب - إلى الحركة النسائية المصرية التي ظلت لسنوات سابقة تدافع عن القضية الوطنية وتدافع عن حقوق النساء. ففي عام ١٩٥٣ تم إغلاق مكاتب الاتحاد النسائي المصري واتحاد بنت النيل بدعوى أنها أحزاب سياسية! ثم تصاعدت الإجراءات لضمان مزيد من الاستئثار بالسلطة وصولًا إلى حل جميع الأحزاب السياسية ومنظمات أخرى مثل الاتحاد النسائي المصري الذي تم حله نهائيًّا في عام ١٩٥٦ ليُستبدل بالتنظيم النسائي في الاتحاد القومي ثم في الاتحاد الاشتراكي. وهو ما يعني أنه لم يعد هناك تنظيم نسائي مستقل. في إطار هذا التضييق، قامت درية شفيق في عام ١٩٥٧ بالإضراب عن الطعام احتجاجًا على قمع الحريات العامة، وهو الإضراب الذي شجبته - بكل أسف - بعض الأصوات النسائية ذات التوجهات اليسارية.

صحيح أن النظام الجمهوري الجديد لم يمنع دخول النساء في المجال العام، وتجلى ذلك في منح النساء المصريات حق الاقتراع والترشُّح في عام ١٩٥٦، كما سُنت منذ ١٩٥٤ التشريعات التي منحت المرأة حقوقًا متساوية في مجالي التعليم والعمل، فيما عدا القطاعات غير الرسمية والعاملات في الزراعة، وهي العمالة التي لم تحظَ حتى اليوم بأي شكل من أشكال التغطية والحماية القانونية. بناء على ذلك، بدأت تظهر أجيال جديدة من النساء المصريات اللاتي اندرجن في صفوف الجامعة، واللاتي خضن في مهن لم تكن مفتوحة أمامهن فيما قبل. ولكن ظلت النساء المصريات عاجزات عن الحصول على التعديلات التي طالما طالبن بها في قوانين الأحوال الشخصية في ظل غياب التنظيمات المستقلة التي تسمح بالدفاع عن برنامج نسائي أو مطالب نسائية قد تتعدى الحدود التي يرضى بها النظام. فالمكتسبات عبارة عن منح تهبط من أعلى على رأس المحكومين، وقد يتم سحبها من أعلى أيضًا، ولا إرادة يتمتع بها الشعب أو يُسمح له بالتعبير عنها. وهو ما انطبق على إجمالي المجتمع المصري لما يزيد على خمسين عامًا. فمع الهامش البسيط من حرية التحرك، نشهد الأساليب نفسها التي نقرأ عنها في خمسينيات القرن العشرين. ففي عام ١٩٥٨، سعت مجموعة من الناشطات إلى تسجيل جمعية لدى وزارة الشؤون الاجتماعية، وقوبل هذا الطلب بالرفض لأسباب متعلقة بأمن البلد. والمفارقة أن الأمر نفسه يحدث في عام ٢٠٠٣ مع المنظمة التي أنتمي إليها، أي بعد مرور ما يقرب من نصف قرن من الزمن.

معنى هذا أننا ما زلنا نرث الأمراض التي أطلقها علينا السابقون والتي تتمثل في قمع الحريات

العامة بجميع أشكالها. قد يرى البعض أن هذا القمع كان مبررًا، حيث حدثت مع ٢٣ يوليو بعض التحولات الإيجابية في حياة الناس، خاصة بالنسبة للفئات الفقيرة. ولكن، هل اختفى المهمشون؟ هل كان المجتمع خاليًا من الفساد؟ هل اختفت فعليًّا الفجوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء؟ إلى أي حد تم إرساء العدالة الاجتماعية؟ وما حجم التركة التي يرزح الشعب المصري حتى اليوم تحت ثقلها؟

إن مفهوم الثورة يرتبط بالتغيير الجذري، كأن نتحدث مثلًا عن الثورة المعلوماتية، أو الثورة الصناعية. هذا المفهوم ينطبق أيضًا على المجتمعات الإنسانية. والواقع أن الأمر الجذري الذي حدث هو الانتقال من نظام ملكي إلى نظام جمهوري، أو ما شابه. والأمر الجذري الذي حدث أيضًا كان في القضاء على المجتمع المدني المصري والحياة العامة لعقود طويلة جعلت إمكانات صعودها مرة أخرى محفوفة بالمخاطر والتهديدات. ولذا نجد أنفسنا اليوم أمام مجتمع مدني مُحجَّم، يتلقى الضربات كلما حاول أن ينهض من كبوته ويلتحم بجمهوره الطبيعي، وأمام أحزاب سياسية هزيلة غير قادرة على التعبير عن هموم الناس، وبالتالي عاجزة عن الدفاع عن مصالحهم. وكما ورثنا الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي، ورثنا أيضًا الحزب الوطني. التركة ثقيلة، وتثير الهموم، وهي تستدعي إعادة النظر فيما حدث للشعب المصري الطيب، وإعادة التفكير بهذه المعادلة الصعبة التي طُرحت أمامنا دون أن نُمنح حق الاختيار؛ بهذه المعادلة الصعبة أعني منح الخبز مقابل تكميم الأفواه. والواقع أن هذه المعادلة مغلوطة من أساسها، وهي من صنع الأنظمة التي لا تثق في شعوبها، فتلجأ إلى تلجيم حركتها مع تلويح بالجزرة، أو الترويج للمخاطر الفعلية والوهمية. غير صحيح أن المسألة يجب أن تكون إما هذا أو ذاك، لأن ما يحدث اليوم ليس هذا ولا ذاك، فلا خبز، ولا مياه، ولا حرية للدفاع عن لقمة الخبز أو قطرة المياه، أو عن أي مكاسب تتلاشى يومًا بعد يوم فتاتها الأخيرة.

جريدة البديل، ٢٧ يوليو ٢٠٠٨

يحرص الناس في مصر على فض النزاعات التي قد تحدث في الشارع بين أي اثنين؛ وهي نزاعات أصبحت تأخذ في السنوات الأخيرة أشكالًا أكثر عنفًا، ربما بسبب حالة الاحتقان العامة الناتجة عن سياسات ظالمة، أو لأسباب متعلقة بالفوضى العارمة التي أصبحت مفروضة على جميع جوانب حياتنا، أو أن الأمر يرتبط بنماذج البلطجة الفردية والجماعية التي تسيطر على المجتمع وفعالياته، أم أن المسألة تعود إلى التلوث البيئي الذي كاد يخنقنا ويقضي على أنفاسنا حتى غدا تنفسنا الوحيد هو الهجوم على الآخر. ومهما كانت الأسباب منفردة أو مجتمعة، فإن ما يحدث في معظم الأحوال عندما نجد رجلًا يعتدي على امرأة في الشارع أو في المجال العام، ويعترض الناس على ذلك، ثم يقال لهم إن هذه السيدة زوجته أو ابنته أو شقيقته، ينفض الناس من حول المشهد، لأن المسألة تدخل في إطار ما يُسمى بالمجال الخاص؛ وهو مجال يُنظر إليه باعتباره يخضع لقواعده التي ليس من حق طرف خارجي أن يمسها أو يقترب منها.

وينطبق المنطق نفسه على مجموعة القوانين المنظمة لحياة الناس: فعلى الرغم من أن الدستور المصري ينص على المساواة بين البشر، وأن مصر قد وقَّعت على عديد من الاتفاقيات والعهود الدولية التي تحمل هذا المعنى، والتي من أهمها بالنسبة للنساء اتفاقية إلغاء جميع أشكال التمييز ضد المرأة، لا تخلو القوانين المصرية من حالة الانفصام تلك بين ما هو عام وما هو خاص. فقد أقر المشرع المصري بحق الاقتراع للنساء منذ عام ١٩٥٦، وهو تاريخ سابق بالنسبة لعديد من البلدان الأخرى، ولا سيما بعض البلدان الغربية. وفي مجالي العمل والتعليم، يمنح القانون حقوقًا متساوية للذكور والإناث. وإنما حينما نقترب من المجال الخاص، وبمعنى أكثر تحديدًا العلاقات الأسرية، نجد الجهات التشريعية تنتفض هلعًا، ولا يختلف في ذلك من يمثلون الحزب الوطني عمن يسمونهم بالجماعة المحظورة. وهو ما بدا واضحًا عند مناقشة مسودات نصوص، مثل الخُلع، والزواج العرفي، وسفر الزوجة دون إذن، ومؤخرًا قانون الطفل؛ وهي مجرد أمثلة للتدليل وعلى سبيل التذكير للقارئ. أما فيما يتعلق بالقوانين الموجودة فعليًّا، فهي مليئة بأشكال من التمييز وعدم المساواة، بدءًا بقوانين الأحوال الشخصية، وصولًا إلى العقوبات الخاصة بجريمة الزنى.

مع هذه الازدواجية في المعايير، سنجد أن المساواة المكفولة للنساء في المجال العام لا يمكن أن تكون إلا شكلية؛ ذلك أنه يمكن القول باختصار شديد أن هذا الفصل المتعمد يحدث في حين يمثل المجالان امتدادًا لبعضهما البعض، وأن ما يحدث في الحياة الخاصة ينعكس على الحياة العامة، والعكس صحيح. فمع أن القوانين لا تفرق بين النساء والرجال من حيث الأجور، هناك عدد من الممارسات التمييزية التي تحدث في أماكن العمل - على سبيل المثال - والتي تساهم في تعميق

فجوة الدخل فيما بين الإناث والذكور، والتي يدخل في إطارها عجز النساء في اتخاذ القرارات، حيث غالبًا ما يحتل الرجال المراكز القيادية والإشرافية في أماكن العمل - حتى تلك التي تعتمد أساسًا على عمالة نسائية - كما هو معمول به في الإطار الأسري، وهو ما ينتج عن النظرة الدونية للمرأة بصفة عامة، والشك في قدراتها، واعتبارها تابعة للرجال، إلخ. الأمر نفسه يحدث في منظمات المجتمع المدني، وفي الأحزاب السياسية، والنقابات المهنية والعمالية، وفي الانتخابات العامة، ومع ذلك، على الرغم من أهمية القوانين والإطار التشريعي المصاحب لها، فإن المسؤولية الكبرى فيما يتعلق بالنساء ترتبط بالإطار الثقافي الاجتماعي؛ فحتى مع وجود بعض القوانين الإيجابية، كثيرًا ما نجد فجوات على مستوى التطبيق والتفسير؛ فما الذي يمكن أن ننتظره من الشخص الذي ينفذها إذا كان يحمل نظرة متدنية للنساء، ويؤمن بالفكر التراتبي والذكوري، ويعتبر أن هناك مجالين يجب الفصل بينهما؟

جريدة البديل، ٢٤ فبراير ٢٠٠٩

«تتكمش شيئًا فشيئًا ذاكرة المدن الأصلية»، لا أعلم من الذي قال هذه الجملة، ولكني رحت أتأمل في معناها الذي أجده ينطبق بطريقة مذهلة على حالة القاهرة. فأنا بنت القاهرة، وبالأصح بنت وسط المدينة؛ كنت أتمشى في شوارعها وأشم رائحتها دون أن أدري مدى ارتباطي بها، إلى أن جاء اليوم الذي سافرت فيه للمرة الأولى إلى باريس، مدينة النور والجمال والأدب والتاريخ الذي تشبعت به! ومع ذلك، شعرت هناك بغربة شديدة مصدرها حنيني العارم إلى القاهرة؛ ولكن لم تكن الحال نفسها حينما سافرت إلى باريس منذ سنتين، حيث كنت أتمنى أن أمُط الأيام حتى تتحول إلى شهور أو سنين.

في الشارع الذي عشت فيه سنوات طوالًا، كانت هناك أشجار على الجانبين، ونظرًا إلى أنه كانت هناك ثلاث مدارس تقع في هذا الجزء من الشارع، يتحول الشارع بدءًا من الرابعة مساءً إلى واحة من الهدوء تحتضن المارة من «الحبيبة»؛ أما اليوم، فقد حل محل الأشجار والعشاق صفوف متكدسة من السيارات على مدار اليوم والليل، تتصدرها سيارات الشرطة التي لا تتسع الشوارع الجانبية الأخرى لاستيعابها. وكانت الفتيات كالزهور المتلونة بجميع الألوان المبهجة، وكن يسرن بثقة ودون خوف لأن هناك مجتمعًا بأكمله سيهب ليحميهن من الأذى. والآن أنظر إلى السيدات، فأراهن أشبه إلى الغربان بفضل الأزياء المبتكرة التي دخلت على مجتمعنا، مرة بزعم ستر العورات، ومرة أخرى بزعم الحفاظ على الشرف وتجنيبهن التعرض للانتهاكات. ومع ذلك، لا يحتاج موقف المجتمع من النساء اليوم إلى كثير من الشرح؛ فإن لم يكن هذا الموقف في معظم الأحوال عنيفًا، فهو سلبي على أقل تقدير وبصفة عامة يتم إلقاء اللوم على الفتاة أو السيدة عند تعرضها لأشكال متنوعة من الانتهاكات بغض النظر عن شكل الزي الذي ترتديه.

وفي أحد الشوارع الجانبية التي لا يعرف كثيرون أسماءها (وهو شارع الأمير قدادار) هناك مبانٍ قديمة رائعة الجمال، تحولت إلى خرابات، ومناورها إلى مستودعات لمستلزمات القنوات الفضائية، مثل الدش والديكودر، وهو ما أدى إلى تكسير تلك السلالم الرخامية التي ظلت لسنوات طوال تحمل عبق التاريخ، فتم استبدالها بسلالم قبيحة يتم رصها بدون أي تنسيق، وتمثل تهديدًا فعليًّا لأعناق (رقاب) من يتسلق. في نهاية السبعينيات، قال لي أحد الأصدقاء الأجانب من عشاق القاهرة إنه كان يعتبر فندق هيلتون النيل من أقبح مباني القاهرة ولكنه أصبح يعتبره الآن من أجملها. هذا الانطباع يتعمق يومًا بعد يوم حينما يتم هدم أو التهديد بهدم مبانٍ ذات طابع تاريخي وقيم جمالية رائعة لإحلالها بمعمار عشوائي، لا يمت بصلة إلى أي مدرسة من مدارس الفن الحديث أو القديم، كما أصبحت أسماء المحلات والسلع التي تروجها تحمل لكنة أجنبية لا يقدر

أغلبية المواطنين على نطقها، فما بالنا باستيعاب المعنى الذي تسعى إلى توصيله إلى المستهلك!

وكما هجرتني مدينة شبابي، هجرتها بدوري اليوم لأنني أحببتها كالعشيق، وحينما يتحول العشيق إلى وحش، يتبدل الحب إلى النفور والكراهية؛ هجرتها إلى إحدى المدن البلاستيكية الجديدة لعلي أُشفى من هذه الخيانة وأرتاح بين أحضان عشيق آخر، فوجدتها مصطنعة ولا تقدم إلا حضنًا باردًا بلا أي حميمية أو دفء؛ وهكذا لم أعد أجد نفسي لا هنا ولا هناك.

جريدة الدستور، ٣ مايو ٢٠١٠

السؤال المطروح هنا يتعلق بمدى أهمية وجود مجتمع مدني نابض بالحياة؛ فهل يمثل المجتمع المدني القوي مساهمة فعلية في تطوير حياة الأمم؟ وما الأدوار المفترض أن يقوم بها هذا الفضاء الممتد ما بين الأسرة والدولة؟ وما المقومات التي تؤهله للقيام بالأدوار المُتوقعة منه؟ يرى البعض أن على منظمات المجتمع المدني القيام بدور إلحاقي للدولة؛ أي أن عليها التخفيف من وطأة السياسات التي قد تؤثر سلبًا على حياة المواطنين من خلال تنفيذ برامج ومشروعات تكلفها بها الدولة؛ وقد تتم تلك الأنشطة من خلال مقاربات خيرية، مثل منح الهبات النقدية أو العينية، أو مقاربات خدمية، مثل توفير العلاج أو التعليم كبديل للدور المفترض أن تقوم به الدولة. وعمومًا، فإن هذا التناول لأدوار منظمات المجتمع المدني لا يمكن من خلاله النظر إليها باعتبارها إحدى أدوات التغيير. أما الطرح الذي أقدمه هنا، فهو يتماس مع فكرة ممارسة حقوق المواطنة بالمعنى الشامل للحقوق والتي تضم الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية إلى جانب الحقوق السياسية والمدنية، كما هو منصوص عليه في الاتفاقيات الدولية التي انضمت إليها مصر منذ عقود مضت. من هذه الزاوية، تشير أدوار منظمات المجتمع المدني إلى إتاحة المجال للمواطنين للتعبير عن أنفسهم، والمطالبة بحقوقهم من خلال مساعدتهم على استيعاب تلك الحقوق، وتمكينهم من وسائل الدفاع عنها. الفرق إذن شاسع بين المفهومين؛ فمن ناحية، هناك سعي إلى المداواة والتطبيب، ومن الناحية الأخرى سنجد الجهود تتركز في تحقيق التمكين الفعلي. فإذا ما أخذنا بهذا المفهوم الأخير الرامي إلى العمل مع الناس وليس نيابة عنهم، من الطبيعي أن نتساءل حول نوعية البيئة المواتية لتحقق ذلك، أي البيئة التي تسمح بوجود مجتمع مدني يشارك مشاركة فعَّالة في إحداث التغيير الذي يتطلع إليه الوطن استنادًا إلى المواطنين أنفسهم والقضايا التي تشغلهم. من أول المقومات المطلوب توافرها فتح المجال بطريقة حقيقية أمام منظمات المجتمع المدني وخاصة تلك التي تنطلق من مبدأ حقوقي؛ وهو ما لا يتوافر اليوم في بلدنا. بل إن هناك محاولات لفرض مزيد من التضييق على هذه المنظمات تحت مزاعم متنوعة، منها أنها تسعى إلى هدم استقرار هذا الوطن، أو أنها تعمل على تنفيذ مخططات مستوردة، أو أنها مجرد نُخب لا تمت بصلة لهذا الشعب، إلخ. فلو تناولنا مسألة الاستقرار، فإن أي شاهد يمر أمام رصيف مجلس الشعب سيتأكد بكل بساطة أنه لا يمكن أن يكون هناك استقرار في ظل الظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي يحيا فيه المواطنون المصريون. أما عن المخططات الأجنبية، فهي قد تكون موجودة، ولكن هل هي التي تحرك مئات الحركات الاحتجاجية التي تحدث كل يوم في بر مصر؟ وهل هي التي تدفع المنظمات الحقوقية إلى الالتحام بها والدفاع عنها؟ سيذهب بعضهم إلى أن الدليل على هذا الزعم هو أن

المنظمات الحقوقية تتلقى التمويل الأجنبي، وهذا صحيح في ظل غياب أي دعم محلي للأنشطة الحقوقية؛ ولكن أيضًا هل معنى تلقي الحكومة المصرية للدعم الأجنبي أنها تنفذ مخططات خارجية ودخيلة؟ وأخيرًا، فإن منظمات المجتمع المدني التي أتحدث عنها ظلت سنوات طويلة محصورة في مقراتها، وطالما عانى نشطاؤها من المطاردات والقمع، فأشير إليهم على أنهم نخبويون؛ ولما خرجوا ليلتحموا بالناس أو يراقبوا الانتخابات ويرصدوا الانتهاكات أصبحوا يعكرون الاستقرار والأمن العام؛ فما المطلوب منهم بالضبط؟ في فبراير الماضي، وعد ممثلو الحكومة المصرية - خلال الاستعراض الدوري الشامل الذي أجراه مجلس حقوق الإنسان بالأمم المتحدة لأحوال حقوق الإنسان في مصر - بتوفير المناخ المواتي لمنظمات المجتمع المدني؛ إلا أن ما تسرب حتى الآن من أخبار حول التعديلات المزمع إجراؤها على قانون الجمعيات والمؤسسات الأهلية لا يبشر بالخير، بل بمزيد من الخناق والقيود. ومع ذلك، ينسى البعض أن عجلة التاريخ لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وأن الشعوب لا يمكن أن تقبل بالقهر إلى الأبد، وأن الحق في حرية التنظيم والتجمع والتعبير حق أساسي من حقوق الإنسان، وأن الناس سوف تمارسه بجميع الأشكال الممكنة، وسوف تبتكر الأشكال إن لزم الأمر لأن هذه هي طبيعة المجتمعات الإنسانية؛ هذه الممارسة النابعة من أسفل إلى أعلى والمبنية على الإرادة الطوعية للالتفاف حول هدف مشترك هي بكل تأكيد قيمة مضافة تستدعي تعبئة جميع الجهود للحفاظ عليها والإعلاء من شأنها وإبراز ثمنها. فالقضاء على المجتمع المدني، أو الاكتفاء بمجتمع مدني صوري وتابع سيمثل ردة للجميع بكل معاني الكلمة، ولم يعد المجتمع المصري يحتمل مزيدًا من الانتكاسات.

إعداد نولة درويش - ٢٠٢٣

مقدمة

تمثل هذه الوثيقة التي كلَّف مجلس أمناء مؤسسة المرأة الجديدة إحدى العضوات المؤسسات بإعدادها عقدًا/عهدًا بين جميع الأطراف المرتبطة بها، بداية من هذا المجلس، والإدارة العليا للمؤسسة، وجميع العاملات والعاملين بأجر، والمتطوعات والمتطوعين. وهي وثيقة ملزمة لجميع هذه الأطراف بعد الاطلاع عليها والتوقيع على جميع صفحاتها، كما تُعد التزامًا تجاه الجمهور المحيط الذي نتعامل معه. وهي تشكل مجتمعة ضمانًا لاستمرارية صورة المنظمة بطريقة لائقة مما يضمن الحفاظ على الاحترام الذي حصلت عليه على مدى ما يزيد على ثلاثين سنة ماضية. وتنقسم هذه الوثيقة إلى ثلاثة أجزاء متكاملة جميعها قابل للنشر العام.

أولًا: ميثاق العمل الأخلاقي

هو عبارة عن الأخلاقيات والقيم التي تشير إلى ما نتطلع إليه من حيث تحقيق الأخلاقيات والقيم والمبادئ الأساسية التي جرى الاستقرار عليها عبر سنوات من الخبرة العملية. وهذا الجزء يتسم بمزيد من العمومية رغم أنه أقصر طولًا من مدونة السلوك، وهو يخص المبادئ العامة التي تحكمنا، ومركز اهتمامه هو القيم والرؤية. أما المبادئ والأخلاقيات التي نؤمن بها فهي إعلاء حقوق الإنسان بصفة عامة مع التركيز على حقوق النساء بصفة خاصة. وهذا يعني:

• عدم التمييز ومناهضة العنف بجميع أشكاله وعلى أي أساس كان: سواء الجنس والحالة الاجتماعية، أو الانتماء الطبقي، أو السن، أو الانتماء الديني والإثني، أو اللون، أو العقيدة الفكرية، أو المستوى التعليمي، أو الإعاقة الجسدية والنفسية، إلخ، والحفاظ في جميع الأحوال على صيانة كرامة الآخرين.

• دعم قدرة الفئات المستهدفة في الوصول إلى الموارد المالية والقانونية والنفسية والحصول عليها.

• احترام الاختلاف الفكري، والخيارات الشخصية، بما لا يتعارض مع رسالة ورؤية المؤسسة.

• الاعتراف بقدرات الآخرين، والإقرار بتطورهم المهني والفكري وتشجيعهم على ذلك.

• التضمين مقابل الإقصاء، بمعنى إشراك العاملات والعاملين في عمليات اتخاذ القرارات، وتوسيع رقعة الفئات المتطلعة إلى تغيير مجريات حياتها إلى الأفضل، ودعمها في تحقيق ذلك من خلال استطلاع أولوياتها وأخذها بعين الاعتبار مع تحفيز حركة نسائية/نسوية محلية وإقليمية ودولية قوية قادرة على حشد التضامن العريض مع مطالبها وكسب أوسع تأييد لها من قِبل

المواطنات والمواطنين على حد سواء.

• إعلاء قيمة النزاهة والأمانة المهنية - على المستويين الخاص والعام - للوقوف بشكل شامخ أمام أي ادعاءات مضللة أو محاولات للتشهير.

• تفعيل قيم وممارسات الديمقراطية الداخلية والخارجية، وممارستها على أقل تقدير على المستوى الداخلي، والدفاع عنها، والمناداة بإعمالها على المستوى العام.

• تأمين بيئة عمل آمنة داخليًّا ومع من نتعامل معهن/م خارجيًّا. ومن هنا تتعهد المؤسسة بتوفير بيئة خالية من أي تهديد على سلامة العاملات والعاملين والمتعاملات والمتعاملين معها، سواء كانت هذه التهديدات متعلقة بظروف صحية، أو بمصاعب أخرى تواجه العمل (ومنها على سبيل المثال لا الحصر: حل الصراعات الشخصية بطريقة سلمية، والاستماع إلى جميع الأطراف المعنية مع الاحتكام إلى أطراف موضوعية قادرة على اقتراح حلول مقبولة لأطراف النزاع، والحفاظ على المعلومات الداخلية، وتوفير السلامة المهنية، إلخ).

• النهوض المستمر بقدرات ومهارات العاملات والعاملين والفئات المستهدفة.

ثانيًا: مدونة سلوكيات العمل

هذه المدونة مشتقة من مبادئ وقيم ميثاق العمل الأخلاقي لمؤسسة المرأة الجديدة، وهي أكثر تحديدًا من هذا الميثاق، إذ تتضمن الممارسات والأنشطة العملية المسموح والمُطالب بها أو المحظورة، وهي معنية بالحياة الداخلية للمنظمة بصفة عامة، وفيما بين أطراف بعينها بصفة خاصة. بنودها متشابكة وتنطبق على الجميع، وبالتالي فهي أكثر طولًا. وفيما يلي العناصر الأساسية الخاصة بتطبيق ما جاء بميثاق أخلاقيات العمل.

مع الفئات المستهدفة

المسؤولية الشخصية

على الجميع مساعدة الفئات المستهدفة في تحقيق أهدافها الأساسية دون توقع مقابل مادي إضافي لذلك، كما يُشجع الجميع على تقديم جزء من وقتهن/م، ومن المهارات المهنية التي يمتلكونها بطريقة تطوعية من أجل إنجاز ذلك.

تحقيق العدالة الاجتماعية

تركيز الجهود على قضايا الفقر، والبطالة، والتمييز، وأشكال أخرى من الظلم الاجتماعي، وهي أنشطة تتطلب الحاجة إلى مقاربة حساسة لتلك القضايا، وإلى معرفة متعمقة بأشكال القمع التي تُمارس ضد الذين يعانون من التمييز والتهميش من خلال الحصول على المعلومات المناسبة في هذا المجال وإشراك الفئات المستهدفة في بلورة القرارات اللائقة لها.

احترام كرامة وقيمة الإنسان

التعامل مع كل شخص بطريقة تحترم كرامته وتنوعه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والإثني، مع النهوض بحق تلك الفئات في تقرير مصيرها؛ أي السعي إلى تطوير قدرة وفرص أولئك في إجراء التغيير بأنفسهن/م، وليس من خلال الفرض بطريقة فوقية، وإنما بما يتمشى مع احتياجاتهن/م الفعلية.

أهمية العلاقات الإنسانية

إدراك المتواصلات والمتواصلين مباشرة مع الجمهور المستهدف أن العلاقات الإنسانية المبنية على أسس سليمة مع هؤلاء تقوم بدور مهم في إحداث التغيير. ومع ذلك، على هؤلاء تجنب كسر الحواجز المهنية مما قد يؤدي إلى الإضرار بأخلاقيات العمل (على سبيل المثال لا الحصر: عقد علاقات حميمة، أو ممارسة أسلوب سلطوي، أو فرض حلول تتعارض مع مقتضيات التقرير الذاتي، أو الإفصاح عن بيانات خاصة بالمؤسسة، أو تبني مقترحات دون العلم الكامل والموافقة المبنية على المعرفة التامة من قِبل أصحاب المصلحة الأولى، إلخ).

النزاهة في التعامل

نحن نتعامل مع أنفسنا ومع الآخرين بطريقة تتسم بالثقة المتبادلة، وملزمون باتباع معايير أخلاقيات وقيم العمل، ولذا علينا التعامل بطريقة متسقة مع رسالتنا، وتطوير الممارسات الجيدة لدى الغير كما فيما بيننا. ويتطلب ذلك أيضًا الحفاظ على سرية المعلومات الخاصة بمن نتعامل معهن/م، و/أو الحصول على تصريح موثق/كتابي بالإفصاح عنها مع إمداد هؤلاء بنسخة مما جاء على لسانهن/م أو الشهادات التي أدلوا بها والتوقيع بمطابقتها مع ما جاء بها وعلى موافقتهن/م على الإفصاح عنها. وفي حالة الإحساس بأن المعلومات لم تصل بطريقة واضحة للفئة المستهدفة، فيجب بذل الجهد لتفسيرها بطريقة مبسطة حتى التأكد من أنها وصلت بطريقة سليمة وبلا لبس، إضافةً إلى الحرص على تجنُّب حدوث تداعيات ضارة على سمعة ومصداقية المؤسسة.

الكفاءة المهنية

وهي تتضمن المسؤولية الاجتماعية تجاه من نتعامل معهم، والمسؤولية الأخلاقية تجاه زميلات وزملاء العمل، ومسؤوليتنا نحن كمهنيات/ين تجاه العمل الاجتماعي بصفة خاصة، ومسؤوليتنا المهنية تجاه المجتمع الواسع بشكل عام، وهذا ما يتطلب اطِّلاعًا مستمرًّا على أحدث التقنيات والتدخلات المقترحة، واللجوء إلى الخبراء المتخصصين في المجال المرجو معرفته.

مع زملاء العمل

الاحترام المتبادل

على الجميع التعامل باحترام، وتقديم منجزات ومؤهلات بعضهم البعض بطريقة منصفة داخل وخارج المنظمة، وعليهم الامتناع عن إبداء أي ملاحظات سلبية - سواء داخل مكان العمل أو أمام

أطراف خارجية - قد تتعلق بتقييم مستوى كفاءة أي من الزميلات والزملاء، أو ما يتعلق بأشخاص ينتمون إلى ذلك الأصل، أو اللون، أو الجنس، أو الدين، أو الحالة الاجتماعية، أو العقيدة، أو السن، أو أي خلفيات متباينة قد توجد داخل فريق العمل.

التعاون فيما بين التخصصات المتداخلة المختلفة

على الزميلات والزملاء التعاون والمساهمة في اتخاذ القرارات التي قد تؤثر على سلامة الفئات المستهدفة من خلال تقديم التحليلات حول الاحتمالات المستقبلية، وتداعياتها على قيم المؤسسة، وإبراز الخبرات المكتسبة من العمل، واقتسام الخبرات والمعلومات الحالية والمستجدة. وتقع على الزميلات والزملاء الذين يتولون مهام إشرافية أو يقدمون الإرشادات المهنية مسؤولية وضع حدود واضحة وملائمة وتتسم بالحساسية الثقافية عند التعامل مع الزميلات والزملاء الآخرين.

التناقضات والمخالفات في صفوف زملاء العمل

لا ينبغي أن يترتب على تلك الخلافات انتهاز إحداهن/م الفرصة للحصول على مراكز بديلة، أو الاستفادة من الفئات المستهدفة لصالح ذلك الطرف أو تلك، بل السعي إلى حل الخلافات عن طريق:

• التواصل المباشر مع الزميلة المعنية/الزميل المعني، والسعي إلى حل الخلاف وجهًا لوجه، ولو تعذر الأمر يمكن للطرفين المطالبة بلجنة تحقيق يعتبرها الجانبان محايدة لتبت في الأمر بعد الاستماع إلى الطرفين، كما يمكن أن تُعلي هذه اللجنة أهمية الاستماع إلى شهود إثبات أو نفي للوقائع محل الخلاف، ثم ترفع استنتاجاتها النهائية إلى المدير التنفيذي/المديرة التنفيذية، ومنها إلى مجلس الأمناء لاتخاذ القرار النهائي.

• وينطبق هذا البند على أي شكل من أشكال التجاوزات أو المخالفات أو اختلافات التقييم (منها على سبيل المثال لا الحصر: التعالي في التعامل المتبادل أو الاستهتار والسخرية من الرأي الآخر، وإبداء ملاحظة حول عدم الكفاءة المهنية لدى الزميل/الزميلة، وصولًا إلى الاتهام بالتنمر أو التحرش الجنسي قولًا أو ممارسة). يتم البت في تدرج الجزاءات وفقًا لما جاء في باب «الموارد البشرية» باللائحة التنفيذية للمؤسسة.

تجاه المؤسسة

• الحفاظ على سرية المعلومات: محظور إفشاء معلومات خاصة بالمؤسسة قبل الحصول على إذن كتابي من المسؤول المباشر/المسؤولة المباشرة مشفوع بتوقيع عضو/ة مجلس الأمناء المسؤول/ة عن الأمر موضوع الإفصاح عنه.

• على العاملات والعاملين توفير معلومات وافية في السجلات المخصصة لذلك حول تفاصيل المهمات التي يقومون بها - بما في ذلك بيانات متعلقة بوسائل الاتصال والعناوين الخاصة بالفئات

المستهدفة - إعمالًا لمبدأ الشفافية، وكذلك لتسهيل عمليات التسليم في حالة ترك العمل وضمان الاستمرارية السلسة مستقبلًا.

• التحلي بالنزاهة والأمانة المهنية (على سبيل المثال لا الحصر: الامتناع عن قبول الهدايا القيِّمة من أي جهة خارجية، استعمال مكان العمل لأغراض شخصية، ارتكاب أفعال تسيء إلى سمعة المؤسسة، استغلال معرفة أسرار العمل أو الزميلات والزملاء أو الفئات المستهدفة في التشهير أو النشر، تعاطي المخدرات أو الكحوليات في مكان العمل، وصول الخلافات الشخصية إلى حد ممارسة العنف، إلخ).

• على العاملات والعاملين في الإدارة السعي إلى توفير التعليم المستمر من أجل تطوير خبراتهن/م الخاصة وخبرات الطاقم التنفيذي، وهو ما يتضمن المعارف والمعلومات الحالية والتطورات التي تبرز في مجالات العمل من حيث الممارسة والأخلاقيات.

• الامتناع عن ممارسة أي شكل من أشكال التمييز، سواء على أساس الجنس والحالة الاجتماعية، أو الانتماء الطبقي، أو الانتماء الديني والإثني، أو اللون، أو العقيدة، أو المستوى التعليمي، أو السن، أو الإعاقة الجسدية والنفسية. هذا الامتناع يتعدى حدود الممارسة المباشرة ليمتد إلى الترويج للتمييز، أو تسهيل حدوثه، أو التهاون تجاهه، أو التعاون مع أي شكل من أشكاله.

• حرص العاملات والعاملين على تفادي التأثير فيما بين ظروفهن/م وحياتهن/م الشخصية والقدرة على أداء مسؤولياتهن/م المهنية بكفاءة.

• في حالة الإدلاء بالآراء أمام أي أطراف خارجية من المهم الإفصاح والفصل الواضح بين الآراء الشخصية وتوجهات المؤسسة.

• الترويج للمبادئ والقيم التي تتبناها المؤسسة والإعلاء من شأنها من خلال الممارسة العملية التي تعكس صورة المنظمة.

تجاه المجتمع الواسع

• على المؤسسة ككل - قيادة، وعاملات وعاملين - المساهمة في النهوض بالأمن والسلامة العامة بدءًا من المستوى المحلي وصولًا إلى المستوى العالمي.

• على المؤسسة ككل المطالبة بظروف معيشية تؤدي إلى تلبية الاحتياجات الإنسانية الأساسية للجميع وتثمين القيم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية المتعلقة بحقوق الإنسان، وإعلاء شأن المؤسسات التي تساهم رسالتها في تحقيق العدالة الاجتماعية.

• اندراج المؤسسة ككل من خلال السياسات المتبعة وبواسطة العاملات والعاملين بها في أنشطة تساهم في النهوض بالقدرة المتساوية لدى جميع الناس - وخاصة الفئات الضعيفة والمهمشة - للوصول إلى الموارد والحصول عليها.

مقدمة

هذه الورقة عبارة عن جزء لا يتجزأ من وثيقة ميثاق أخلاقيات العمل ومدونة السلوك لمؤسسة المرأة الجديدة، وتُعد مكملة لها، إذ إن ميثاق أخلاقيات العمل ينص في أحد مبادئ العمل بالمؤسسة على «إعلاء قيمة النزاهة والأمانة المهنية على المستويين العام والخاص للوقوف بشكل شامخ أمام أي ادعاءات مضللة أو محاولات للتشهير»، وبالتالي فهي مُلزمة لجميع الأطراف المرتبطة بالمنظمة، أي جميع مستويات الهيكل التنظيمي بدءًا بالمستويات العليا المنوطة باتخاذ القرارات الخاصة بالسياسات والبت في الأمور التي تستدعي مقاربة حسَّاسة، والعاملات والعاملين على أساس دوام كامل، والعاملات والعاملين لجزء من الوقت، والمتعاقدات والمتعاقدين مع المؤسسة، والمتطوعات والمتطوعين طوال فترة تطوعهن/م. كما تأمل المؤسسة أن تتبنى جميع الأطراف المتعاملة معها، من منظمات شريكة، وصديقة، وجهات مستفيدة من أنشطتها، إدراج بُعد مكافحة الفساد في صُلب فلسفة وتوجهات منظماتهن/م، وأن تعكس ممارسات العاملين بها هذا الالتزام بمكافحة جميع أشكال الفساد، على الأقل على المستوى الداخلي. كذلك فإن الأطر القائمة لإدارة التعامل مع الفساد، من قوانين ومنظومة تشريعية وقواعد وأعراف اجتماعية، إلخ، لا تكفي وحدها بالنسبة إلى المنظمات غير الحكومية، فحينما تقوم تلك المنظمات ذاتيًّا وطوعيًّا ببلورة القواعد والإجراءات الداخلية التي تؤمِّن مستويات مرتفعة من النزاهة، والشفافية، والمحاسبية، فإن ذلك يبرز بصورة أقوى وأفضل لطبيعة وصدق توجهاتها.

تعريف الفساد وأهمية مكافحته

١. يمكن تعريف الفساد بصفة عامة بأنه إساءة استعمال للسلطة المُخوَّلة بالثقة من أجل الحصول على مكاسب خاصة أو لآخرين ممن يرتبطون بهن/م (أقارب، أصدقاء مقربين، أشخاص يُراد إرضاؤهم لأغراض شخصية، إلخ.) سواء كانت مالية، مادية، جنسية، أو أخرى. والسلطة هنا لا تشير حصريًّا إلى الرؤساء في العمل، أو من هن/م في التسلسل الهرمي في منصب أعلى، وإنما يمكن الإشارة إلى أشكال أخرى من السلطة، مثل السلطة الجسدية، والسلطة الذكورية، إلخ.
٢. كما تؤدي ممارسة الفساد إلى حرمان الفئات الأكثر ضعفًا وتهميشًا من الحصول على نصيب عادل من الموارد، ذلك أنه عادة ما تفتقد تلك الفئات القوة الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو السياسية، التي تؤهلها لمكافحة الفساد بطريقة فعَّالة، بل إنها أكثر عرضة للابتزاز والتهديد. ونظرًا إلى أن مؤسسة المرأة الجديدة تستهدف أساسًا تلك الفئات وتسعى إلى تمكينها، فقد تساهم مكافحة الفساد ونشر هذه الثقافة حولنا في التخفيف من حدة الظلم الذي تعانيه.

٣. في الإطار نفسه، ينادي عديد من المراجع حول الموضوع بالالتزام بسياسة انخفاض نسبة التسامح أمام الفساد إلى نقطة الصفر (zero tolerance towards corruption)، وهي السياسة التي تعتبر أن التسامح مع أي شكل من أشكال الفساد يتسبب في إحداث خسائر مهمة بالنسبة إلى صورة أهداف، ورؤية ورسالة المنظمات غير الحكومية، كما تذهب بعض التعريفات لهذه السياسة إلى أنها تعني عمليًّا معاقبة جميع أنواع الانحرافات بطريقة حاسمة مهما كانت صغيرة. وفي المقابل، هناك دراسات أخرى تشير إلى أنه يستحيل بصفة عامة التطبيق الحرفي لهذه السياسة. كما يشير البعض الآخر إلى أن الممارسات تختلف عبر الثقافات، مثل: نطاق حُسن الضيافة، إهداء أو قبول هدايا رمزية في المناسبات، وممارسات أخرى قد تُعتبر غير مقبولة في مواقع جغرافية بينما هي جزء من النسيج الثقافي في مواقع مغايرة.

المبادئ الحاكمة لسياسات مكافحة الفساد

من أجل نجاح سياسات مكافحة الفساد، اتفقت الأدبيات على توافر خمسة مبادئ أساسية، هي:

- القناعة التامة لدى القيادة العليا للمنظمة بأهمية هذه السياسة والالتزام بها.
- تقييم المخاطر التي تنتج عن حدوث الفساد ومواجهتها بطريقة فعَّالة.
- تبني إجراءات رقابية تسمح بالاكتشاف المُبكر لحدوث الفساد، وهو ما يرتبط أساسًا باللوائح المالية، وبطريقة صياغة المشروعات أو العقود التي قد تشير أحيانًا إلى احتمالات وجود خطر بحدوث الفساد، وبالمتابعة المنتظمة من قبل الجهة الإدارية الأعلى (أي المدير التنفيذي/المديرة التنفيذية).
- المراجعة، والإشراف، وتطبيق الإجراءات اللازمة بطريقة دورية ودون تردد، من خلال ما تكشفه الإجراءات الرقابية المنصوص عليها في البند السابق من انحرافات.
- توفير التدريب والتواصل مع العاملات والعاملين، وهذا يتطلب ضمن أمور أخرى استطلاع آراء العاملات والعاملين حول تصرفهن/م إزاء مطالبتهن/م بتقديم رشوة، متى يمكنهن/م قبول أو رفض هدية من عميل/ة خارجي أو من زميل/ة أو رئيس/ة في العمل، كيفية قيامهن/م بحل موقف يتضمن تضاربًا للمصالح، إلخ. وهذا ما يعني أن يتم التواصل والتدريب بطريقة منتظمة وبأكبر قدر من الشفافية تجاه طاقم العمل، مع إمداد جميع العاملات والعاملين بالمعلومات المفيدة حول كيفية التصرف عند مواجهة حالة فساد. كما ينبغي الإعلان بطريقة واضحة عن هذه السياسة، وربما تعليقها في مكان ظاهر داخل المنظمة، هذا بالإضافة إلى إلحاق ميثاق أخلاقيات العمل ومدونة السلوك وسياسة مكافحة الفساد بجميع التعاقدات، سواء عقود عمل، أو تقديم خدمات (مثل: الترجمة، أو خدمات أخرى مشابهة)، وإمداد المتعاقدات والمتعاقدين بصورة منها، وقيامهن/م بالتوقيع على قراءتها والموافقة عليها.

أشكال الفساد الشائعة

من المهم هنا التدرُّج في درجات خطورة أشكال الفساد، وتتضمن هذه القائمة أكثر أنواع الفساد المعروفة، ولكنها غير شاملة، كما أن الأمثلة عليها هي على سبيل المثال لا الحصر:

• عرض أو قبول أو المطالبة بالرشوة، سواء كانت نقدًا أو بأي شكل آخر مقابل الحصول على معاملة مميزة. ومن الوارد تمامًا أن تدخل العمولات غير المُعلنة للرؤساء المباشرين أو للمستويات الأعلى في مجال الرشوة، ومع الإعلان عنها، لا يتم الاحتفاظ بها للنفس، وإنما يتم تسليمها للقيادة العليا التي تقرر مصيرها.

• استغلال النفوذ للحصول على مزايا مادية أو أخرى، مثل: تشغيل الموظفين في أمور خاصة بصاحب/ة النفوذ، و/أو استعماله/استعمالها لأصول المنظمة لأغراض شخصية، أو محاباة عامل/ة (من الأقرباء، أو الأصدقاء الحميمين) على حساب عامل آخر/عاملة أخرى أكثر استحقاقًا.

• ممارسة المحسوبية في الحصول على مزايا للنفس أو للغير، مثل ترجيح الكفة لصالح تاجر/ة لا يقدم عروضًا مجزية للمؤسسة، وترتبط المحسوبية بالواسطة.

• التزوير، مثل: تزوير المستندات كالمطالبة ببدلات حول مهمات وهمية، أو إصدار أوامر الصرف لأشخاص غير فعليين، أو التزوير لأي سجلات خاصة مثل إضافة أسماء للمشاركات/ المشاركين في أحد الأنشطة.

• الاستعمال غير المُصرح به لأصول أو معلومات أو خدمات المنظمة لأغراض شخصية، مثل: استعمال أجهزة المنظمة لأمور شخصية، أو استعمال المواد المحظورة داخل المؤسسة (مثل: الكحوليات، أو المخدرات)، أو كشف معلومات خاصة بالمنظمة لأطراف خارجية.

• تضارب المصالح، مثل: تعيين أقرباء أو أصدقاء لا يتمتعون بالقدرات أو الكفاءة المطلوبة (هناك منظمات تمنع لوائحها منعًا باتًّا تشغيل الأقارب من الدرجة الأولى أو الثانية لطاقم العاملين)، أو اختيار شراء منتجات للمنظمة من محل يملكه صاحب إصدار أمر الشراء أو من أحد أصدقائه المقربين من العاملين بالمنظمة.

• الاحتيال، مثل: المطالبة بخدمات بدون عقود ثم الامتناع عن الدفع بحجة عدم وجود دليل، أو تقديم خدمات بمواصفات محددة، ثم تسليم المُنتج بمواصفات مغايرة أقل جودة، أو تقديم مسوغات تعيين مزورة.

• الاختلاس، مثل: الاستيلاء على أموال المنظمة بدون حق، أو على جزء من أدوات خاصة بنشاط ما، أو التلاعُب في الجداول التي تُرسل إلى البنوك بقيمة الأجور.

مسؤولية القيادات العليا للمؤسسة

• تقديم نموذج رفيع للنزاهة على المستوى المهني والشخصي والعام.

• الحرص في اختيار الشركاء الخارجيين وفقًا لمعايير محددة تتعلق بالسمعة، والممارسات،

والاحترام المُتبادل.

• نشر المبادئ المُتضمنة في هذه الوثيقة على نطاق واسع في صفوف العاملين وتدريبهم على سبل التعامل معها.

• في حالة الاشتباه في وجود بؤرة فساد داخلية تُشكَّل لجنة لتقصي الأمر، يكون هناك توافق تام حول أعضائها، وتحديد مهامها، والإشراف على توفير الإمكانيات اللازمة لأداء عملها.

• في حالة ثبوت حالة/حالات الفساد، اتخاذ القرارات بشأنها بالإجماع.

• في حالة التأكد من وجود فساد من خارج المؤسسة، قطع العلاقات مباشرة مع هذه الأطراف، وربما اتخاذ إجراءات ضدهم على حسب حجم الضرر الذي حدث بسبب هذا الفساد.

مسؤولية العاملات والعاملين بالمؤسسة

• في حالة الاشتباه في وجود أي شكل من الفساد داخل المؤسسة أو في الدوائر المحيطة بها، أو لو كان هناك فساد مورس فعليًّا، ينبغي الإبلاغ به مباشرة للرئيس المُباشر، وإن تعذر فللرئيس الأعلى، أو إلى مجلس الأمناء عند استنفاد جميع القنوات الأخرى.

• الامتناع البات عن دفع الرشاوى أو عرضها على الآخرين لتسهيل عملية ما، أو قبول الأموال، أو الهدايا الثمينة (مثل: تذاكر الطيران، أو المصنوعات القيِّمة، أو القروض، أو الخدمات الشخصية)، مع السعي إلى التعريف لمن يتعاملون معهم بموقف المنظمة من الفساد بصفة عامة والرشوة بصفة خاصة.

• الامتناع عن الإفصاح عن أي معلومات حصل/ت عليها العاملون/العاملات بحكم عملهم/ن داخل المؤسسة إلا لو كان هناك تفويض كتابي بالإدلاء ببعض المعلومات لجهة ما (سواء إعلام، جهة تقوم بالتحقيق في أمور جنائية، جهة بحثية تقوم بدراسة ميدانية حول أنشطة منظمتكم).

• في حالة وجود تحقيق داخلي حول عملية فساد، ونظرًا إلى أن مجلس الأمناء هو الذي يحدد تشكيل لجنة التحقيق بهذا الصدد، فعلى العاملات والعاملين بالمؤسسة التعاون بكل شفافية مع هذه اللجنة ومدها بالمعلومات اللازمة لأداء مهامها بطريقة سليمة.

الآليات الخاصة بالشكاوى المتعلقة بالاشتباه في وجود فساد

• على النظام الإداري امتلاك رؤية واضحة، وإجراءات متعلقة بقنوات توصيل الشكاوى الداخلية والخارجية وبتوقيتات البت فيها مع الإعلان عن تفاصيلها لجميع العاملات والعاملين (ويمكن أن تكون مُتضمنة في عقود العمل وفي لائحة العمل الداخلية). قد تتخذ تلك القنوات أشكالًا متنوعة مثل: الخطوط الساخنة، أو استعمال الرسائل الإلكترونية، أو التوجه للرئيس المباشر/ للرئيسة المباشرة، وفي حالة تعذُّر ذلك إما لرفض الرئيس المباشر/الرئيسة المباشرة، أو لأنه/لأنها هو/هي المشتبه فيه/فيها، يمكن أن يتم ذلك مع الرئيس/ة الأعلى للرئيس المباشر أو مع مجلس

الأمناء مباشرة بعد استنفاد جميع القنوات الأخرى.

• قبل التأكد من صحة الشكوى، تقوم الإدارة العليا بتشكيل لجنة لإجراء تحقيق مع الأطراف المعنية، وربما تحتاج هذه اللجنة إلى الاستماع لشهود إثبات أو نفي، قد تتكون هذه اللجنة حصريًّا من عضوات/أعضاء مجلس الأمناء (خاصة من تقترب التخصصات المهنية من إجراء هذه النوعية من التحقيقات)، أو أن يقوم المجلس بتكليف أطراف خارجية مشهود لها بالنزاهة التامة بالقيام بهذه المهمة. في جميع الأحوال، تقوم اللجنة في نهاية التحقيق بتحرير تقرير مفصل بما توصلت إليه من نتائج مع تقديم مقترحات محددة للتعامل مع الأمر، غير أن هذه المقترحات غير مُلزمة، ويصبح على مجلس الأمناء اتخاذ قراراته النهائية بشأنها.

• ينبغي أن تقوم الإدارة العليا بحماية خصوصية المُبلغ/ة بالشكوى لعدم تعرُضه/تعرضها لأي شكل من أشكال الابتزاز أو الانتقام، وهذا ما ينطبق أيضًا على الشهود والحفاظ على توثيق المعلومات التي تم الحصول عليها، لأنه قد يكون هناك تضارب للمصالح بين هؤلاء والشخص المُبلغ في حقه، سواء كان هذا داخليًّا أو خارجيًّا. وفي جميع الأحوال، يُفضل قيام لجنة التحقيق بتسجيل هذه اللقاءات بعد الحصول على الموافقة الكتابية على إجراء التسجيل.

اتخاذ إجراءات حاسمة في الحالات التالية

• إذا كان البلاغ كاذبًا بغرض الانتقام من شخص ما، فيمكن لمجلس الأمناء بعد الحصول على الحقائق تحديد العقوبات الخاصة بهذه الحالة، مثل: السعي إلى فض النزاع بين الطرفين ومطالبة الطرف المُبلغ بالاعتذار علنيًّا للطرف الآخر، و/أو التوقيف عن العمل لفترة مؤقتة، و/أو فرض عقوبة مالية مناسبة، حيث يُعتبر هذا الأمر في بعض الأدبيات شكلًا من أشكال التحرُّش أو التنمُّر.

• إذا كان الاشتباه مجرد افتراض غير مبني على أسس قوية ولكنه صادر بحسن نية، فقد تكون العقوبة في الاعتذار العلني للطرف المُبلغ في حقه وإرسال تنبيه كتابي للمُبلغ.

• اتخاذ إجراءات متدرجة حسب خطورة تبعات الفساد، خاصة إذا كان ذلك يهدد مصداقية المنظمة أمام نفسها أولًا، وأمام جمهورها المُستهدف، وأمام المجتمع ككل. هذه الإجراءات يمكنها التراوح فيما بين إجراءات إدارية عقابية (مثل: توقيف مؤقت عن العمل، عقوبات مالية، حرمان من الترقي الدوري، إلخ)، إنهاء الخدمة، أو - في الحالات القصوى - الإحالة إلى السلطات الجنائية.

• إذا كان الفساد واردًا من أطراف خارجية، ينبغي مباشرة قطع العلاقة مع تلك الأطراف والإعلان عن انقطاع الصلة بها، وينطبق ذلك أيضًا على حالات إنهاء خدمة أحد العاملين و/أو الإحالة إلى السلطات الجنائية، وذلك حرصًا على سمعة المنظمة.